



# المؤرخ العربي

مجلة تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب  
بغداد - العراق

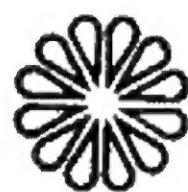


مركز تحقيق وتطوير علوم إيسوي

رئيس التحرير

الدكتور حسين أمين

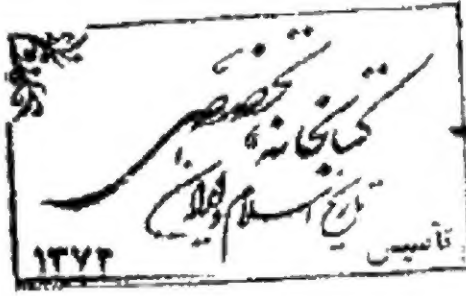
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب



العدد الخامس



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



## هيئة التحرير

- ١ - الدكتور مختار العبادي  
رئيس قسم التاريخ - جامعة الاسكندرية
- ٢ - الدكتور يوسف فضل  
عميد كلية الآداب - جامعة الخرطوم
- ٣ - الدكتور عبد الأمير محمد أمين  
رئيس قسم التاريخ - جامعة بغداد
- ٤ - الدكتور محمد زبيبر  
رئيس قسم التاريخ - جامعة الرباط
- ٥ - الدكتور صالح الحمارة  
رئيس قسم التاريخ - الجامعة الاردنية
- ٦ - الدكتور عبد القادر زبادية  
رئيس قسم التاريخ - جامعة الجزائر
- ٧ - الاستاذ ابراهيم البغلي  
مدير الآثار والمتاحف - الكويت
- ٨ - الاستاذ سلطان ناجي  
استاذ التاريخ - جامعة عدن
- ٩ - الاستاذ صباح غزال رحيم  
مدير الادارة في الامانة العامة - سكرتير التحرير العلمي
- ١٠ - السيد اسماعيل عبد العزيز عبد المجيد  
مدير العلاقات العامة - سكرتير التحرير الاداري



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی



# فهرس المواضيع

الصفحة

٧	مقدمة
٩	■ الصلة بين النظم الاسلامية للماوردي والنظم في العصر السلجوقي الدكتور حسين أمين - جامعة بغداد
١٥	■ تاريخ نشوء علم السكان ومثولة ابن خلدون منه الدكتور عبد الكريم الياني - دمشق
٣٣	■ دور الابله في تجارة الخليج الدكتور صالح الحمارنه - الاردن
٥٩	■ علوم الانسان واهميتها في دراسة اليمين القدماء الدكتور يوسف شلحد - عدن
٦٩	■ الحاجة الى اعادة كتابة التاريخ الاسلامي الدكتور محمود يوسف زايد - الجامعة الامريكية - بيروت
٨٣	■ تجديد في ظل الاصاله الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الكويت
٩٥	■ كربوفا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين ابراهيم خليل - جامعة الموصل
١٢١	■ اللقاء الحضاري في الاندلس الدكتور عبد العزيز الاهواني - القاهرة
١٣٣	■ بناء الانسان من جديد دكتور برونسور كارل بتراجك الاستاذ بجامعة براغ
١٤١	■ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سلجماسة عاصمة بني مدرار الدكتور الحبيب الجنحاني - تونس
١٥٩	■ العصور الوسطى الاوروبية ، حدودها الزمنية والنظريات التي قامت حول بدايتها الدكتور جوزيف نسيم - الاسكندرية
١٧٧	■ مكة المكرمة مركز الدعوة العباسية الدكتور علي عبد الرحمن ابا حسين - البحرين
٢٠٧	■ مصادر تاريخ الجزيرة العربية الدكتور عبد الامير محمد أمين - جامعة بغداد
٢٢٩	■ From the Arabian Gulf, to the Lands of the Bulgars Prof. Dr. Douglas Jackson
٢٤٥	■ نشاطات الاتحاد
٢٥٣	■ اهم الكتب التي صدرت حديثا



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

## مقدمة

الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب يسعدنا ان تقدم للقارىء الكريم هذا العدد الجديد من مجلته الموضوعية ( المؤرخ العربى ) وهى حافلة بالمواضيع والبحوث التاريخية التى ترمز الى وحدة الجهود المخلصة التى يبذلها المؤرخون العرب فى اخراج مجلتهم فى اطارها الفكري السامي وتضافر اقلامهم المبدعة لابرازها فى سمتها الاكاديمية العالية .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب وهى تقدم هذا العدد الجديد يشرفها ان تتقدم باخلص الشكر واجزله الى وزارة الاعلام والمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ( فى دولة الكويت ) على تفضلهما بالموافقة على طبع هذا العدد تشجيعا للاتحاد وتقديراً منها لجهود المؤرخين الكبيرة فى الحقلين القومى والعلمى .

تحية مخلصه الى كل من اسهم ويساهم فى دعم واسناد اتحاد المؤرخين العرب وتمكينه من اداء مهماته وتحقيق اهدافه ، وتحية الى جميع اخواننا وزملائنا المؤرخين العرب، ونعاهدكم على اننا سنبقى الامناء على العهد نعمل من اجل وحدة الهدف ووحدة الكلمة ووحدة التاريخ والحفاظ على تراث الأمة الخالد .

والله ولي التوفيق .

د. حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

# الصلة بين النظم الإسلامية للمأوردى والنظم فى العصر السلجوقى

الدكتور حسين امين  
جامعة بغداد

اتسعت حضارة الاسلام فى عصر المأوردى اتساعا كبيرا ، شمل ميادين الحياة كافة ، لا سيما ميدان النظم والقوانين . وقد كان هذا نتيجة للتجارب التى مرت بها الدولة الاسلامية عبر العصور الطويلة ، وللتقدم العلمى الذى حققه المجتمع الاسلامى فى السنين السابقة ، بعد أن تم اللقاء بين الشعوب التى تخضع لسلطان الخلافة العباسية ، سواء كانت عربية أو غير عربية ، فقد تعاونت هذه الشعوب على اختلاف قابلياتها ومواهبها ، وتراثها الحضارى وتنافست فى مجال الحركة العلمية وفى السياسة والادارة والتشريع فكان لذلك كله تأثير عظيم فى تطوير المجتمع ، ودفعه الى العمل من اجل التقدم الحضارى .

وكان لعصر الترجمة ، ولحركة الاعتزال يد فى هذا التطوير الشامل ذلك انهما أمدا رجال العلم بمعين لا ينضب من الاراء والمذاهب فى مجالات الفقه والفتيا والنظم بوجه عام .

وكان للجدل الذى أثير فى تلك السنين تأثير عظيم فى نضوج الفكر الادارى والسياسى أيضا .

وجاء عصر تحديد المذاهب الفقهية فى مجالات معينة فكان مكملًا لتلك الخطوة ذلك انه وان حصر مجال النظر فى اطار ضيق لا يتعداه ،

الا انه فتح الباب للنقاش والجدل ضمن ذلك الاطار الضيق ، وكان سببا في ظهور آراء جديدة ، دوتها كتب الفقه والفتيا والنظم .

وكان لعلماء الفقه يد بارزة في هذا السبيل ، فقد توسعوا في الاجتهاد ، وأتوا بتعليلات قيمة ، واحكام دقيقة ، نسج على منوالها كثيرون من علماء الاقطار الاسلامية الاخرين .

وكان قد قام القضاة بدور بارز في التوصل الى آراء جديدة في مجال الادارة والنظم وأتوا بآراء صائبة وبتخريجات مبتكرة لا نظير لها . وقد غذى الخلاف فيما بينهم في مجالس النظر ، مادة التشريع والنظم ، وكان السلاطين الذين حكموا بلاد الاسلام آنذاك - فيما يبدو - يشجعون الخلاف في امور الفقه والنظم ، ليصرفوا الناس عن الاشتغال بامور السياسة ، ويباعدوا بينهم وبين الحركات الفكرية التي اثارت كثيرا من المشكلات التي زعزت حكمهم . وكانت الخلافة العباسية على ما يبدو تشاطر السلاطين في هذا الرأي .

كان اكثر الفقهاء والقضاة في هذا الدور يعرضون مذاهب من تقدمهم ، ويرجعون بعضها على بعض ، ويدونون ذلك في كتبهم ، وقد انصبت معظم جهودهم على الجمع والتصنيف مع قليل من الآراء الجديدة ، أظهروها في باب « التخريجات » والماوردي كان احد اولئك القضاة الذين جمعوا آراء من سبقوه في باب النظم والفتيا .

والماوردي هو ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، ولد بالبصرة ونشأ فيها ثم استوطن بغداد وفوض اليه القضاء في بلدان كثيرة ، وكان جليل القدر متقدما عند السلطان ، دينا تقيا ، وهو من وجوه فقهاء الشافعية وكبارهم ومن أهم مصنفاته الاحكام السلطانية وكتاب أدب الدنيا والدين وقانون الوزارة وسياسة الملك وكتاب الحاوي وغيرها .

وكانت وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الاول سنة ٤٥٠ هـ ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد ، ومقبرة باب حرب ، فيما يبدو لي ، تقع في الشمال الغربي من مقابر قريش ( المشهد الكاظمي ) وفيها دفن الامام احمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ والصوفي البغدادي بشر الحافي المتوفى سنة ٢٢٧ هـ ، والمؤرخ الكبير الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وكثير من اعلام المسلمين .

وكان له دور بارز في نشر مبادئ الفقه الشافعي في اوساط العالم الاسلامي وكان له دور بارز في نشر مبادئ الفقه الشافعي في اوساط العالم الاسلامي وتعميقها الامر الذي يدل على كبير منزلته وعلو مكاتته بين رجال السلطة والناس معا . وكان سلاطين الدولة البويهية وهم من الشيعة الزيدية تثق به ويعتمدون عليه وكانت له صلة ودية بهم . وقد لقبوه بلقب ( أفضى القضاة ) تقديرا له واعترافا بفضله .

وقد كتب الماوردي في الفقه الشافعي كتبا لها اهميتها في توضيح وتبيين احكام الفقه الشافعي ، مثل كتاب الحاوي الكبير ، وكتاب الاقناع وهو مختصر لكتاب الحاوي ، وقد نشر فتاوى مستمدة من روح مبادئ الفقه الشافعي في الاحوال الشرعية المختلفة . وهذا الجهد الفقهي الواسع كان له اثره البالغ في تعميق مبادئ الفقه الشافعي في العراق بخاصة ، والعالم الاسلامي بعامة ، قد مهد الطريق - على ما اعتقد - للوزير نظام الملك لجعل المدارس النظامية ميدانا خاصا للمذهب الشافعي .

اما الاثر الآخر للماوردي فيظهر جليا في موضوع الاقطاع الذي كانت مظاهرة بارزة في العصر البويهي ، ذلك ان الأمراء البويهيين اقطعوا القواد وكبار الموظفين اقطاعات استهدفوا من ورائها استرضاءهم . وقد اقتضى الملاحقة اثر البويهيين في هذا الباب ، وزادوا عليهم . ولا يبعد أن يكون العصر السلجوقي قد تأثر كثيرا بما كتبه الماوردي في هذا العدد .



وقد أظهر نظام الملك الوزير السلجوقي نشاطا كبيرا في تثبيت الاقطاعات العسكرية لجميع الجند السلجوقي ، وادرك ان الفرسان المدرجين في ديوان الجند لم توزع عليهم الا اقطاعات قليلة مبشرة في سائر الاقاليم ، كما انه عارض فكرة تقليص عدد الجيش السلجوقي البالغ تعدادده ٧٠ ألف مقاتل ، وبذكر العماد الاصفهاني : ان الملك قد اختل نظامه والدين قد تبدلت احكامه في أواخر دولة الديلم ( البويهيين ) واولئل السلاحة ، وقد خرجت الممالك بين اقبال هذه وادبار تلك ، ولم يكن لاحد من قبل اقطاع ، فرأى نظام الملك ان الاموال لا تتحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ففرقها على الاجناد اقطاعا وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا ، فتوافرت ، ودواعيهم على عمارتها ، وعادت في اقصر مدة الى احسن حالة من حليتها ... وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار في السنة فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه في أقصى خراسان ، وصاحب القرار راض .

مما سبق يبدو ان نظام الملك كان قد تأثر تأثرا كبيرا بالتنظيمات البويهية الخاصة بالاقطاع الا انه اظهر كفاءة كبيرة في تنظيمه وتنفيذه بشكل يعود على الدولة السلجوقية بما يجعلها تواكب مسيرتها لبلوغ اهدافها المرسومة ، ويمكن أن نقول ان نظام الملك كان أول من نفذ النظام الاقطاعي الحربي بشكله العام المنظم ، اذا ما علمنا ان هذا النظام كما قلت كان موجودا ومعمولا به في عصر البويهيين ، ولكن بشكل غير منتظم وسبب فوضى كبيرة كما انه لم يكن يشمل جميع العسكريين .

وهناك نقطة مهمة لذلك النظام تلك هي ان الاقطاع البويهي امتلاك الارض . اما في العصر السلجوقي فان طبيعة الاقطاع فيه ، هو ان حق المقطع يتعلق بخراج الارض لا بالارض ذاتها ، فليست له سيطرة على المشتغلين بها ، كما انه يخضع لسلطة الحكومة وعليه أن لا يسيء استعمال اقطاعه ، كما يجوز نزع الاقطاع من المقطع اذا لم يقم بالالتزامات المفروضة عليه ، وكان الاقطاع السلجوقي محدود الامد ، فالتعديلات التي اجريت في العصر السلجوقي زمن نظام الملك أدت الى تنظيم الاقطاع واستهدفت ضمان



عدم الاساءة في استخدامه،لهذا نرى أن المقطعين كانوا يعملون جهدهم الى  
تحسين اقطاعاتهم وتنظيمها والاستفادة منها وتنفيذ الالتزامات المفروضة  
عليهم كي يكسبوا ارضاء الحكومة ويستمرروا في استثمارها .

هذا ولا يخفى ان الماوردى قد تناول هذا الموضوع وأسهب فيه ،  
والباحث المتعمق في أحوال الدولة السلجوقية،وتوزيعها للاقطاعات ومعالجتها  
لمشكلات الاقطاع ، يرى بوضوح التشابه القوى بين آراء الماوردى وما  
طبق في العصر السلجوقى .





# تاريخ نشوء علم السكان ومنزلة ابن خلدون منه

الدكتور عبد الكريم اليافي

يتألف هذا البحث من قسمين : يعرض القسم الاول مراحل نشوء هذا العلم كما يتصور الغربيون ويبرز القسم الثاني سبق ابن خلدون الى هذا الميدان بايضاحه علاقات العامل السكاني بجملة « متغيرات » اقتصادية وحضارية وثقافية الى جانب اعتماده هذا العامل مقياسا في دحض بعض المزاعم التاريخية .

( ١ )

عقدت بباريس صيف ١٩٦١ الدورة الثالثة عشرة لمعهد الاحصاء العالمى بحث خلالها بعض العلماء الديمغرافيين تاريخ ميلاد علم السكان فنسبوا انشاءه الى التاجر الانكليزى جون غرونت John Graunt وبعد امد نشر بوريس اولانس احد الاسانذة في معهد الاقتصاد باكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتى مقالا في مجلة بريد اليونسكو بعنوان « ميراث جون غرونت » (١) تحدث فيه عن ميلاد ذلك العلم . لتتعقب اولا ملامح هذا المقال . يرى مؤلفه من الصعب معرفة تاريخ ميلاد علم من العلوم معرفة دقيقة تامة ، اذ يكون غالبا مبعثرا او مطويا في غياهب الماضى السحيق . ولكنه يستثنى من هذا التعميم علم السكان او « الديمغرافية » اذ اعتبر العلماء الحديثون كانون الثانى سنة ١٦٦٢ تاريخ ميلاد ذلك العلم حين نشر جون غرونت احد رجال الاعمال في لندن كتابا بعنوان « ملاحظات طبيعية واجتماعية حول لوائح الوفيات

Natural and political observation made upon the Bills of Mortality.

( السياسى Political هنا بمعنى اجتماعى )

فكان هذا السفر اول عمل علمى في مجال الديمغرافية • ويكون قد مضى على نشوء هذا العلم ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة •

لقد عكف ذلك التاجر فى ساعات فراغه جالسا قرب موقده ليلا على دراسة كشوف اسبوعية بالوفيات الواقعة فى لندن • ومن دراسته تلك وتحليله نجم ذلك الكتاب • وكان لغرونت صديق جسيم هو وليم بيتى William Petty عمدا الى بعض الحسابات فى هذا النطاق ، والف كتابا بعنوان « الحساب الاجتماعى » "Political Arithmetic" فدفعت هذا الكتاب تلك البحوث بعض الخطوات الى الامام • لقد وجد بيتى ان ثلاثة آلاف وفاة كانت فى اكبر مستشفى بباريس من وراء سوء تنظيمه • هذا ولا احد بمعصم من الخطأ •

فقد اعتبر بيتى ان سكان لندن سوف يستمرون فى الازدياد حتى سنة ١٨٠٠ فقط • ولكن مجرى التاريخ اظهر خطأ حكمة اذ ازداد اهالى لندن ثمانية اضعاف فى خلال مائة وخمسين سنة تلت ذلك التاريخ •

وجرى على آثارها فى هذا المضمار الفلكى الانكليزى ادموند هالى Edmund Halley • فاعتمد الاحصائية المتوافرة فى مدينة برسلاو Breslau ( التبا اصبح اسمها اليوم فركلو Wroolaw ) فأنشأ سنة ١٦٩٣ اولى جداول وفيات • وقد نشرتها له الجمعية الملكية التى تأسست عام ١٦٦٠ وهى اقدم الجمعيات العلمية فى انكلترة •

ثم انتقلت هذه البحوث الى اليابسة باوروبة ابان القرن الثامن عشر ، حيث اهتم بها العلماء من مختلف الاقطار • فقد الف الاسف زسملش Süssmilch فى جند فريدريك الكبير كتابا سنة ١٧٤٢ بعنوان « العناية الالهية فى تطور النوع البشرى »

Die Gottliche ordnung in den Veraderung des Menschlichen Geschlechts  
وسلك نهجه فى فرنسة ديبارسبو Deparcieux وموهر Moheau

وفي ذلك العهد ظهرت تباشير علم السكان في روسية على يد ميخائيل لومونوسوف ذى الفكر الموسوعي . فلقد كان فيزياويا وكيمائويا وشاعرا وجغرافيا واقتصاديا واحصائيا . انما عرض آراءه في قضايا السكان خلال رسالة كتبها في ١ تشرين الثانى سنة ١٧٦١ الى صديقه الكونت شلافالوف خدن البراطورة اليزابت . أبان فيها مختلف العوامل التى تؤثر في السكان فتكبح نموهم ووصف التدابير التى تستطيع أن تحول دون ذلك الكبح ، وأشار في رسالته من خلال تلك العوامل الى تفاوت اعمار الزوجين والى ارتفاع وفيات الرضع والى اثر ادمان الخمر في ارتفاع معدل الوفيات عامة كما أشار الى قضية الهجرة من روسية واعتبر النازحين بمثابة « جثث ميتة » . وبحوثه هذه تدخل في نطاق السياسة الديمغرافية .

وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهر في انكلترة كتاب صغير اغفل مؤلفه اسمه فيه بعنوان « بحث في مبدأ السكان » وازن صاحبه فيه بين ازدياد القوت او ما ندعوه الثروة في العصر الحاضر وتكاثر النوع الانسانى وخلص الى ان فقر الفقراء ناجم عن غريزة الانسال لا عن سوء النظام الاقتصادى والسياسى القائمين اذ ذاك . مؤلف هذا الكتاب الذى راج رواجا كبيرا هو القس الانكليزى توماس مالتس ، فوسعه واعلن اسمه وطبعه عدة مرات .

ثم جاء الباحث البلجيكى كيتلى Quételet في القرن التاسع عشر فوطد دعائم الاحصاء عامة ، ومع انه لم يكن ركنا بارزا في الرياضيات فقد توفق الى تطبيق حساب الاحتمال والاحصاء على القضايا الانسانية من ولادات و زواج ووفيات وغيرها .

وكان تعداد السكان قد اصبح امرا يزاوله بعض الدول مزاولة دورية منتظمة ( اول تعداد جرى في السويد سنة ١٧٤٩ وكانت تشمل فنلنده ولكن التعداد الدورى المنظم بدأ في الولايات المتحدة الاميركية منذ سنة ١٧٩٠ كل عشر سنوات ، وفي بريطانيا منذ سنة ١٨٠١ ، وفي بروسية منذ

١٨١٠ ، وفي النمسا والمجر منذ ١٨١٨ وهلم جرا . ) وكذلك توطدت دوائر ضبط النفوس واحصاء الاحوال المدنية في مختلف البلاد . فقدم كل ذلك مادة غزيرة للعلماء الحديثين الذين توالوا وتعاقبوا في هذا الميدان . ومن المعلوم ان الباحثين اعتادوا ان يطلقوا على هذا النوع من دراسات السكان لفظ « الديمغرافية » كما سلف . واول من استعمل هذا اللفظ المفكر الفرنسي آشيل غيار Achille Guillard سنة ١٨٥٥ في كتابه المسمى « مبادئ الاحصاء البشرى او الموازنة في الديمغرافية » . Eléments de statistique humaine ou démographie comparée . وكان الباحثون قبلا يقولون احصاء السكان ومن الواضح ان لفظ الديمغرافية مؤلف من عنصرين يونانيين Demes ومعناه الشعب وGraphein ومعناه الوصف .

واريد تغيير هذا اللفظ المتضمن معنى الوصف ، فاستبدل به لفظ الديمولوجية Démologie اشارة الى الناحية العلمية في هذه الدراسات فلم يتح لهذا اللفظ الانتشار ولا البقاء .

ولما اتى العالم الاجتماعى اميل دركهايم Emile Durkheim قسم علم الاجتماع اقساماً عدة ، وجعل من هذه الاقسام بحثاً اطلق عليه لفظ « المرفولوجية الاجتماعية » "Morphologie sociale" او علم التشكل الاجتماعى يتناول موضوعه اشكال المجتمعات وارتباط السكان بالارض وتوزعهم عليها وخصائصهم الديمغرافية والهجرة الداخلية والخارجية وسبل المواصلات وانماط المساكن وما تعلق بذلك . ولا يخفى ان هذا القسم عند المدرسة الاجتماعية الفرنسية واسع تدخل فيه المباحث التى يدل عليها لفظ الديمغرافية . وكان امام علماء الاجتماع ان يختاروا احد اللفظين الاخيرين دفعا للبس واختصارا للمصطلحات . وقد آثر موريس هلفكس Maurice Halbwachs وهو من اتباع دركهايم المقتفين لآثاره

لفظ المرفولوجية الاجتماعية على الديمغرافية • وحجته في ذلك ان تعبير دركهايم يتضمن معنى العلم ، ولفظ الديمغرافية يفيد الوصف المحض ، وكتب كتابا وسمه بعنوان « المرفولوجية الاجتماعية » يبحث اغلب فصوله قضايا السكان من توزع على الارض واعداد و جنسى ذكور واثاث وولادات وزواج ووفيات وهجرة وما الى ذلك متقيدا فيه بالمنهج الدركهايمى •

وانشأ بعض علماء الاجتماع الامريكيين امثال رديك د • ماكنزى Roderick D . Mackenzie دراسات اجتماعية دعوها الايدولوجية البشرية Human ecology ولفظ الايكولوجية في علم الاحياء يفيد دراسة علاقة الكائن الحي ببيئته • فاطلق هذا اللفظ بالتوسع على دراسة النظم الاجتماعية وعلاقتها بتجمع السكان وبيئاتهم • ويدخل هذا الاعتبار كثيرا من هذه البحوث فيما يريده دركهايم من لفظ المرفولوجية الاجتماعية •

وهكذا يبدو ان لفظ المرفولوجية الاجتماعية اوسع واعم من لفظ الديمغرافية حتى اطلق بعض الباحثين على دراسة السكان وقضاياهم من حيث الزواج والمواليد والاعداد والوفيات والهجرة لفظ المرفولوجية الديمغرافية •

وشاع اصطلاح الاحصاء الحيوى Vital statistics في اللغة الانكليزية ، وهو يقابل في الفرنسية Statistique de l'état civil ويعنى ضبط الاحوال المدنية وتطبيق الطرق الاحصائية عليها • وثمة في الانكليزية لفظ آخر وهو Civil registration له الدلالة نفسها •

على ان لفظ الديمغرافية غدا اشيع هذه المصطلحات في هذا المجال • وقد اصبحت الديمغرافية في العصر علما يتسع نطاقه شيئا فشيئا ، ويشمل على فروع عدة ، نذكر منها :

١ - انساب الناس •

٢ - التعداد اى جمع احوال السكان الشخصية والاقتصادية والثقافية والصحية وغيرها ، وتقوم به الحكومات عادة •

٣ - ضبط الاحوال المدنية كالولادات والزواج والطلاق والمرض والوفيات والهجرة وامثالها وتطبيق الطرق الاحصائية عليها •

٤ - المسوح السكانية ، وهي طرق تعتمد ( عينات ) جزئية تختار بين السكان للحكم على المجموع ومعرفة بعض خصائصه •

٥ - القياسات الحيوية التى تتناول بالدراسة والرموز نمو الانسان وخصائصه من قوة وقامة وابعاد جمجمة وتركيب دم وتعمير وتعرض للأمراض وما الى ذلك •

٦ - تسجيل الامراض الانسانية ، وتقوم دوائر الصحة والمشفى وشركات الضمان وامثالها بدراسة احتمال التعرض لها •

٧ - بحوث تحسين السلالات الانسانية وقضايا الوراثة المتعلقة بها •

٨ - الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية والثقافية والنفسية المرتبطة بما سلف ذكره •

( ٢ )

لقد عرضنا عرضا يكاد يكون وافيا تاريخ نشوء الديمغرافية ومراحل توطدها في العصر الحديث • ويجب ان نشير اول الامر الى اننا نجد شذرات متفرقة من تلك الفروع فيما كتبه الاقدمون من يونان كافلاطون في « الجمهورية » وارسطو في « السياسة » ومن مؤلفين عرب عدة • ومن المعروف ان العرب كانوا يعنون بالانساب وتسجيلها وانهم انتبهوا للعوامل المؤثرة في نمو السكان وتنقلهم ووفياتهم • ولكن كل ذلك كان متصلا باعتبارات فكرية مختلفة فلسفية او دينية او حرية او غيرها ، ولم تكن



له الصفات العلمية المتطلبة • وقد تغير الامر تماما حين جاء ابن خلدون ،  
فعالج في مقدمته التى كتبها عام ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م مختلف القضايا  
التاريخية والاجتماعية والادارية والاقتصادية واولى الشؤون السكانية  
عناية فائقة •

ولما اراد ابن خلدون فى مقدمة « مقدمته » ان يلمح - على حد  
تعبيره - لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاهام ، وينبه على وجوب  
تمحيص اخبارهم وان بلغوا القمة من الشهرة والذروة من الحصافة اورد  
مثلا على ما نقله المسعودى وكثير من المؤرخين غيره فى جيوش بنى اسرائيل  
من « ان موسى عليه السلام احصاهم فى التيه بعد ان اجاز من يطبق  
حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة الف او  
يزيدون » ثم ينقد هذه الرواية من جملة وجوه احداها عدم احتمال ذلك  
العدد بالقياس الى ما يمكن ان تعبئه مصر والشام • ان « لكل مملكة  
من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها ،  
تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ... ولقد كان ملك  
الفرس ودولتهم اعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير ، ومع ذلك لم تبلغ  
جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه » • ثم هنالك ايضا عدم  
الاحتمال لازدياد بنى اسرائيل الى هذا الحد فى الفترة الواقعة بين اسرائيل  
وموسى • والمسعودى نفسه يروى ان قد « دخل اسرائيل مصر مع ولده  
الاسباط واولادهم حين اتوا الى يوسف سبعين نفسا ، وكان مقامهم بمصر  
الى ان خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة  
تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة » • ويبعد ان يتشعب النسل فى اربعة  
اجيال الى مثل هذا العدد • وكذلك يبعد ان يتشعب النسل الى ذلك  
الحد لو ان احصاء الجيش وقع فى زمن سليمان •

ان المؤرخين العرب كالمسعودى وامثاله نقلوا معلوماتهم تلك من  
« العهد القديم » جاء فى الفقرة ٤٦ من الفصل الاول من سفر العدد « كان

جميع المعدودين ست مئة وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين » ( ٢ ) وورد هذا الرقم ايضا في الفقرة ٣٢ من الفصل الثاني من السفر نفسه .

يبد ان العهد القديم كتاب ديني . ولذلك أخذ المسعودي الخبر منه على عواهنه . ولم يعرض ابن خلدون لهذا الكتاب الذي له صفة خاصة ، وانما انتقد المؤرخين الذين لم يحصوا الخبر من الوجهة العلمية .

ومن السهل بيان عدم الاحتمال لذلك التناسل بشتى الارقام . وقد ابان الباحثون بعد مئات السنين من عهد ابن خلدون امتناعه . جاء في كتاب « تاريخ سكان العالم » لمؤلفيه الاستاذين رنهار وارمنغوه ما يلي ( ٣ ) « ولهذا كان اولئك الذين فحصوا كشوف اعداد السكان بمجموعها او على الاصح عدد القادرين على حمل السلاح مما جاء في التوراة استغربوا جواز احتمالها . فالكشوف تستلزم كون السكان يبلغ مجموعهم خمسة ملايين نسمة كسكان مصر وما بين النهرين على الرغم من ضآلة مساحة المنطقة وقلة غناها بالنسبة لذينك القطرين . ثم ان سرعة التناسل تبدو غير مقبولة في تلك التواريخ المعروضة . »

وجرى على نهج هذين الاستاذين غيوم وبوسو في كتاب لهما حديث بعنوان « الديمغرافية التاريخية » فالحا على امتناع ارقام التوراة حين ننظر الى تاريخ البلد او المنطقة في ذلك العصر « فذلك العدد يتضمن وجود اكثر من خمسة ملايين نسمة . وهذا غير ممكن . وقلة دقة الارقام يثبتها علم السكان نفسه لان معدل النمو اذ ذاك اسرع مما هو ممكن ، كذلك توزع الجنسين والاعمار ممتنع ( ٤ ) » .

او ليس مؤلف المقدمة في موقعه المتأمل لمدى ازدياد السكان واعتماده اياه مقياسا لدحض بعض الارقام التاريخية هو واضع حجر الاساس قبل مئات السنين في الصرح الحديث للديمغرافية التاريخية .

ان الحياة الاجتماعية تتألف من جملة « متغيرات » واهمية ابن خلدون انه نوه بهذه المتغيرات ، وربط بينها ربطا اقرب ما يكون الى الموقف الذى تعتمد عليه فلسفة العلوم في العصر الحاضر . وذلك ان فلسفة العلوم المعاصرة تعتبر تلك المتغيرات ذات اشتباك وتداخل على شكل « دالة » او « تابع » بالمعنى الرياضى للتابع والدالة دون ان تلح على سببية وحيدة الجانب كما فعل بعض المفكرين امثال « تارد » فى التقليد و « فرويد » فى مشكلة « الليبيدو » وغيرها .

يجبو ابن خلدون عدد السكان مكانة كبيرة ويربط بينه وبين سعة الرزق ورفاهية الناس وازدهار التجارة . فقد عقد فصلا فى « ان تفاضل الامصار والمدن فى كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما هو فى تفاضل عمرانها فى انكثرة والقلة » وينبغى ان تفهم من لفظ العمران هنا عدد السكان مع كثرة الاعمال التى يقومون بها والتنظيم الذى يشملهم . ولا بد من ايراد شطر من هذا الفصل . يقول ابن خلدون ، « والسبب فى ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجياته فى معاشه ، وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك . والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الاكثر من عددهم اضعافا . فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه . واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة من حداد ونجار للالات وقائم على البقر واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا ، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فان حينئذ قوت لاضعافهم مرات . فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم . فأهل مدينة او مصر اذا وزعت اعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقل من تلك الاعمال ، وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات ، فتصرف فى حالات الترف وعوائد وما يحتاج اليه غيرهم من اهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضة وقيمة ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى ، وقد

تبين . . . . ان المكاسب انما هي قيم الاعمال ، فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بينهم ، فكثرت مكاسبهم ضرورة ، ودعتهم احوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التألق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وهذه كلها اعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها . فتتنفق اسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ، ويحصل اليسار لمتحلي ذلك من قبل اعمالهم . ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ، ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته ، واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها ، وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية ، ونفقت سوق الاعمال بها اكثر من الاول ، وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة ، لان الاعمال الاصلية التى تختص بالمعاش . فالمصر اذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد فى الآخر . فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله . فى الترف ابلغ من حال المصر الذى دونه وتيرة واحدة فى الاصناف .

ثم يقول : « واما حال الدخل والخرج فمتكافىء فى جميع الامصار . ومتى عظم الدخل عظم الخرج ، وبالعكس . ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال الساكن ووسع المصر .

كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تفكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والاىثار على مبتغيه » .

لقد اطلنا فى ذكر هذا النص . ويشفع لنا فى الاطالة اهميته فى الديمغرافية الاقتصادية التى تبين العلاقة الواشجة بين السكان والاقتصاد . والاقطار عند ابن خلدون كالامصار تقدما او تأخرا بسبب العمران واتساع السكان . فهو يعقد فصلا آخر « فى ان الاقطار فى اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار » فيقول : « ان ما توفر عمرانه من الاقطار وتعددت الامم فى

جهاته وكثر ساكنه اتسعت احوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم وممالكهم . والسبب في ذلك ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما يأتي ذكره من انها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضرورات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته » ويضرب مثلا اقطارا في المشرق وفي المغرب لعهد : « واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنها وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم .

واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر افريقية وبرقة ( تونس وليبيا ) لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها ، وانتهوا الى الفقر والخصاصة ، وضعفت جباياتها فقلت اموال دولها » .

ونجد ابن خلدون في هذا الصدد ينتبه لتفاوت اسعار المدن في الضروري والكمالي بتفاوت اتساعها « فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضروري من القوت وما في معناه ، وغلت اسعار الكمالي من الادم والفواكه وما يتبعها . واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانها كان الامر بالعكس » .

وتعليل ذلك ان الدواعي تتوفر على اتخاذ الضروري في الامصار الواسعة وعلى تأمينه للحاجة الملحة اليه ، فيفضل وفر منه وترخص اسعاره ، على حين ان الكمالي فيها يشتد الطلب عليه فيقصر الموجود منه عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون له وهو قليل في ذاته نسبيا فيقع فيه الغلاء .

وعلى خلاف ذلك « الامصار الصغيرة القليلة الساكن . فاقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت ، فيتمسكون بما يحصل منه في ايديهم ويحشرونه ، فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه . واما مرافقهم فلا تدعو اليها حاجة لقلة الساكن وضعف الاحوال ، فلا تنفق لديهم سوقه ، فيختص بالرخص في سعره » .

ومن المناسب هنا ان ننوه « ان ابن خلدون حين يتحدث في « حقيقة الرزق والكسب » ويشرحها يرى ان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية . فهو يقترب من نظرية ماركس في العمل والقيمة . انه يقرر ان « ما يفيد الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد والمقتنى منه قيمة عمله ، وهو القصد بالقيمة ، اذ ليس هناك الا العمل » وعلى هذا فان المفادات والمكتسبات كلها أو اكثرها انما هي قيم الاعمال الانسانية « ولا يغفل ابن خلدون دخول الضرائب في قيمة السلع فيقول .

« وقد يدخل ايضا في قيمة الاقوات ما يفرض عليها من المكوس والمضارم للسلطان في الاسواق وابواب المصر وللجباة في منافع يفرضونها على البياعات لاتسهم » ( ٥ ) .

كذلك يربط صاحب المقدمة بين اتساع العمران وتقدم الحضارة ورسوخها ويولي الدولة شانا في هذا المجال « واكثر ما يقع ذلك في الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في اهلها وذلك كله انما يجيء من قبل الدولة » ( ٦ ) ولا شك ان المال عنصر اساسي في هذا التقدم .

ثم ان « العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ( ٧ ) وذلك » ان الصنائع انما تكثر في الامصار . وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصة الانسان وهي العلوم والصنائع . ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ في القرى والامصار غير المتمدة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في اهل البدو كما قدمناه . ولا بد من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها .

واعتبر ما قرراه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار

العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم واصناف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين • ولما تناقص عمرانها وابدع سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام •

هذا وللدولة اعمار ، ولل عمران مراحل • وهذه المرحلة متصلة بالظواهر الديمغرافية • ان الدولة في اول امرها اذا كانت « رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا لل عمران واسبابه فتوفر ، ويكثر النسل » ( ٨ ) حتى اذا انتهت الدولة الى غايتها في الترف والنعيم تقع المجاعات بسبب عوز الاقوات لقبض الناس ايديهم عن الفلح للعدوان في الاموال والجبايات وللقتن كما يكثر الموتان بسبب المجاعات انفسها والفتن والازدحام وانتشار الامراض ( ٨ ) •

اما قضية الازدحام وانتشار الامراض فهذا صحيح • لقد كان معدل الوفيات لامد قريب في الريف بحيث تنبسط الحقول وتشتبك الغابات اقل منه في المدن • بيد ان الامر قد انقلب في عقود السنين الثلاثة الاخيرة ، فاصبح في المدن اقل منه في الارياف بوجه عام او لاعمار معينة ( ٩ )

ذلك ان احوال المدن في العصر الحاضر قد تغيرت عنها في غابر الدهر • فقد اتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافق الحياة وجرت المياه النقية الى البيوت وانتشرت النظافة واخذت الهيئات المسؤولة تبذل جهودها في تنظيم الخطط المناسبة لانشاء المدارس والحوانيت في افضل الاحوال المريحة •

وقد نبه ابن خلدون قديما على ان تخلل الخلاء والقفور بين العمران ضرورى ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح ، ولهذا ايضا فان الموتان يكون في المدن الوفيرة العمران اكثر من غيرها بكثير » ( ٨ ) •



ان ذكر ابن خلدون لفظ مخالطة الحيوانات التي كانت مطايا الركوب  
لعهده ينبغي ان نستبدل به في عصرنا مخالطة السيارات وما تنفثه في الجو  
من بقايا المحروقات . واذا كان معدل الوفيات قد تبدل في العصر الحاضر  
فنقص بالمدن عنه بالريف فلقد كان ذلك العالم العربي حريصا على الاحتياط والتنبيه  
الى اختلاف الاحوال حين كتب في مقدمة « مقدمته » هذه الفقرة الرائعة  
« وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة  
واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على مر الايام والازمنة وانتقال  
من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار  
فكذلك يقع في الافاق والاقطار . »

واما المجاعات فيهمنا هنا من بعض اسبابها التي ذكرها ابن خلدون  
الاسراف في العناية بزراعة ما ليس فيه ليس فيه فائدة غذائية للشعب المزدهم  
لنترك هذا المؤلف يتحدث ايضا فيقول : « وهذا معنى ما يقول بعض اهل الخواص  
ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارج تأذنت بالخراب . حتى ان كثيرا من  
العامة يتحامي غرس النارج بالدور ، وليس المراد ذلك ، ولا انه خاصية في  
النارج وانما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة . ثم  
ان النارج والليم والسرو وامثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية  
الحضارة اذ لا يقصد بها في البساتين الا اشكالها فقط ، ولا تغرس الا بعد  
التفنن في مذاهب الترف . وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر  
وخرابه كما قلناه . ولقد قيل مثل ذلك في الدفلي . وهو من هذا الباب ،  
ان الدفلي لا يقصد بها الا تلون البساتين بنورها ما بين احمر وايض وهو  
من مذاهب الترف ( ١٠ ) يمكن مقايسة هذه الاراء الاخيرة المتعلقة بزراعة  
الارض ما لا يغذى بما جاء عند فريق من الاقتصاديين الغربيين ، نختار منهم  
اقتصاديا طريفا هو اوتو افرتز



لقد ارتكز هذا الاقتصادي الحديث الى قول المفكر الانكليزي وليم بتي الذي مر ذكره والذي عاش في القرن السابع عشر وهو « ان العمل ابو الثروة والارض امها » فاعتبر ان « الانسان يتغذى من التراب » وان « الانسان يأكل ترابا » على حد تعبيره . وحقا تندر السلع الغذائية التي لا تأتي من الارض .

فاستهلاك الخيرات التي تعتمد خاصة على الارض ولا ينفع استهلاكها بالناس انما هو « تحطيم لارواح بشرية » على حد دعواه ، اذ لو لم تستهلك تلك الخيرات في تربية خيل السباق مثلا او حدائق التجميل لعاشت بها الناس فاستهلاكها يحرمهم من الوجود . وهنا تنجلي بعض العبارات المستغلقة التي يوردها اوتو افرتز فيقول مثلا : « ان الاسرة المتأثرة التي للزوج فيها رياضته وللزوجة زينتها لتزرع الموت والاستعباد بين طائفة من الكائنات الانسانية » (١١) .

وهكذا تفهم موقف ابن خلدون في الحكم على المغالاة في ترف المزروعات التجميلية عند ازدهار الشعب في اكتمال الحضارة ووقوع المجاعات .

## الخلاصة

والخلاصة انه لبيان مكانة ابن خلدون قد تفيد مقارنته ولو لماما بآخرين من المشاهير في هذا الميدان .

لقد شاع اسم مالتس في عالم الاقتصاد والسكان . وهو الوجه المنيف في مراحل نشوء هذين العلمين . رأى هذا القس الانكليزي ازدياد النوع البشري أشد من ازدياد الثروة، كما رأى الارتباط حتميا بين هذين المتغيرين ورد على مبادئ غودوين الاشتراكية وعلى مزاعم كندورسي المتفائلة في تطور الانسان وادعى ان القوانين الثابتة للطبيعة البشرية تجعل من المتعذر تخليص طبقات المجتمع الدنيا من نير الفاقة . فلاح كتابه لا يدعو الى الفلاح ، وكأنه نعيب غراب على شرفات جدران المدينة .

وفي المقابل نجد ابن خلدون اكثر تفعا في تفهم عناصر المجتمع واوسع  
انتباها لمختلف « التغيرات » الاجتماعية وارجح موقفا في بيان العلاقات  
المتطورة بينها واصدق تحديدا لمعالم الحضارة واكد تمييزا لمقاييسها وذلك في  
سياق بحثه للحوادث التاريخية والظواهر الانسانية . وانه لمن الظلم لابن  
خلدون على تقدم عهده ان يوازن بينه وبين مالتس واشباهه او ليس جديرا  
بعد ما قدمناه ان يعتبر مؤلف المقدمة واضع الحجر الاساسي في الديمغرافية  
الاقتصادية ايضا ان لم تقل في الديمغرافية كلها .

لقد ترجمت مقدمة ابن خلدون منذ امد الى بعض اللغات الاجنبية .  
وعلى هذا ليس صحيحا انه من السهل الحسم بتاريخ ميلاد الديمغرافية كما  
فعل بعض الباحثين ، بل انه من الضروري الانتباه للتراث الحضاري الانساني  
اجمع لا الى جزء ضئيل وضيق منه . ولما كانت الديمغرافية تهتم بالاعمار  
وجب ان نصح لها عمرها .

وهكذا يكون ميلادها الحقيقي مقرونا بميلاد مقدمة ابن خلدون قد  
مضى عليه خمسمائة وثمان وتسعون سنة لا ثلاثمائة وثلاث عشرة .

## المصادر والمراجع

- ( ١ ) Boris Ourlamis, Le Courrier, Unesco, février, 1967.
- ( ٢ ) نحافظ هنا على طريقة كتابة العهد القديم . وهي طريقة اهل الكوفة في كتابة الرقم ١٠٠
- ( ٣ ) Marcel R. Reinhard et André Armengaud, Histoire de la population mondiale, Ed, Montohrestien, 1961, p. 26.
- ( ٤ ) Pierre Guillaume et Jean Poussou, Démographie historique Librairie A. colin, 1970, p. 39.
- ( ٥ ) اعتمدنا في ايراد نصوص المقدمة طبعة الاستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي وقد ذكر الاستاذ التحريف الكبير الذي اصاب هذه الجملة في « فصل اسعار المدن » اذ وردت وابواب الحفر والحياة . ولكن المحقق صححها على النسخة الخطية التيمورية . هذا ونرى ربما كان الاصل « وابواب الخفر والجباة » والخفر هو الحراسة .
- ( ٦ ) فصل في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول
- ( ٧ ) عنوان فصل في المقدمة
- ( ٨ ) فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات
- ( ٩ ) انظر في بيان ذلك كتابنا « فصول في المجتمع والنفس » ص ٩٧ ، ٩٨.
- ( ١٠ ) فصل في ان الحضارة غاية العمران
- ( ١١ ) Otto Effertz, Théorie ponophysiocratique de la population ( ١١ )  
وانظر ايضا  
Revue d'Econo mie politique, 1914  
Pierre fromont, D emographie Economique Payot 1974  
وكتابنا في علم السكان جامعة دمشق ١٩٥٩ .



# دور الأبله في تجارة الخليج

الدكتور صالح الحمارنة

الجامعة الاردنية - كلية الآداب

عمان

لقد كان الابله اليونانى Apologos معروفا في المئة الرابعة قبل الميلاد فقد ذكره نيار خوس Near chus البحار الاقريطشى فقد كان هذا البحار قائدا لاسطول الاسكندر وقد اختاره الاسكندر للتعرف على الطريق البحرى من نهر السند الى مصب الرافدين ، فأعد لذلك اسطولا ضخما فبدأت رحلته عام ٣٢٦ ق.م. من ميناء الاسكندر ، الواقعة على مقربة من كراتشى الحالية . وقد طالت رحلته خمسة شهور ومما ذكره بالنسبة لمدينة ابو لوخوس « فيها مستودع تجارات خليج فارس » وان ابولو خوس هي الابله عند العرب و ubulum فى النقوش الاكاديه (٣) .

والظاهر ان اليونانيين بعد الاسكندر قد تكاثروا في اقليم البطائح وفي البصرة حيث كانت تقوم مدينة تريدون ( ترذن ) وكانت الابله بمثابة الميناء لهذه المدينة وكان اليونانيون يشتغلون بالملاحة والتجارة .

وهناك كتاب صغير من تأليف تاجر يونانى كان يعيش في مصر في القرن الاول للميلاد واسم هذا الكتاب مترجم الى الانكليزية Periplus of the Erythraean Sea وقد سماه الاستاذ تقولا زيادة ب « دليل البحر الارشرى (٤) » .



يذكر المؤلف فيه بالنسبة للخليج العربى اسمين فقط وهما ابو  
لوخوس ( الابله ) وشراكس سباز لينى ( المحمره ) • ويكتفى بالاشارة الى  
عمان بالنسبة الى الخليج الآخر • ويذكرنا بان عمان فيها تمر وبيد وسفن  
مخيطه أو كما يبدأ من الكلمة التى يذكرها « مادراتا » مدرعه على ما ارتأى  
غلازر ، ولكن عمان الميناء كانت متجرا كبيرا اذ كان يأتىها النحاس وعود  
الند وخشب التيك والأبنوس والخشب الاسود ( من الهند ) والبخور  
( من قنا ) ، كما انها كانت تصدر بالمقابل القوارب والسفن المدرعه ( من  
جدوع النخل ) واللؤلؤ ( الآتى من الخليج العربى ) والثياب وبعض  
البيد والذهب والرقيق ( ٥ ) •

أما بالنسبة الى الابله فيقول عنها أنها مدينة من أسواق « بارتيا »  
أى اقليم فارس ، تصدر الى اليمن الكثير من اللؤلؤ والارجوان  
والخمور والبلح والذهب والعبيد وربما كان سكان هذين الميناءين  
التوأمين ( اى ابولوغوس وشراكس ) مزيجا من العرب والكلدانيين والفرس  
وكان أحدهما او كلاهما نقطة بداية لرحلات حول الجزيرة العربية ( ٦ ) •

من هنا نرى ان تجارة الخليج العربى طوال عهد الامبراطورية  
الرومانية كانت من أيدي مدن صغيرة مثل الابله وشراكس • يضاف اليهما  
مدينة تدمر السورية فى الصحراء وكان لها معها اتصال وثيق ( ٧ ) •

ومن المحتمل ايضا ان الفرس كانوا يسيرون السفن من الابله الى  
الصين قبل الاسلام ، فلقد كانت جزيرة سيلان مركز التجارة البحرية فى  
الفترة الساسانية ما بين الصين والشرق الادنى • اذ ثمة تجارة مباشرة كانت  
قائمة ما بين الامبراطورية الساسانية والصين ( ٨ ) ، وكان المشتغلون بالملاحة  
والتجارة فى الابله عرب وفرس ، فلقد شكوا من نشاط التجار العرب والفرس  
المتسلطين على متاجر الخليج العربى وموانئ منذ وقت بعيد انطيوخوس  
الرابع ( ١٧ - ١٦٤ ) ق م السلوقى ( ٩ ) •

ولا غرو فان الطبرى يذكر « ان الابله كانت تسمى قبل الاسلام -  
فرج الهند - (١٠) فقد كانت العلاقات البحرية بين هذا الميناء والهند وثيقة  
الى حد بعيد حتى ان حاكمها الفارسى كان قد حارب الهند في البحر . مما  
يدل على وجود قراصنه من الهنود في الخليج العربى أو خليج عمان (١١) .

من هنا نرى ان الابله كانت عند الفتح الاسلامى للعراق مرفأ السفن  
من عمان والبحرين ومن الهند والصين ، فكيف تم فتح هذا الميناء وكيف  
كان مصيره في العهد الجديد في ظل الدولة العربية الاسلامية .

لقد كان يقطن في الابله قبيل الفتح بجانب العرب والفرس كثير من  
النبط ونصارى ويهود ففي السنوات ( ٥٢٤ - ٥٣٥ ) م كان في الابله  
مركز لمطرائية النصارى النساطره (١٢) .

ومن بين العشائر العربية التى كانت مستوطنة قرب الابله كانت قبيلة  
بكر الباسلة والتى كانت قد انتصرت عن الفرس قبل الاسلام في معركة ذى  
قار وقد شجعها هذا الانتصار فاخذ بعض رجالها يقومون بغارات على  
الاطراف الغربية للدولة الساسانية ( ١٣ ) يشرح البلاذرى في كتابه «فتوح  
البلدان» فتح الابله بشيء من التفصيل لا نرى ضرورة نقله هنا ولكنه  
يذكر ان عتبه ( ابن غزوان ) غزا الابله وفتحها عنوة . وكتب الى عمر بن  
الخطاب ( ٦٣٤ - ٦٤٤ ) م يعلمه ذلك ويخبره ان الابله فرضة البحرين  
وعمان والهند والصين (١٤) .

ويذكر الشيخ نعمان بن العراق وهو من المؤرخين المتأخرين ( القرن  
العاشر/السادس عشر م ) في كتابه « معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر  
تفاصيل جمه حول فتح الابله منها انه لما نزل عتبه الخريبه كان في الابله  
خمسة من الاساوره ( فرس ) وكانت مرفأ الصين وما دونها ، خرج اليه  
اهل الابله فناهضهم عتبه . . وبعد ايام القى الله في قلوب اهلها الرعب



فخرجوا عن المدينة وحملوا ما خف وعبروا الفرات وخلوا المدينة فدخل المسلمون فأصابوا متاعا وسلاحا وسبيا وعينا ..

يذكر الشيخ نعمان : لما فتح المسلمون الأبله لم يجدوا قساما يقسم بينهم وكان زياد ( ابن ابيه ) الذي شارك بالفتح معهم ) قاسمهم وهو ابن اربع عشرة سنة وله ذؤابة فأجروا عليه كل يوم درهمين » .

وقال أحدهم « شهدت فتح أبله مع عتبة بن غزوان فأصبنا سفينة مملوءة جوزا فقال رجل ما ما هذه الحجارة ؟ وكسرناها فأكلنا منها ، فقلت هذه طعام طيب » . ويضيف الشيخ النعمان فيقول « والأبله صغيرة المقدار حسنة الديار واسعة العمارة مستقلة البساتين عامرة بالناس ( المياسير ) وأهلها من أخصب العيش ورفاهيته ... وهم ابخل قرية وابعدها عن السبخاء (١٤) .

مثل هذا الوصف قد سبق اليه الجغرافيون والمؤرخون العرب منذ نهاية القرن الثالث فالرابع الهجري وما بعد ذلك التاريخ ، فمثلا نرى الاصطخرى يقول « الأبله مدينة صغيرة خصبة عامرة ... » . ويزيد فيصف الميناء ونهر الابله فيقول وللبصرة نهر يعرف بنهر الابله طوله اربعة فراسخ ما بين البصرة والابله ، وفي حافتي هذا النهر قصور وبساتين متصلة وكأنها بستان واحد .. » (١٦).

ويزيد في هذا الوصف ابن حوقل فيقول « وكان لبساتين بضاف الأبله » قد مدت على خيط ، ورضيغت بالمجالس الحسنة والمناظر الانيقة والابنية الفاخرة والعروش العجيبة والاشجار المثمرة والفواكه اللذيذة ، والرياحين الغضة المركب منها مثل الحيوان والبرك الفسيحة المرصوفة . ولا تخلو من المختزهن بغرائب الملاذ وتحف المتطرقين منحدرين ومصعرين » ومشهورة في التاريخ « المناديل البليه والعمائم » (١٧) .



من هنا نرى ان الأبله هي مرفأ البصرة ومركز تجارتها البحرية .  
وكان نهر الابله مرصوفا بالسفن بصورة مستمرة وقد صرفت مبالغ كبيرة  
لانشاء ادراج صخرية على ضفاف نهر الابله ليتمكن النزول الى مستوى  
النهر النواطىء وقت الجزر تسهيلا لشحن السفر بالبضائع أو لتفريغها (١٨) .  
وقد ظلت الابله مركزا للتجارة البحرية حتى بعد حفر قناة الابله التى كانت  
تربط هذا الميناء بالبصرة نظرا لأنه كان في فوهة هذه القناة دواراة تمنع  
مرور السفن ( ١٩ ) .

أما ناصر خسرو والذي أتى بعد الاصطخرى وابن حوقل فيما يقارب  
القرن فيذكر في كتابه سفرنامه حينما زار بنفسه الابله والبصرة وفي التحديد  
في عام ٤٤٢هـ / ١٠٥١م فيقول : -

« والابله التي تقع على النهر المسمى بها ، مدينة عامرة وقد رأيت  
صورها وأسواقها ومساجدها واربطتها وهي من الجمال بحيث لا يمكن  
حدها أو وصفها ، والمدينة الاصلية تقع على الجانب الشمالي للنهر وعلى  
جانبه الجنوبي يوجد من الشوارع والمساحد والاربطة والاسواق والابنية  
الكبيرة ما لا يوجد أحسن منه في العالم . وهذا الجانب الجنوبي يسمى شق  
عثمان والشط الكبير الذي هو دجلة والفرات مجتمعين والمسمى شط العرب  
يقع شرقي الابله والمدينة في الجنوب ويلتقي نهر الابله والمعقل عند البصرة  
( ٢٠ ) .

أما حول الميناء نفسه فيذكر ناصر خسرو « انه كان من المتعذر في وقت  
ما ان تمر سفينة في فم الابله لعظم عمق مائه ، ثم يروى هذه القصة التى  
يكررها غيره بشكل آخر (٢١) فيقول . . « أمرت امرأة من أثرياء البصرة  
بتجهيز اربعمائة مركب ملاتها بنوى التمر وأغرقتها هناك بعد احكام سدائها  
فارتفع القاع وتيسر عبور السفن (٢٢) .

أما الشيء المهم الذي يذكره ناصر خسرو فهو الخشاب ( المنار ) الذي أنشئ في ميناء الابله من أجل ارشاد السفن فيقول : - « يتكون الخشاب من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق وهو مربع قاعدته متسعة وقمته ضيقة ويرتفع عن سطح أربعين ذارعا قمته حجارة مقامة على عمد من خشب كأنها سقف ومن فوقها أربعة يقف بها الحراس ، وكان الغرض منه ( اى الخشاب ) شيئين : أحدهما انه بنى في جهة ضحلة يضيق البحر عندها فاذا بلغتها سفينة كبيرة ارتطمت بالارض ، ففي الليل يشعلون سراجا في زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح ، وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحناطون وينجون . . والثاني : ليعرف الملاحون الاتجاه وليروا القرصان ان وجدوا وذلك بتحويل اتجاه السفينة . ويستمر فيقول ، ولما اجتزنا الخشاب ، بحيث اصبح لا يرى رأينا آخر مثله ، ولكن ليس على سطحة قبة لأنهم لم يستطيعوا اكماله ( ٢٣ ) .

وابن جوقل يورد ذكر الابله ضمن مدن البصرة فيقول : -

« ولها ( أى البصرة ) من المدن عبادان ، والابلة والمفتح والمذار في مجارى دجلة ، وهي مدن صغار متقاربة في الكبر عامرة ، والابلة اكبرها وأفسحها رقعة وهي أحد حدود البصرة من جهة نهرها . . . . والابله من بينها عامرة وبها اسواق صالحة ولها حد آخر من عمود دجلة مكان يتشعب منها النهر المعروف بنهر الابله ، وينتهي عمود دجلة الى البحر بعبادان بعد أن يضرب الى نهر الابله ( ٢٤ ) .

قد رأينا ان ميناء الابله قد استسلم للقوات العربية الاسلامية بسرعة وبدون مقاومة تذكر رغم صغر القوات العربية التي هاجمتها وفتحتها عنوة مما يدل على أن الساسانيين قد اخلوها ( ٢٥ ) وفيما بعد أصبحت الابله مركزا اداريا لطوج وعين لها عامل خاص وقام فيها مركز لجباية العشور .

أما حجم التجارة فالراجح انه لم يكن ثابتاً ، بل تعرض لتغيرات كبيرة ، في القرن الاول الهجري ، ويروى الحسن البصري انه جاء رجل الى ابن عباس فقال أتقبل منك الابل بمائة الف ، فضربه ابن عباس مائة وصلبه حياً « ولما كانت العشور هي حوالي ١٠٪ من ثمن البضاعة ، لذا يمكن القول بأن هذه التجارة كانت تبلغ حوالي مليون درهم سنوياً (٢٦) » .

وأود هنا أن أذكر اسماء بعض ولاة مدينة الابل مستقاة من المصادر :

ابن أبي بكره - البلاذري فتوح ٣٨٥ ،

خبيبه بن كنان ( يعمر ) اشتقاق ص ٢١٣

كلاب بن اليه ( لزياد ابن أبيه ) أغاني ج ١٨ ص ١٥٦ .

أمية بن عبد الله بن خالد ( البلاذري ) انساب ج ٤ قسم ٢ ص ١٥٢

أنس بن مالك ( لابن الزبير ) سعد ج ٧ ، قسم ١ ، ص ١٥٩ .

كرار السهمي ( للحجاج ) البلاذري انساب الاشراف ، ص ٣٣ ، طبعة

١ هلورث ابو المليح الهزلي ( ) سعد ج ٧ ، قسم ١ ، ص ١٥٩ (٢٧) .

يذكر الدكتور صالح العلي : « ان انشاء مدينة البصرة أدى الى

تضاؤل أهمية الابل فاصبحت ميناء ثانوي لتجارة البصريين (٢٨) وصحيح

ايضا أن أحوال البصرة في اوائل العهد الاسلامي كانت أقل توفيقاً من الكوفة

خاصة في جذب المهاجرين من العرب ، ففتوحاتها كانت بطيئة ودخلها قليل ،

لذلك قرر الخليفة عمر بن الخطاب ان يخصص للبصريين دخل بعض

المقاطعات التي فتحها اهل الكوفة ... ويبدو ان هذا كان من العوامل التي

شجعت البدو المقيمين في أطراف منطقة البصرة على الهجرة اليها (٢٩) بل

نرى انه أثناء اماره عبد الله بن عامر ( ٢٥ - ٣١ هـ ) قد اتسعت جبهة القتال

التي يقوم بها البصريون فأصبحت قواتهم مسؤولة عن الفتوح في كافة

المقاطعات الواقعة شرقي الخليج الفارسي ، والتي كانت حتى ذلك الوقت

تقوم بها الجيوش الاسلامية من قاعدتها في البحرين ، فبعد فتوح اقليم فارس

وسجستان وكرمان شارك فيها البصريون وكذلك فتوح خراسان (٣٠) .

ازداد دخل البصرة وانتشر الرخاء الاقتصادي الامر الذى شجع التجار ورجال الاعمال على التقاطر وبذلك بدأت الحياة المدنية تنمو نموا سريعا ، وكان للبصريين وملاحى الابله الدور الكبير فى التجارة البحرية •

على انه يجب الانتباه ان مركز البصرة الكبير والذى ازداد مع الايام كبرا واهمية فى ظل الدولة الاسلامية قد اعطى هذا الامر بالذات أهمية خاصة على الابله نفسها كونها كانت ميناء مدينة البصرة العظيمه ، وقد اثنى الجاحظ على همة البصريين التجارية وحُبهم للمغامرة : يقال أنه ليس فى الارض بلده واسطة ولا بادية شاسعة ، ولا طرف من الاطراف ، الا وانت واجد بها المدينى والبصرى والحيرى (٣١) •

وقد اتفقت كلمة أصحاب الرحلات على علو همة البصريين وبعدهم فى التجارة (٣٢) حتى قال ابن الفقيه : « وابعد الناس نجمه فى الكسب بصرى وحميرى ، ومن دخل فرغانه القصوى والسوس الاقصى ، فلا بد أن يرى فيها بصرىا أو حميريا (٣٣) ففي الحديث عن ماسة المينا فى شمالي افريقية يذكر ياقوت « قرية على البحر تحمل اليها التجارات وفيها المسجد المعروف بمسجد بهلول وفيه الرباط على ساحل البحر ويلقى البحر عند مسجد بهلول المراكب الخيطة التي تعمل بالابله التي يركب فيها الى الصين •

ويذكر الافغانى ان البضائع كانت تحمل الى البصرة من مختلف بلدان الشرق حتى وصفت بأنها « قبة الاسلام » (٣٤) وليس من باب المصادفة ان يكون مؤلف أول كتاب فى التجارة وهو الجاحظ ( توفى ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ) بعنوان « التبصر فى التجارة » من اهل البصرة فكانت البصرة باب العراق ومحط التجارة الشرقية ثم تجارة القوافل البرية الآتية من الصحراء ولقد لعب المريد سوق البصرة الشهير الذى يقع غربى المدينة وجهة الصحراء دورا كبيرا فى تسويق المنتوجات الصحراوية خاصة الابل ، كذلك لعب دوره المعروف فى الحياة الثقافية فى البصرة مما كان له الاثر العميق فى الثقافة

العربية الاسلامية هذا فضلا عن ان سوق المربد كان مجععا للناس عند الاحداث السياسية الهامة في تاريخ العرب المسلمين (٣٥) وقد بدأ الانحلال في المربد - بعد مرحلة المزدهرة منذ الفترة الراشدية فالاموية فالقرن الثالث الهجري من العصر العباسي في القرن الرابع الهجري ، وما جاء زمن ياقوت (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) حتى أضحي بلدة صغيرة منعزلة على حافة الصحراء غرب البصرة على بعد ثلاثة أميال منها (٣٦) .

قال ابن قتيبة : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة (٣٧) ، ونضيف نحن فنقول والابلة مينأؤها .

اذن فقد كان في تولي العباسيين للخلافة قوة جديدة دفعت الى الامام التجارة البحرية الواردة الى الخليج العربي ، والصادرة عنه ، وذلك لاقتال العاصمة من دمشق الى بغداد اذ يشير اليعقوبي اشارة واضحة الى ان المنصور كان عالما بالميزات الاقتصادية التي ينطوي عليها موقع بغداد ، ويضع على لسانه هذا القول « والا فجزيرة بين دجلة والفرات ، دجلة شرقيها والفرات غربيها شرعة لدنيا كل ما يأتي من دجلة من واسط والبصرة والابلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فاليها ترقى وبها ترسى وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وآذر بيجان وارمينية مما يحمل من السفن في دجلة وما يأتي من ديار مضر والرقعة والشام والثغور ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحتط وينزل ومدرجه اهل الجبال واصبهان وكور خرامان فالحمد لله الذي ذخرها لي واغفل كل من تقدمني والله لا بنينها ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدي من بعدى ثم اتكونن أعسر مدينة في الارض (٣٨) .

من هنا نرى ان موقع بغداد بل العراق كله قد ساعد على نمو التجارة اذ اصبح العراق جسرا بين ايران والهند وأواسط آسيا والصين من جانب والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب من الجانب الآخر وهكذا قدر

لسكان العراق — عند توفر الظروف — ان يصبحوا وسطاء فعالين في تجارة العالم المتمدن (٣٩) •

فتوسط بغداد بين الطرق التجارية بين الشرق الاقصى والهند من جهة وبين اوروبا من جهة أخرى ، قد جعل لها اهمية دولية كبيرة ، وعلى هذا الطريق في القرن الثالث الهجري كان التجار الرهدانية\* الذين يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا يأتون ببغداد ثم يركبون دجله الى الابله ومن الابله الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (٤٠) •

يضاف الى ذلك العلاقات الاقتصادية والتجارية التي كانت قائمة بين بلد وآخر من بلدان ان الخلافة الشاسعة المساحات والتي كانت من ذلك الحين بين محيطين الهندي شرقا والاطلسي غربا ، فكانت شواطئ هذه الامبراطورية تغتسل بمياه أربعة بحار : —

البحر الابيض المتوسط ، والبحر الاسود والبحر الاحمر والخليج الفارسي وكانت هذه التجارة النشطة تقوم على الصناعات المتقدمة المتطورة وعلى الاتاج المعدني (٤١) • فابحتلال العرب لسواحل الخليج الفارسي كلها قد وحدوا في امبراطوريتهم من جديد ، ما بين بلاد غربي آسيا ( ما عدا الاناضول ) ومصر • وكان حلفاء الاسكندر قد شطروا هذه المنطقة الاقتصادية شطرين ، فالخليج العربي والبحر الاحمر لم يعودا طريقين متنافسين وقد استعملا جنبا لجنب طوال احتفاظ الدولة الاسلامية بوحدتها فقد راجت التجارة في الخليج العربي من الابله وعمان وايران والبحرين مع موانئ الهند والصين أيما رواج في عهد العباسيين ، طوال المدة التي كانت فيها ببغداد أولى مدن الشرق الاوسط (٤٢) •

وكان من الابله ميناء البصرة مبدأ الطرق البحرية فيذهب اولها الى الهند والصين ، بينما يدور الثاني حول سواحل الجزيرة العربية الى البحر



الاحمر والى شمالي افريقية • ولما كان الخليج ضحلا - كما ذكرنا - عند  
مصب دجله العوراء ، فقد انشئ منار من البحر تسترشد به السفن القادمة  
الى البصرة •

وقد استعمل العرب المراكب الصغيرة للملاحة الساحلية ، بينما  
استعملوا مراكب كبيرة لعرض البحار ، وكانت الواح مراكب البحر الابيض  
تربط بعضها بالمسامير ، وتلمع بالفحم ، ( منذ ايام الحجاج ) أما مراكب  
البحر الاحمر والمحيط الهندي فاتبعوا طريقة أخرى في بنائها ، اذ كانت  
تخاط بحبال من الليف • وقد وصف لنا ابن جبير طريقة ذلك فيقول : هي  
مخيفة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه الى ان  
يتخيط ، ويقتلون منه أمراسا يخطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان  
النخل ، فاذا فرغوا من انشاء المركب عى هذه الصفة ، سقوها بالسمن ، او  
بدهن الخروج ، او بدهن القرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم  
في البحر (٤٣) •

وكانت مراكب البصرة بيضاء لانها « مشحمة بالشحم والنوره وكانت  
المراكب التي تذهب الى الصين كبيرة جدا » اذ يبلغ ارتفاعها عن سطح الماء  
حدا يضطر الناس الى استعمال سلاسل يبلغ ارتفاعها نحو العشرة اقدام  
ليصعدوا الى سطحها (٤٤) •

وقد اخذ البحارة البصريون / يخرجون من الابله / يرتادون جميع الجزر  
الواقعة في الخليج العربي وتعرفوا الى الموانئ الطبيعية فيه ، وبعد ذلك  
انطلقوا الى المحيط الهندي واسسوا لهم مراكز تجارية في سقطره وزنجبار  
وفي الشاطئ الشرقي لافريقيا ، وكانت السفن البصريه تحمل من افريقيه  
العبيد الزنج والعاج والاشباب الثمينة والتبر والحجارة الكريمة • وبعد  
ان تم اتصال التجار البصريين بجزيرة سيلان وتجارها شرعت البصرة تشتري  
العاج والحجارة الكريمة ( وخاصة العقيق ) والتوابل ويأخذون اليها  
البضائع ومنها النيذ العراقي •

وعلى الشاطئ الغربي للهند ( في ملبار ) كانت عدة مراكز تجارية يقيم فيها آلاف من تجار المسلمين العرب من رعايا الخليفة العباسي اهم مساجدهم وقضاتهم (٤٥) •

لقد رأينا النمو الاقتصادي الكبير لميناء البصرة ولكن هذا القول قد حدث تدريجيا فقد ظلت اليمن محتفظة بمركزها التجاري الهام طوال القرن الاول الهجري / ١٤٦ كما كان في الخليج عدد غير قليل من المراكز الهامة التي استفادت ايضا من تحول التجارة الهندية • فلم يكن لميناء البصرة ان يصبح من الموانئ الرئيسية وان يلعب دوره الخطير في التجارة البحرية مع الشرق الاقصى دون الاعتماد على ميناء صحار في عمان ( الميناء الذي حلت محله مسقط فيما بعد ) هذا الميناء الذي كان أعمر مدينة بعمان واكثرها مالا ، ذات اسواق عجيبة وبلده ظريفه دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ..... وبها متاجر البحر ومقصد المراكب والسوق فيها سوق تجارية محضة • ويعشر الناس في هذه السوق للجلندي صاحبها (٤٧) • ولقد كانت صحار أقرب الموانئ العربية لرسو السفن الاتية من الهند الى الابله ، الامر الذي ساعدها ان تصبح ( فوق كونها ميناء ) مركزا للتجارة مع الهند وافريقية • وقد نمت فيها بعض الصناعات وخاصة النسيج الذي يصدر حتى الحجاز في عهد الرسول ، ولكن نظرا لموقعها الجغرافية المنعزل فان الحياة الاقتصادية فيها لم تنم لدرجة تهدد معها سيادة البصرة ، فظلمت مجرد محطة لوقوف السفن التجارية مع الهند (٤٨) •

أما ميناء دارين الذي كان في اوائل العصر الاسلامي من المراكز العربية الهامة للتجارة وخاصة تجارة المسك ، فلقد كان للمسك الداري شهرة في كافة انحاء الجزيرة • وكان التجار الداريون يصدرونه الى البصرة ومدن شرقي الجزيرة وحتى الى الحجاز • حيث كان للدارين في المدينة المنورة جالية كبيرة ، ولكن يبدو ان دارين اخذت تضعف تدريجيا بعد انشاء البصرة التي أصبحت المركز الرئيسي لتجارة الهند (٤٩) •

ومن الموانئ المزدهرة أيضا في ذلك الحين كان ولا شك ميناء سيراف (الطاهرة اليوم) في كرمان الواقعة على الشاطئ الإيراني جنوب شيراز والمحاذي للخليج العربي وإن المضاحل الخوانه عند مصب نهر الأبله والتي كانت تعترض الملاحة هناك قد سببت في نمو ميناء سيراف حتى بلغت التجارة فيه مبلغا جعل منه منافسا للبصرة ومينائها الأبله في الغنى والثروة . رغم أن هذه المدينة كانت تقوم على شاطئ حار ومجذب شأنها شأن عدن . وكانت سيراف تعيش على ما يرد إليها من مؤن عبر البحر . فكان الفضل لوجودها كله لتجارها البحرية . ويصف الجغرافيون العرب دور التوف التي كان يقيم تجارها وأصحاب سفنها فكانت مبنية من طوابق من خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الأخشاب المجلو به من شرق أفريقية . وإن الشحنات كانت تجلب عامة في سفن صغيرة من الأبله ميناء البصرة إلى سيراف حيث تنقل إلى السفن الكبيرة تنقلها إلى الصين (٥٠) . وقد أصاب ملاحو سيراف حفا وافر من الغنى حتى أن أحدهم بلغ ملكه أربعة ألف دينار ، وكانت أبنيتها ذات الطبقات العديدة تصنع من خشب الساج الثمين والآجر وكانت الدار الواحد تشتري بما يزيد عن المئة ألف درهم (٥١) .

وهكذا فقد كانت الرحلة إلى بحار الهند والصين أو إلى شرق أفريقيا تبدأ من الأبله ، وتجتاز عبادان بارشاد الناطور الساكن في الخشبات وفي سيراف تتجمع السفن ، وقد تحمل سفن صغيرة التاجر والبضائع من البصرة إلى سيراف حيث تنقل إلى السفن الكبيرة هناك . فإذا انحدرت السفن في الخليج كان عليها أن تتجنب المتلصصه ، (٥٢) . لذلك كثيرا ما كانت السفن تحمل النفاطين والمقاتلين ( كما كان بفضل البحارة الصينيون ) . وكانت أكثر السفن تعرج على صحار أو مسقط لتحمل بضائع جديدة وتتزود بالماء . وكان بعض السفن يتبع الطريق في محاذاة شواطئ فارس ثم شواطئ مكران فشواطئ السند .

ويجب هنا الحذر كذلك من القراصنة الذين كانت سوقطره من  
أو كارههم ( ٥٣ ) • وأن بعض السفن تتجه من عمان الى شرقى افريقية ،  
ولعل أقصى ما وصاته في تلك الجهات جزيرة مدغشقر ( ٥٤ ) •

ويقول المسعودى ( ٥٥ ) ان الموسم الذى كان العرب يبحرون فيه عامة  
من الجزء الغربى من المحيط الهندى هو عندما تكون الشمس فى القوس  
Sagittari s اى النصف الثانى من تشرين ثانى (نوفمبر ) والنصف  
الاول من كانون أول ( ديسمبر ) فالسفن نادرا ما كانت تبحر فى حزيران  
( يونيه ) ويذكر الحورانى قلا عن كتاب أخبار الصين والهند هذه الازمنة  
عن الرحلات الى الصين :-

من مسقط الى كولم ملي شهر قمرى ( ٢٩ - ٣٠ يوما )

من كولم الى تله بار شهر

من كله الى صنف فولاو شهر

من صنف فولاذى الى كاتتون شهر

فالرحلة من مسقط الى كاتتون ميناء الصين العظيم تستغرق ١٢٠  
يوما ، عدا فترات الوقوف فى الموانىء ، ولهذا يجب ان تقدر ستة شهور  
أو اكثر للرحلة كلها من البصرة أو سيراف ، واذا ربطنا هذا القول بالحقائق  
الثابتة عن المناخ فى البحار الشرقية توافر لنا ما يفي بالغوص ( ٥٦ ) •

فالسفن القاصدة الى الصين كانت تهبط الخليج العربى قبل أن تشتد  
عواصفه ، اى فى شهر ايلول ( سبتمبر ) أو شهر تشرين أول ( اكتوبر )  
وتعبر المحيط مسقط الى ساحل ملبار على الشاطئ العربى للهند ، مع  
الرياح الموسمية الشمالية الشرقية كما تفصل اليوم ( ٥٧ ) وفى ملبار هذه  
مراكز تجارية يقيم فيها آلاف من تجار المسلمين العرب ، لهم مساجدهم  
وقضاتهم • وكانت الهند تصدر الى بلدان الخلافة البهارات والانسجة بما

في ذلك أفخر الاقمشة الحريرية ، وكذلك نشأت على الشاطئ الجنوبي الشرقي للهند ( كورومانديل ) مراكز تجارية للتجار المسلمين ، وكانت هذه المراكز التجارية تستورد سنويا عشرات الالوف من الجياد العربية ( ٥٨ ) . ثم بعد الوصول الى كاتتون وقضاء الصيف هناك تعود السفن مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فتكون الرحلة في الذهاب والاياب معا قد استغرقت عاما ونصف عام ( ٥٩ ) .

وبالمناسبة جميل ان نذكر ان القصص التي جاءت في « كتاب عجائب الهند » والتي حكيت حول السندباد البحري والتي تحدت الينا من قصص الف ليلة وليلة ما هي سوى صدى لهذه الرحلات البحرية التي يقوم بها أهل التجارة من المسلمين في البحار الجنوبية انذاك ومن المرجح ان يكون السندباد قد بلغ في تسفاره البحري مدينة كالا في شبه جزيرة ملقه حيث كان التجار يجلبون الذهب والقصدير وكان التجار المسلمون يستوردون سلعا وبضائع غالية الاثمان من سومطره ، وعى الاخص الذهب والبحار والبخور والنباتات الطبية والكافور ( ٦٠ ) .

وكان البحارة العرب وقبلهم كثير من أهل العراق ، يسترشدون بخرائط من رحلاتهم ( ٦١ ) فيذكر المقدسي : ورأيت معهم ( التجار ) دفاتر ..... يتدارسونها ويعولون عليها ويعلمون بما فيها ( ٦٣ ) . وفي فترة لاحقة استعمل البحارة العرب البوصلة التي لهم الفضل في اشاعة استعمالها ( ٦٣ ) .

ويذكر بليانيف ان التجار العرب والمسلمين قد أخذوا يستوطنون في مدينة كاتتون ( كان - فو ) وقد بنوا فيها المساجد واصبح لهم قاض يحكم بينهم بحسب الشريعة الاسلامية ، وفي سنة ٧٥٨م ثار أهل مدينة كاتتون ضد امبراطور الصين وحكومته ، ولكي يقمع هذه الثورة لجأ « ابن السماء » اى الامبراطور الى مرتزقة من الفرس كانوا في خدمته ، ابان هذه الثورة عاد المسلمون من رعايا الخليفة العباسي القاطنين في تلك

المدينة الى بلادهم حاملين اليها مغانم كثيرة جاؤا بها من الصين ، ولكن لم نطل غيبتهم فعادوا الى كانتون وبنوا المساجد وعاد قاضيهم ليحكم بينهم حسب الشرع الحنيف . وقد توغل بعض التجار في داخل الصين نفسها حاملين معهم بضائعهم وسلعهم ، وبدأوا يستوردون الخزف الصيني الجميل الصنعة والاقمشة الحريرية الغنية ( ٦٤ ) .

ان هذا الطريق البحرى الممتد من ميناء البصرة على الخليج حتى كانتون هو اطول طريق مائى استعمله الانسان وعلى شكل منتظم قبل التوسع الاوروبى فى القرن السادس عشر للميلاد . فسلوك مثل هذا الطريق العظيم عمل جليل جدير بالعناية والاهتمام ويذكر الدكتور حورانى ان الفضل في قيام تجارة بحرية بين الخليج والصين في هذه الفترة من التاريخ يعود الى قيام امبراطوريتين معا . وعلى طرفى هذه الطريق . فقد اتحد العالم الاسلامى كله من الاندلس الى السند ايام الخفاء الامويين ( ٦٦٠ - ٧٤٩ م ) ثم اكثر من قرن فى ظل العباسيين ( ٧٥٠ - ٨٧٠ م ) باستثناء اسبانيا وقسم من شمالى افريقية ) وفى الصين ملكت اسرة تانج Tcang ( ٦١٨ - ٩٠٧ م ) على امبراطورية متحدة حتى آخر ايامها / ٩٦٥ . هذا وقد ورد فى أخبار تانج الصينية هذه أسماء بعض الخلفاء العباسيين واما عن قيام علاقات دبلوماسية بين العباسيين والصين فأمر لا نعرف عنه شيئا ثابتا ولا تذكر المصادر العربية شيئا عن وصول سفراء عن الصين الى بغداد أو سامراء ( ٦٦ ) ، وتشير التواريخ الصينية الى ذهاب عدة سفارات عربية الى البلاط الصينى فى القرن السابع والثامن للميلاد مرسلّة من ( Ham-Mi Mo-Mini ) الى أمير المؤمنين ابي العباس ( A-bu-lo-ba ) ومن ابي جعفر المنصور ( A-pu Ch' a - fo ) ومن هارون الرشيد ( A-lun ) وهي تذكر ثلاثة وفود أرسلها الرشيد وصل احدها سنة ٧٩٨ م ( ٦٧ ) . والاستاذ الدورى يرى ان هذه الوفود كان يرسلها تجار العرب مع هدايا طريفه الى البلاد لرفع مكاتبتهم ( ٦٨ ) .

ولذلك نرجح ان التجار العرب المسلمين عند وصولهم الى الصين كانوا يحظون بمقابلة الامبراطور الصينى بشكل رسل من قبل الخليفة وذلك بغية الحصول على بعض الامتيازات الجمركية أو حفاظا على بضائعهم من النهب والسلب من قبل الموظفين الصينيين (٦٩) •

ومع الاسف فقد تعرضت مدينة البصرة ومينائها الابله الى الكثير من الحروب والدمار والخراب عبر الفتن الكثيرة التى امت بتاريخ المنطقة •

ففى سنة ٢٥٧/ ٨٧١ حين كانت ثورة الزنج على أشدها خرب صاحب الزنج البصرة واحرق معظم أقسامها ، وكان الجامع مما خرب واتتهب جنده المدينة ثلاثة أيام ، وفى سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣ نهب زعيم القرامطة مدينة البصرة • وقد خربوا الابله والبصرة وقطعوا بغداد عن الخليج (٧٠) والقزوينى فى المئه السابقة (١٣)م يذكر ان هذه المواضع قد آلت الى الخراب (٧١) •

وبعد ذلك بقرن وصف ابن بطوطه الابله فقال « هي الآن (٧٢٧هـ) قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمتها (٧٢) » •





## المصادر والمراجع

١ - نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية والتجاره بين البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي . دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٤ ص ٧٥ .

٢ - The voyage of Nearchus from the Indus to the Euphrates. Ed. W. Vincent London 1797.

- جورج حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى . الترجمة العربية - يعقوب بكر القاهرة ، المكتبة الانجلو مصرية ص ٤٥ - ٤٦ .

٣ - حوراني : العرب والملاحة نقلا عن جلازر ص ٤٦ .

٤ - نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية ص ٨٠ .

٥ - نقولا زيادة : ن.م ص ٩٠ .

٦ - جورج حوراني : العرب والملاحة ، ص ٤٧ .

٧ - ن.م ، ص ٢٤٥ .

٨ - جورج حوراني : ن.م ص ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٠٩ .

٩ - نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية ص ٧٦ .

وايضا انظر : Pliny VI. 149-9

١٠ - الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جزء III ص ٢٠٢٣ .

١١ - حوراني : العرب والملاحة ص ٢٩٨ ، ١١٠ .

١٢ - ت. : المصادر العربية لتاريخ الصقالبة ، كراكوف ١٩٥٦ ج ص ٣٠٣ .

١٣ - C. Becker, Combridge Mediaeval History VOL. II p. 329

١٤ - البلاذرى : فتوح البلدان ، طبعة ابريل ١٩٦٨ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

\* في مكان الخريبة ثم تمصير البصرة .

١٥ - الشيخ نعمان بن محمد بن العراق ، كتاب معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر ، تحقيق د. محمد عبد الله ١٩٧٣ مجمع البحوث الاسلامية - اسلام آباد ص ٢٢ ، ٧٥ - ٧٦ .

- ١٦- الاصطخرى ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك ، طبعة  
ابريل ١٩٢٧ ص ٨٠ - ٨٢ .
- \* الفرسخ يساوى ستة كيلومتر واحيانا ثمانية .
- ١٧- ابن حوقل ، ابو القاسم : كتاب صورة الارض ، منشورات مكتبة  
الحياة ، بيروت ص ٢١٢ - ٢١٣ . حدود العالم « ورقة ١٣ م  
( مخطوط ) .
- ١٨- عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى « فى القرن الرابع  
الهجرى » دار المشرق ، بيروت ١٩٧٤ ص ١٣٦ .
- ١٩- النويرى : نهاية الارب ج ١٢ ص ٣٤ ، ٤٤ .
- ٢٠- ناصر خسرو علوى : سفر نامه ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الاولى -  
القاهرة سنة ١٩٤٥ من ٩٩ .
- ٢١- ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢١٣ .
- ٢٢- ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٩ - ١٠٠ .
- ٢٣- ناصر خسرو : ن.م ، ص ١٠٠ .
- ٢٤- ابن حوقل : صورة الارض : ص ٢١٤ .
- ٢٥- البلاذرى : فتوح البلدان ، ٢٤١ - ٢٤٢ .
- ٢٦- صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ، بيروت  
١٩٦٩ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
- ٢٧- سلام ابو عبيد : الاموال - القاهرة - ص ٧٠ .
- صالح العلي : التنظيمات ، ص ٣٣١ .
- ٢٨- صالح العلي : ن.م ، ص ٤٠ .
- ٢٩- صالح العلي : ن.م ، ص ٤٢ .
- ٣٠- الجاحظ : كتاب البخلاء المكتب العربى بدمشق ، سنة ١٩٣٨ .
- ٣١- عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٩٨ - ١٣٠ .
- ٣٢- ابن الفقيه : كتاب البلدان ، طبعة ميدن ، ج ٥ ، ص ٥١ .
- ٣٣- سعيد الافغانى : اسواق العرب ، دمشق ١٩٣٧ ، ص ٣٥١ .
- ٣٤- صالح العلي : سومر ، بغداد ١٩٥٢ ، ص ٢٨٢ - ٢٣ .

- ٣٥- عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ١٣٥ - ١٣٦ .
- ٣٦- المفدسي : احسن التقاسيم ، طبعة ليدن ، ص ١١٨ .
- ياقوت : معجم البلدان لبيزج ١٨٦١ - ١٩٧٠ ، ج ١ : ٤٨٤ .
- ٣٧- ابن قتيبة : عيون الاخبار ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٥ ، ج ١ : ٢٢٢ .
- ٣٨- اليعقوبي : البلدان ، طبعة بريل ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .
- ٣٩- عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١١٩ .
- الجاحظ : كتاب البخلاء ، ص ٣٩ .
- التنوخى : الفرغ بعد الشدة ، القاهرة ١٩٠٤ ، ج ٢ ، ص ١١ .
- ٤٠- ابن قرد اذبه : المسالك والممالك ، مطبعة ليدن ج VI ص ١١٤ .
- \* الرهدانية :

كان هناك رأى سائد ان مرجع هذه التسمية يأتي من الكلمة الفارسية راه دان بمعنى قائد او دليل ، وهذه التسمية تنطبق على ما امتاز به هؤلاء التجار من معرفة للطرق التجارية المائية والبرية .

وهناك اعتقاد آخر عند سيمسون أن هؤلاء التجار ( الرهدانية ) كانوا يأتون من شواطئ البحر الابيض المتوسط قرب ممتلكات كارول الكبير والتسمية اذن جاءت من الموانئ الواقعة أعلى ضفاف الرون ، ومن التعبير اللاتيني Nautae Rhedanic الملاح الرهداني ارتبط فيهم والملاح الرهداني مذكور في المصادر الاوروبية في القرون الوسطى . ورأى آخر - خاطيء - جاء به S. Katz ينسبهم الى مدينة الري في شمال بلاد الفرس . والخطا هنا واضح اذ ان التسمية لمدينة الري رازى .

ويذكر الاستاذ لفيتسكي انه كان يوجد في قرطاجه ( تونس اليوم ) سوق تسمى سوق الرهدانية وكانت هذه السوق عامرة حتى قبل ٩٦٧م وبجانبه سوق اخرى للرفائيين والكتانيين ولذلك يمكن القول ان تعبير الرهدانية لصق بهؤلاء التجار لانهم غالبا ماكانوا يتجرون بالكتان ويتبادلون ذلك مع التجار المسلمين وهذا ماؤكداه المقدسي من ان اهم بضائع الرهدانية كانت الكتان .

لفيتسكي : المصادر العربية جزء ١ ، ص ١٢٠ ، جزء ٢ ، ص ٧٧ .

آدم متر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى - ترجمة ابو ريده ، جزء ٢ ، ص ٣٧١ .

صالح الحمارنه : مجلة دراسات ، مجلد ٢ ، ١٩٧٥ ، العدد ١ الجامعة الاردنية عمان ، ص ٥٦ - ٥٧ .

- ٤١- ي : بلياييف : العرب والاسلام والخلافة العربية ، الترجمة العربية ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨٦ .
- ٤٢- جورج حوراني : العرب والملاحه ص ١٧٤ .
- ٤٣- عبد العزيز الدوزي : تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٤٥ .  
Islamic Culture F. 909-910
- المسعودي : مروج الذهب ، طبعة باريز ج ١ ، ص ٣٦٥ .
- ابن جبير : رحلة باعثناء دي حفرية ١٩٠٧ ، ٦٧ - ٦٨ ، ٧٠ - ٧١ .
- ٤٤- الدوري : ن.م ص ١٤٥ .
- ابن رسته : الاعلاق النفيسة طبعة ليدن ، ص ١٩٦ .
- ٤٥- ي بلياييف : العرب والاسلام ص ٢٨٧ - ٤٨٨ .
- عبد العزيز الدوري : تاريخ الاقتصاد العراقي ص ١٤٧ .
- ابن قرداذبه : المسالك ، ص ٦٧ .
- ٤٦- الاصفهاني : كتاب الاغانى ج ١ ص ٦٤ .
- ٤٧- الاففاني : اسواق العرب ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .
- ٤٨- صالح العلي : التنظيمات ، ص ٢٥٨ .
- ٤٩- البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٨٤ .
- النويري : نهاية الارب ج ١٢ ، ص ١٤ .
- ياقوت : معجم ج ٢ ، ص ٥٣٧ .
- صالح العلي : تنظيمات ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .
- ٥٠- الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٣٤ ، ١٢٧ .
- المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .
- جورج حوراني : العرب والملاحه ، ص ٢٠٧ .
- ٥١- الاصطخرى : المسالك والممالك ، ١٣٨ - ١٣٩ .
- نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت سنة ١٩٦٢ .
- ص ٢٢٣ - ٢٢٩ .
- ٥٢- حوراني : العرب والملاحه ، ص ٢١٨ .
- ٥٣- حوراني : ن.م ، ٢١٠ .
- ٥٤- نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ص ٢٢٣ - ٢٢٩ .
- ٥٥- المسعودي : مروج الذهب ، ١ : ٣٢٥ - ٣٢٧ .

٥٦- حوراني : العرب والملاحة ، ٢١٩ - ٢٢٠ .

٥٧- حوراني : ن.م ، ٢٢٠ .

٥٨- ي. بلياييف : العرب والاسلام ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

٥٩- حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢٢١ .

٦٠- I. Krachkovski

Arabic geographical Literature Moscow 1957 pp 280

وما بعدها

ي : بلياييف : العرب والاسلام ، ص ٢٨٩ .

جورج حوراني : الملاحة والعرب ، ٢١٨ - ٢١٩ .

اليغقوبي : البلدان ، ٣٦٥ - ٣٦٦ .

٦١- عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٤٦ .

٦٢- المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٠ .

٦٣- S. Madavi,

Arab Navigtion

Islamic Culture VOL, XVI pp 407

Hyderabad Deccan, 1942, p. 407.

٦٤- ي. بلياييف : العرب والاسلام ، ص ٢٩٠ .

٦٥- ي. بلياييف : ن.م ، ص ٢٩٠ .

ج. حوراني : العرب والملاحة ، ص ١٩١ .

٦٦- ي. بلياييف : العرب والاسلام ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

٦٧- عبد العزيز الدوري : بغداد ١٩٤٥ العصر العباسي الاول ، نقلا عن

Brtohmeider

Medieval Researches

London 1937 Vol. I p. 264-5

٦٨- عبد العزيز الدوري : ن.م ، ص ١٤٩ .

٦٩- ي. بلياييف : العرب والاسلام ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

٧٠- لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، الترجمة العربية ، بغداد ص ٦٦ .

٧١- قزويني : عجائب المخلوقات ، ٢ : ١٨٠ ، ٢ : ١٩٠ .

٧٢- ابن بطوطة : رحلة ج ١ : ص ١١٧ .



# علوم الإنسان وأهميتها في دراسة اليمنيين القدماء

دكتور يوسف شلحد

قد عقدت هذه الندوة بادية بدء لدراسة النقوش والمساند • ويخال  
لاول وهلة أن الباحث الاجتماعي كالمطفل فيها على موائد العلم الصحيح  
اذ هو يستند الى النتائج التي يحصل عليها علماء النقوش ليربط الماضي  
بالحاضر وهم لا يستفيدون منه الا القليل •

ولكن ماذا تعلمنا النقوش ؟ انها تخلصنا عن اسم العاهل أو القيل صاحب  
النقوش وعن زمن حكمه احيانا وعما بناه وشيده وعن غزواته وفتوحاته  
وعن اسماء بعض الالهة وعن بعض العادات الاجتماعية والمراسيم الدينية ••  
ولست بهاضم لحقوق علماء النقوش ولا جاحد لفضلهم اذا قلت ان غيوما  
كثيفة تخيم على الحضارة اليمنية وما هذه المعلومات الا اوتاد متباعدة وكلنا  
نأمل ان تصبح دعائم يعاد عليها بناء المجتمع اليمني القديم • الا اني اشك  
في ان تتحقق يوما هذه الامنية القصوى مهما تعددت المساند لان صاحب  
النقش كان همه ان يشيد بنا فعله في مناسبة معينة • اللهم الا اذا ابتسم  
الحظ بالكشف عن مكتبة او عن قانون مثل قانون هاموربي والى ان تجود  
الايام بمثل هذا الكنز الدفين الا يسعنا ان نعكس الآية ونطلب من علوم  
الانسان ان تساهم مساهمة فعالة بالتحقيق عن اليمنيين القدماء ؟ ومن  
المؤكد ان علماء النقوش لم يهملوا هذه المصادر اهمالا تاما ولكنهم لم  
يستغلوها كما يجب ولم يعطوها حقها من الاهمية وقد يكون السبب في

ذلك عدم الثقة بها • ألا ان النقوش نفسها تكون احيانا مدعاة للشك فكم من هزيمة سجلت كنصر على العدو ولنا فيما كتبه استربون عن حملة اليوس جالوس اصدق شاهد على صحة ما قدمناه •

ليس هذا مقام البحث عن علوم الانسان وطرائقها وارتباطها بعلم التاريخ وهو منها ولكنى لا أجد بدا من ابداء ملاحظة خاطفة عن الاتنولوجيا - وهي تحليلية استنتاجية - لانها متهمة بالبحث عن البدائي • والواقع انها لا تهتم بالبدائي بحد ذاته ولكنها تتوخاه لسهولة البحث ليس الا • اما موضوع دراستها فهي الخصائص الاجتماعية لتبين من خلال ليس فقط ما يميز بين شعب وشعب ولكن ايضا يتوافق بين الثقافات • وبسبب العزلة التي عاشت فيها هذه البلاد حافظت على عادات وتقاليد وانظمة اجتماعية لها طابعها الخاص قد تستكشف من خلالها معالم مجهولة منها ما يعود الى عهد الممالك اليمنية القديمة •

من الشائع والمصطلح عليه مثلا ان اليمن من اليمن ولذا قالوا « العربية السعيدة » نقلا عن بطليموس • ولكن الحقيقة ان اليمن او اليمانه أو يمنت مشتق من اليمن الذى هو ضد الشمال • وفى النقوش تدل كلمة يمنت على الجنوب ويقابلها لفظة شامت اى شمال ويقول اهل صنعاء في كلامهم عن قبيلة خولان الواقعة في منطقة صعدة خولان الشام كما ان اهل حضرموت يطلقون كلمة شام على الحجاز، واليمن في المعتقد العام السائد بين الشعوب هو مكان تشمله النعمة ويعمه الفلاح ويتفائل به ولذا قدموه على الشمال الذى يتشاءم به فأصحاب المينة هم اهل الجنة واصحاب المشئمة هم أهل الجحيم • والسبب في هذا التفاضل ديني محض وهو قائم على عبادة الشمس والى الشمس عند طلوعها كانت توجه الصلوات • وهذا ما نهى عنه الاسلام وبما أن الجنوب يقع في هذه الحالة على يمين المصلى وهو مكان تشمله الشمس بنعمتها اصبح مرادفا لليمن والسعادة • اما الشمال فعدا مثالا للظلمات والتشاؤم وعدم الفلاح، ونجد في « لسان العرب » لابن



منظور شاهدا على ذلك اذ يقول ولقد دعى اليمن يمينا لوقوعه عن يمين الكعبة • ونسي الناس الصلة بين الجنوب واليمن ولكن ظلت المعتقدات قائمة على هذا الاساس •• واذا رجعنا الى الديانة اليمنية القديمة لوجدنا الشمس تحتل المصاف الثالث بين الالهة مما يدل على تطور في العقائد قد تكون له صلة باقتهاء عهد الامومة أى بالنسبة الى الام واصبح الاب القيم على الأسرة وسأعود الى موضوع الامومة خلال هذا الحديث •

وتعلمنا النقوش أيضا أن اليمنيين القدماء يعددون خطاياهم عليه لنيل الصفح عنها من الآلهة وهنا أيضا قد تساعدنا الاتنولوجيا على فهم أصل هذا المعتقد الذى يربط الاقرار بالمغفرة لاننا نجده عند عدد من الشعوب بل كان شاذا أيضا عند بدو سيناء وقد وصف ابن ناظم الجيش عادة « دفن الذنوب » وصفا مسهبا في مخطوطة تحفظها مكتبة الاسكورييل فى اسبانيا ولا زال بدو الحويطات يعملون بمثل هذه العادة عند عقد الصلح ولعلمها وصلت اليهم والى بدو سيناء من الانباط وهم يمينو الاصل كما هو معلوم •

أما المجتمع السبئى وبالأولى اليمنى القديم فلم يصلنا عنه الا القليل خاصة فيما يتعلق باحكام الاسواق ونظام العائلة والزواج واني على ثقة بان الابحاث الاتنولوجية تساعد علماء النقوش على فهم الاوضاع الاجتماعية السابقة للاسلام ففي منطقة مثل اليمن عاشت فى شبه عزلة خلال مئات السنين الحاضر شاهد على الماضى بل انه الماضى الذى لم يزل حيا • ولا تسالوا عن تعجبي عندما وجدت في بعض الاماكن في اليمن الشمالى وخاصة فى قبائل حاشد وبكيل ومذحج نظما تعود بنا الى ما قبل الاسلام واهمها احكام السوق فظننت نفسى قد انتقلت فجأة الى سوق عكاظ ومجنة والطائف فهناك حاكم السوق وشاعره اى الدوشان وهناك ايضا الحماية التى تشمل كل من دخل السوق مدة ثلاثة ايام اى يوم السوق واليوم الذى سبقه واليوم الذى يليه يكون خلالها آمنا ولو كانت عليه دماء يطالب بها وان تجاوز احد على هذه الاحكام ووقع منه اعتداء مهما

كان سببه فان شيخ القبيلة هو الذى يطالب بالحق او بالادب كما يقولون  
وادانة الجانى وليس صاحب الدم .. أما الجزاء فيكون في هذه الحالة  
من الصرامة بمكان ويبلغ أضعاف الدية المألوفة . وما قلته عن الاسواق استطيع  
ان اقوله عن بعض الاشخاص الذين تشملهم حماية القبيلة فلا تمتد اليهم  
يد بالسوء وعلى عكس ذلك فان لهم من النفوذ والحصانة ما يجعلهم يقفون  
بين صفوف المتحاربين ليحولوا دون سفك الدماء .

أنى لم اطلع الا على القليل من النقوش ولا ادرى اذا جاء في بعض  
المسائد اشارة الى لاسواق ولكن مانعلمه عن الجاهلية واحوالها يدل دلالة  
واضحة على وجود صلة وثيقة بين المجتمع القبلى قبل لاسلام المجتمع القبلى  
اليمنى المعاصر فكلاهما يخضعان لاحكام تقليدية يطلق عليها كلمة طاغوت  
مما يدل على انها مستقاة من نبع واحد . فليس من المستبعد أن تكون  
الاسواق عند اليمنيين القدماء قائمة على الاسس نفسها لا سيما واننا نجد  
لديهم طبقات محافظة تكاد لا تختلف عما هو شائع بين القبائل اليمنية الشمالية  
اذ قسموا المجتمع على ما يقول لنا جل علماء النقوش الى اقيال وكهنة وحسلة  
سيوف ومزارعين . وكان على الابن ان يمشى على خطوات ابيه فى العمل  
ونجد تقسيما مماثلا فى اليمن الشمالى فهو يميز بين السيد والفقير والبائع  
والصانع والخادم وكانت الانكحة متنوعة بين هذه الطبقات . وكلمة دوشان  
وهو خادم القبيلة ورسولها وشاعرها تدل على قدم هذه الانظمة فهى وسيدة  
يجعلها اصحاب المعاجم وفى لغة اهل الشام العامية نجد الدوشة ومعناها  
الضوضاء والانزعاج الذى يحدث عند المستمعين من كثرة الكلام وهذا هو  
شان الدوشان فى المدح .

اما نظام الاسرة القديم فلا تعلمنا عنه النقوش الى القليل وهنا ايضا  
تستطيع الاتولوجيا ان تقدم خدمات جمة الى علماء النقوش ليس فقط  
استنادا الى المخلقات ولكن ايضا استنادا الى التحليل البنيوي Structuralisme

وفي دراسة طويلة قمت بها عن القرابة والزواج عند العرب يتضح ان هناك صلة قوية بين نظام الزواج ونظام المعيشة والحياة . فالاندوجمي او الزواج من داخل العشيرة نجده خاصة عند اصحاب الخيم بسبب الانفراد واختلال الامن . واذا كان البدوى يؤثر الزواج من ابنة عمه بل له عليها حق فليس طمعا بميراثها وحفظا له ليبقى ضمن نطاق الاسرة فالبدوية لا تراث اصلا على حسب الاحكام القبلية لانها هي نفسها كانت تدخل في جملة الميراث . انما زواجه منها هو نوع من الوراثة ولذا لا يحق للعم ان يطلب من ابن اخيه اى مهر فى هذه الحالة . اما الاكزوجى او الزواج من الاباعد فيحدث بعد الاستقرار بالارض . وهناك ايضا صلة بين الحياة الزراعية ونظام الانتساب الى الام الذى يؤدى احيانا الى بوليندرى أي تعدد الازواج . ويؤكد لنا الاسترابون ان هذا النظام كان مألوفا عند السبتيين اذ كان جميع الاخوة وكان لكل واحد منهم عصا يضعها امام مدخل البيت عند الاختلاء بالزوجة الا ان المضاجعة ليلا كانت من حق الاخ الاكبر . وهذا ما حمل بعض العلماء مثل روبرتسون سميث ومونجومرى وات على القول ان عهد الامومة كان سابقا لعهد الابوة عند العرب القدماء وانا لا اسلم بصحة هذه النظرية فيما يتعلق بسكان البادية ولكن اميل الى تصويبها فيما يخص بعض المناطق اليمنية ويقول لنا الباحث واستر مارك استنادا الى كلاسر وونكر ان فى النقوش السبئية اشارة الى ما اعاد استرابون . وهذا ما ذهب اليه ايضا العالم الالماني جوزف هنجر والباحث الاتنولوجى البرنس بيتر . ولكن علماء النقوش الذين استنتقهم يجهلون هذه النصوص .

ومما لا جليل فيه اننا نجد عند بعض القبائل قبل الاسلام عادات هي من مخلفات النظام البوليندرى منها نكاح المقت ونكاح المتعة وجاء فى سيرة الامام الهادى انه طلب من عملائه ان يعاقبوا بشدة كل من يقدم فتاة للضيف اذ كانت العادة على ما يقول المؤلف ان يقدم صاحب البيت اخته او ابنته الى الضيف بعد ان يزينها فكانت تبقى معه صباحا ومساء وكان يداعبها ويلمس

جسمها وبطنها وما تحت البطن وذلك امام والديها ولكنه ما كان يتسدى الى حد الفسق . وقد اكد لى بعض اليمينيين ان مثل هذه العادة كانت متبعة في بعض قبائل الجوف الى سنوات خلت .

هذه بعض ملاحظات خاطفة عن العلاقات بين المجتمع اليمني القديم والمجتمع القبلي اليمني بعد الاسلام ولا اود الاطالة في موضوع الانظمة لا سيما فيما يتعلق باحكام الزواج فقد كتبت عدة مقالات في هذا الصدد وكلها ترمى الى هدف واحد الا وهو ان اليمن قد حافظ على طابع ثقافي خاص بالاضافة الى ثقافته العربية الاسلامية وانا في بحثنا عن اليمينيين القدماء لا يمكننا ان نوفيهم حقهم بالاستناد الى النقوش فقط ولكن ايضا بالاستقضاء عن خصائص المجتمع القبلي على ان نفهم الثقافة بمعناها الواسع كما تحددها علوم الانسان ولذا لا نستطيع ان نكتفي بالادب والفلسفة والعلوم الدينية ولا بد لنا من ان نتخطاها لتتناول شتى النواحي الاجتماعية . ان الانسان في المجتمع وكل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية هو نوع من الثقافة . وهي ماثلة في الادب الشعبي والقضاء القبلي واغنية الفلاحين والصناعات اليدوية فاذا فهمناها بهذا المعنى الواسع استطعنا ان نجد الصلة بين الماضي والحاضر لاسيما اذا اعطينا كل نظام اجتماعي حقه من البحث اى اذا اعتبرناه حادثا اجتماعيا تاما له تفاعليه في مختلف مظاهر الحياة .

يتبين لنا مما سبق ان معلوماتنا ضئيلة عن المجتمع اليمني القديم وان البحث الاتنولوجي يستطيع ان يساعد علماء النقوش في البحث عن الانظمة والعادات والاحكام التي كانت سائدة يومئذ . الا ان جهلنا يبلغ اشدّه عندما نحاول ان نكشف النصف عن اصل الانسان اليمني . فمن اين اتى اصحاب هذه المباني والسدود ؟ ابوسع العالم اليوم ان يكتفى بأقوال النسابة ؟ ان العلم الحديث يلقي السؤال بعد السؤال للتحقيق عن الماضي . وليس لنا لاضاءة هذه المجاهل سوى اللغة وعلم ما قبل التاريخ والاتنولوجيا والباليتنولوجيا .

اما اللهجات التي كتبت بها المساند فليست من خصائصي وهي موضوع نقاش حاد بين المتعصبين للعربية والمتعصبين للحبشية بل قد ذهب بعضهم الى ان اصل اليمينيين من الحبشة وان الحبشة كانت مهد الساميين والهاميين . الا ان هذا الادعاء تنقصه الادلة العلمية ولا يكفي لاثباته وجود تشابه لغوى ضعيف بين السامية والهامية . ومما لا شك فيه ان اقدم الهياكل العظمية شبه الانسانية التي اكتشفت الى اليوم موطنها الحبشة فمنها ما يعود الى مليونين من السنين كما في منطقة الاومو ومنها ما يعود الى ثلاثة ملايين من السنين كالذى اكتشفته مؤخرا البعثة الفرنسية - الاميكية واطلقت عليه اسم « لوسي » ولكن اين نحن من الهاميين والساميين والزمن الذى يفصل بينهم وبين هذه الهياكل العظمية يعد بمئات الالاف مع السنين . ومع اني اميل الى التسليم بان اللهجات التي كتبت بها النقوش هي عريضة لا بدلى من الاضافة ان اللغة وحدها - من الوجهة العلمية البحتة - ليست بدليل قاطع على جنس اصحاب البلاد الاصيلين فقد تكون لغة الفاتح الغالب وقد تختلف لغة التخاطب عن لغة التدوين فعلى الباحث ان يحتفظ باحكامه ولا يجعل من المقياس اللغوى حجة حاسمة على اصل السكان . واميل الى الاعتقاد بان توحيد اللهجات في الجزيرة العربية قد بدأ قبل الاسلام بمدة طويلة بينما بقيت لغة البلاط سائدة لتدوين الحوادث . وعلينا الا نغفل أن امراً القيس المتوفى نحو سنة ٥٣٩ ميلادية كان من قبيلة كندة اليمنية وفي ديوانه من الجمال في السبك والاتقان والمجاز ما يدل على انه ليس اول من ابتدع القصيدة ولا شك في انها قديمة العهد اذ لا يمكن ان يتم لها فجأة مثل هذا النضوج ومن البديهي ان يكون النضوج اللغوى سابقا لها . فقد اتقن الناس لسانهم وتنبهوا الى قواعد سابقة قبل ان يضعها النحاة على حد قول الشاعر البدوي :

ولست بنحوى يلوك لسانه      ولكن سيلقي اقول فاعرب

وبما ان اول قصيدة وصلتنا يمنية المنشأ فاني اميل الى الظن ان اللغة

توحدت أو تكاد منذ نهاية القرن الثالث الميلادي وظلت السبئية لغة الدواوين والتسجيل .

ومهما تكن نتائج ابحاث علماء النقوش فهي لا تتعدى الالف الأول قبل الميلاد ولذا فهي لا تفيدنا في شيء عن اليمن السابق لهذا العهد ، فهل نضرب عنه صفحا لعدم وجود المساند وليس من المعقول ان تظل هذه المنطقة على اهمية موقعها الجغرافي خالية من الناس آلاف عديدة من السنين . ومن المؤسف جدا ان اليمن لم ينل حظه من التحقيق في ميادين علوم الانسان ولذا يجد الباحث نفسه امام مجاهل مظلمة يحاول ان يبددها العلماء بنظريات تحتاج الى مزيد من التحقيق والاثبات . فقد ذهب بعضهم الى ان تأهيل الجمل ذى السنام الواحد قد تم على ايدى اليمنيين وان اليمن كان موطن ثقافة هامة سابقة للثقافات الاسيوية والافريقية؟ اننا نجعل كل شيء من مبتدعى هذه الثقافة وهم يمنيون طبعا بحكم موطنهم فلعلهم اتوا من القوقاز ولعلهم جاءوا من اسيا الوسطى مقتفين خطوات الجمل ومن بديع الاتفاق ان الزامل وهو غناء شعبي يماني تشبه بعض الحانه الاغاني المغولية وهذا لاشك دليل ضعيف على الصلة بين الشعبين . ولكن الدراسة الهيموتيبولوجية ( اى عن فصائل الدم والكرويات الوراثية ) التي قامت بها البعثة الفرنسية العام الماضى فى اليمن الشمالي كشفت عن صلة اكيدة بين اليمن من جهة وبين القوقاز والمغول من جهة ثانية . ويستفاد ايضا من الدراسات الاثروبولوجية ان ابناء الجنوب اى القحطانيين تختلف بنيتهم عن اهل الشمال اى العدنانيين فهؤلاء مستطيلاوا الاقحاف اما سكان اليمن فمستديروها ونجد في اليمن بالاضافة الى العنصر العربي عنصرا حبشيا مائلا الى السواد وجنسا البياوجنسا فدويا وهذان الجنسان لاصلة لهما باقوام البحر الابيض المتوسط . ودفعنا للقليل والقال والنقاش البيزنطي العقيم ليسمح لي بابداء ملاحظة هي بديهية ولكني افضل بسطها لتبديد كل التباس : اني فى كلامي عن نتائج البحث الاثروبولوجي لا احاول ان اميز بين امة شعب وشعب اذ ليس للوطنية من علاقة بعلم الاجناس البشرية فلبنان الفينيقي وفلسطين الكنعانية وسوريا

الآرامية • • أصبحت كلها عربية منذ الفتح الاسلامي ولكن هذا لا يمنع الباحث الاثروبولوجي ان يبدى بنتائج ملاحظاته عن الانسان القديم دون ان يأبه بجنسية احفاده اليوم •

اما الابحاث عن العصر الحجري فلم تزل في مهدها • فقد قامت البعثة الفرنسية في نهاية العام الماضي بمسح شامل لليمن الشمالي ووجدت بعض الاوائل الحجرية التي قد تعود الى مئة الف سنة قبل الميلاد • وفي جبل تلح ، في المحافظة الثانية ، عثر سيرجي شيرنسكي على فؤوس اليد الشيلية وهي تدل على وجود الانسان في هذه المنطقة قبل مئات الآلاف من السنين • بقي علينا ان نستنطق بالايوتتولوجيا • الا اننا امام ظلمات تامة اذ لم يكشف الى اليوم عن أى هيكل عظمي انساني يعود الى العصر الحجري •

بعد هذه الجولة الخاطفة نجد انفسنا امام مشاكل علمية جمة لا يهتم بها علماء النقوش والآثار وهي تمت بصلة وثيقة الى الحضارة اليمنية القديمة • ولا نستطيع ان نجد لها حلا الا بعد بحث وتنقيب طويلين والفائدة من هذا الجهد ليس ان نستكشف فقط معالم الثقافة اليمنية القديمة ولكن ايضا ان نجد الحلقات الضائعة من سلسلة تمتد من ايامنا الى زمن كان يعيش الانسان خلاله في الكهوف وعلى المناهل متنقلا من مكان الى مكان ليؤمن معاشه من الصيد والنبات • وليست الكهانة من خصائصنا لتنبأ عن نتائج هذا العمل الشاق ولكن لعله يكشف النقاب عن اصل البشرية •

لنضع الخيال جانبا وننظر في مجال البحث العلمي • واعتقادي انه لن يتم لنا الوصول الى نتائج علمية صحيحة الا اذا وفينا النقاط التالية حفظها من التحقيق •

١ - التنقلات القديمة والوسائط التي استخدمها الانسان في حلة وترحاله بما فيها الملاحاة •

٢ - الانسان اليمني القديم في العصر الحجري وقبل الممالك اليمنية •

٣ - الممالك اليمنية القديمة \*

٤ - اليمن موكب الاسلام \*

٥ - الانسان اليمني عامة من الوجهة الاتروبولوجية والايكولوجية \*

٦ - الانظمة الاجتماعية والعائلية والحقوق والتقاليد \*

٧ - الثقافة بمعناها الواسع اى الادب الكتابي والشعبي واللهجات والفنون والموسيقى والصناعة والهندسة المعمارية \*

٨ - العلاقات الثقافية بين اليمن والمناطق التي امها اليمنيون سابقا او كانوا على علاقة بها مثل الهند والحبشة والبلاد العربية واندونيسيا والاندلس \*

٩ - تطور المجتمع اليمني المعاصر وما نتج عن ذلك من تطاحن قيمي بين القديم والحديث \*

واذا كتب لهذه الابحاث التوفيق استطعنا ان نضع مؤلفا شاملا عن اليمن ليس فقط في نطاق محصور على النقوش والآثار ولكن كمركز ثقافي هام يعود الى ما قبل التاريخ اخذ عنه اهل الشمال وشعت اضواؤه في واحة تيماء ووادي موسى وغوطة دمشق وعلى ضفاف دجلة والفرات ثم انتقلت الى افريقيا الشمالية والاندلس \*

**الدكتور يوسف شلحد**

مسؤول برنامج البحث العلمي

عن اليمن والجزيرة العربية في المركز

الوطني الفرنسي للابحاث العلمية



# الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي

الدكتور محمود يوسف زايد

الجامعة الأميركية - بيروت

أرجو أن أبين أولاً أن ما سأتناوله آراء قابلة للجدل والمناقشة، وإلى أنني مدين بالكثير منها لطائفة من الكتاب والمؤرخين من العرب والأجانب ، ولكنها في موضوع لا أتصور ما هو أولى باهتمام الجامعيين والمعنيين بشئون الإسلام وتاريخنا وعروبتنا ، وهو « الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي » . فتاريخ الأمة هو المرأة التي يرى فيها الفرد ذاته ، فتتضح له معالم هويته ، وهو مصدر الهامة واعتزازه بنفسه وبأمته وتراثه ، وخير معين في جلاء الحاضر واستشراف المستقبل ، وهو سلاح من أسلحة الصمود في وجه الكوارث والنكسات .

ولا يجمع الزملاء الذين حظيت بمقابلتهم بين المحيط والخليج ، وغيرهم من المعنيين بالشئون الإسلامية من ديار الإسلام ، على شيء اجماعهم على ضرورة النظر في تاريخنا ، سواء أعدناه للقارئ العادي ، أم لرجل العلم . وقبل قدومي بقليل تكرم علي زميل في لبنان فاطلعتني على جهود الجزائر في هذا المضمار ، اعترافاً من اخواننا الجزائريين بأنه لولا الإسلام وتراثه ، لكنا في الراجح نكي ضياع الاندلس .

فعالية المؤرخين الذين تصدوا لكتابة تاريخنا منذ أوائل هذا القرن ، ينتمون في الأكثر إلى فئتين : وهما فئة التقليد ، وفئة التجديد . وبالرغم مما

في حشر غالبية المؤرخين في هاتين الفئتين من تبسيط وتجاوز وتعميم ، فان فيه كثيرا من الحق الذي نحب أن نتبينه • أما جهود المقلدين من أصحاب المختارات والكتب المبسطة والمختصرات فهي في الغالب جهود ضائعة تسمى لو تصرف في سد أبواب النقص في تواريخنا الاولى ، من حيث افتقارها الى التحليل ، والتعليل ، وتلمس البواعث الخفية وراء الاحداث والتطورات التاريخية والحضارية • ثم يجدر بنا ان نذكر أننا نعيش في عصر يتطلب خبرات ومهارات لم تكن معروفة أو اساسية في العصور الماضية •

كان الاولون — على سبيل المثال — يعيشون في عالم لم يكن فيه للرقم الحسابي من الأهمية ما له اليوم • لم يكن الكم يتحكم في حياتهم كما يتحكم اليوم في كل مظهر من مظاهر حياتنا • كان الطالب يرحل في سبيل العلم ويطلبه متى شاء ، ويقضى في التحصيل ما شاء من السنين ، حتى ولو أجزى فيما نسميه اليوم بسن التقاعد • وكان الرجل يتزوج دون التفات كبير الى السن • وكان يذهب الى الجهاد في سبيل الله متى شاء ، فلا تصده نقطة حراسة ولا أسلاك شائكة • وكان في الغالب لا يعرف عمره بالضبط • وكان السبيل الى الاحصاء تقدير عدد من تتسع لهم الجوامع او الحمامات أو تقدير عدد من يأكلون ذبائح الجزارين •

لكن منذ الثورة الصناعية اخذت الذهنية الكمية على حد تعبير المؤرخ نيف تسود العالم انطلاقا من البلدان الصناعية • واخذ الرقم يتحكم في حياة الانسان منذ ولادته حتى وفاته ، وفي بعض البلدان الاوروبية حتى تتم مواراته في مثواه الاخير • بل لقد بلغ الحال في بعض البلدان ان صار الانسان رقما لا يعرف الا من خلاله • لا يكفي في القرن العشرين ان نقول في كتاب تاريخي : « كانوا كثيرين ، ويبعد المكان مسيرة يوم وليلة ، والبلدة الفلانية وراء كذا ، وهي من اعمال كذا ، على ما اورده هذا الجغرافي او

ذاك » . نجد لكاتب الامس عذرا لا نجده لكاتب القرن العشرين ولنا فيما حل بنا - نحن العرب - عبرة وای عبرة . لابد للمؤرخ من ان يتبين الابعاد الزمنية لما يعالجه .

اتنا نعيش اليوم في عصر الالة والحاسبات والفضاء ، ولا يجوز عند تحليلنا لنصر او كارثة ان نردها الى الشجاعة او الجبن فحسب . ولنا الآن من حالنا مع العدو عبرة وای عبرة . ينبغي على المؤرخ ان يلم بكل اطراف الصورة وان يتبين الاسباب مادية كانت او غير مادية . ويكفي هنا ان اشير الى ان كثيرا من الانتصارات الحاسمة في التاريخ ما كانت لتتحقق لولا الاختراعات والوسائل والمهارات الجديدة . هل كان من الميسور مثلالقائد من اشهر قواد التاريخ وهو نابليون أن يحرز انتصاراته الاولى التي غيرت خارطة اوروبا لولا المدفع المتنقل ؟ وهل كان يتأتى للمغول ان يقطعوا المسافات الشاسعة يأخذوا اعداءهم على حين غرة لولا اطلاق الاعنة لخيولهم وتمرسهم في ركوب الخيل ؟ وهل كان سيطول عمر العالم بوصفه عالما ، لولا اختراع النظارات ؟

ينبغي على هؤلاء المقلدين ان يأخذوا بعين الاعتبار اهتمامات الناس في القرن العشرين ، بغية توسيع مدارك القارىء ، وغرس جذور هذه الاهتمامات في نفسه . هناك قضايا كبرى تشغل كل المجتمعات الحاضرة : كالاسرة ومستقبلها ، والسكان وما يدعى بالانفجار السكاني ، والتكنولوجيا ، والاختراعات ، والعلم والتعليم ، والبيئة ونضوب مواردها وتلوثها ، ومتوسط عمر الانسان وطوله ، والتخطيط وادارة المدن . هناك مشكلات اجتماعية لم يعرفها الاولون كمشكلة المسنين ، وما ينبغي عمله لاشعارهم بانهم لا يزالون افرادا نافعين للمجتمع . فلقد بلغت نسبة المسنين في بعض الدول المتقدمة اكثر من ١٥٪ من عدد السكان بينما لم تنجح الحضارات الكبرى الاقدم منها في ان تستبقي اكثر من ٢ الى ٣٪ من المسنين . وبالرغم من ان اكثر هذه الاهتمامات لها اصول وتراتب ادارية

في تاريخنا ، فان المؤرخين التقليديين يتناسونها لعدم ادراكهم لها ، او لضيق آفاقهم العلمية وقصور مداركهم عن تصورها ، او لعجزهم عن تفصيلها وجمع شتاتها من بطون المراجع وحواشيها وذيولها . فمثلا ينادى منظمو الاسرة في القرن العشرين بضرورة الاتجاه نحو الاسرة الاحادية ، وانما لا اعرف امة شددت على هذه الناحية كالمسلمين . والذي اراه ان اعظم الانجازات التي تحققت بعد اشراق شمس الاسلام هي الثورة الاجتماعية ، وخاصة الثورة على وضع الاسرة في المجتمع القبلي والسير بها الى الاسره الاحادية التي ترى المجتمعات المتقدمة السير باتجاهها ، وتصرف الملايين من الجنيهات في سبيل اقناع المجتمعات ، وخاصة النامية منها ، بالاخذ بها .

واحب ان اضرب مثلا آخر ، وهو تنظيم المدن وادارتها . قلما تجد بحثا لعربي عن ادارة المدينة في العصور الاسلامية مع ان المسلمين نجحوا في هذه الناحية نجاحا منقطع النظير . ولست اشك في ان ادارة مدينة فاس في المغرب كانت اكثر تنظيما واكثر فعالية من عواصمنا في الوقت الحاضر .

أما فئة المجددين في كتابة التاريخ فهي فئة الذين قد اخذوا بالمنهج العلمي في الكتابة تأثرا منهم بالغرب . ولهؤلاء فضل لا ينكر في اعداد دراسات علمية لجوانب عديدة من تاريخنا وحضارتنا . لكن غالبية هؤلاء ايضا مقلدون لا للمؤرخين المسلمين ، ولكن للغربيين على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم . ولتقليد الغربيين محاذير كثيرة اخطرها في رأيي تطبيق مقاييس الحضارة الغربية على حضارتنا ، واتخاذ القيم الغربية اساسا لمحاكمة قيمنا .

ووجه الخطورة في هذا أننا بتطبيق مقاييسهم تتجنى على منجزاتنا ، وحيانا نشوهها ، ونشغل أنفسنا بقضايا تصرفنا عن التوفر على ما ينبغي أن تنصب عليه جهودنا . لقد شهد الغرب انفجار ثورة على الكنيسة قامت في اعقابها حركة الاصلاح الديني . هل معنى هذا أن نقول - كما قال البعض - بأنه لا بد لنا من ثورة دينية ؟ سمعت صديقا قبل يومين يقول

بأننا في حاجة الى لوثر مسلم • هل نحن حقاً بحاجة الى مثله ؟ لقد ثار لوثر على تحكم الكنيسة في الحياة والموت والمعتقدات • وأراد لوثر أن يكون للمسيحي حق فهم النصوص الدينية • لكن اين الكنيسة في الاسلام حتى ثور عليها ؟ واين هم رجال الكهنوت ؟ ان ما نادى به لوثر هو في صلب الاسلام وجوهره وتعاليمه •

وشهد الغرب فصل الكنيسة عن الدولة ، فأخذ بعضهم على الاسلام كونه ديناً ودولة • بل ان أحد المؤرخين المعاصرين حكم على الاسلام بالتدهور منذ وضع الرسول صلى الله عليه وسلم اسس حكومته وأمته في المدينة • وأغرب من هذا أن هذا المؤرخ نفسه يأخذ على الغربيين تخليهم عن الدين ، ويطلق على عصر ما بعد النهضة والثورات الدينية « عهد ما بعد المسيحية » •

وقاس بعض الغربيين ظهور الاسلام ومسيرته ومعتقداته على المسيحية دون فهم لطبيعة الاسلام والظروف التي بزغت فيها شمسُه • أخذت المسيحية في الانتشار في ظل الامبراطورية الرومانية ديانة مشتبها في أمرها من قبل الاباطرة ، ووقع الكثير من المسيحيين ضحية للظلم والاضطهاد والموت بسيوف الجلادين • وأحكم رجال الاقطاعات الكبرى قبضتهم على الفلاحين فهجروها الى المدن ، وسقطت اعداد كبيرة من العبيد ضحية للثورات • فكان أمراً طبيعياً أن يقول مفكرو المسيحية بقرب فناء العالم ، وحلول الآخرة • وكان أمراً طبيعياً أن يحكموا على طبيعة الانسان بأنها مجبولة على الخطيئة ، وان ينادوا بالمحبة ولين الجانب والتجاوز عن الاساءة • لم يكن أمام المسيحية وسط تلك المشاهد المفجعة الا أن تحمل الغزاء للناس ، وأن تبشرهم بجنت الآخرة ونعيمها ، وبعبارة موجزة أن تعلمهم كما قال أحد المؤرخين كيف يموتون •

أما بالنسبة الى الاسلام فكان الوضع مختلفاً كل الاختلاف ، ولا وجه لقياس ولا مقارنة • فالاسلام حمل للعالم رسالة للحياة وللبناء ، لصالح

أحوال الناس في دنياهم وآخرتهم ، وعليه اندفع المسلمون لتبليغ الرسالة وتوحيد الناس في ظل الاسلام . وقالوا بأن الانسان يولد على الفطرة ، وأن صلاحه وفساده متوقفان على النظام انذى يعيش في ظله . وفسر الاسلام للانسان طبيعة الكون الذى نعيش فيه ، فوضع حدا فاصلا بين العالم المادى والخالق عز وجل ، وحث الناس على النظر في ظواهر الكون فدفع عجلة العالم بقوة أدت الى تلك النهضة الكبرى التى تزعم بها المسلمون ميادين الفكر والعلم .

وشغلنا بعض الغربيين بتطبيق مقاييسهم علينا في ميدان كانت منجزات العرب فيه ولا تزال موضع اعجاب العالم كله وهو ميدان الفنون ، فعالجوه من الناحية السلبية ، وافتقدوا فيه تصوير الانسان . وأود هنا ان اتساءل كيف يجوز ان نحكم على الفن الاسلامي بما لم يكن من مقاصد أصحابه . أليس في هذا عمى منهجي - مقصودا كان أو غير مقصود ؟ لقد كان الفنان المسلم ينشد المثال لا المثل : كان يستهدف الجوهر لا العرض ، واللامحدود لا المحدود . انظر الى أى نسق زخرفى أو نباتي تجده تجريديا لا يمثل شيئا بعينه . وتجد الشكل مطواعا في الامتداد قابلا لتوليد مختلف الاشكال .

ثم هناك قضية الاصطلاحات الغريبة واستخدامها دون تمعن في دلالاتها كلنا على سبيل المثال نعرف اصطلاح الديمقراطية ، أخذنا في المزايدة على أصحاب الاصطلاح ووضعه في غير موضعه . أخذنا ندس الاصطلاح مثلا في جوانب دينية لا تجوز معها الديمقراطية . أنا اعلم ان الذين تحمسوا له وحاولوا زجه في قرائن دينية ، فعلوا ذلك على سبيل الدفاع عن الاسلام . لكن غاب عنهم أنه لا ديمقراطية في الدين ، فالدين يرتكز على الوحي ، وكل مسلم لا يمكن ان يتشرف بحمله هذا الاسم الا اذا سلم بالوحي .

واخطر من هذا كله ان تقبل على كل رأى غربي أو نظرية عربية فنعتبرها أمرا مسلما بصحته ، ونحاول أحيانا اثبات جذورها واصولها في

أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو في القرآن ، أو في النصوص الجغرافية والتاريخية • مضى عهد احل الناس فيه مذهب روسو في الانسان الطبيعي المحل الاسمي في تفكيرهم وأدبهم ، ثم لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يوجد هناك انسان طبيعي • فالانسان هو المخلوق الوحيد الذي لا يستطيع ان يعيش بعد الولادة الا اذا تكفل انسان برعايته • وفي هذه الاثناء تتكون طبيعة الانسان الثانية • يذكرني هذا بما حدث خلال الحملة الفرنسية على مصر حين تحمس بعض رجالها لرؤية الانسان الطبيعي في الصحراء في الطريق من الاسكندرية الى القاهرة، وقصدوا بذلك البدو • فلما انقض البدو عليهم، علق أحدهم على البدو بقوله انه كره الانسان الطبيعي منذ ذلك الحين •

وشهد القرن التاسع عشر ظهور دعاوى تفوق بعض الاجناس على البعض الاخر، وذلك بسبب تفوقها العسكري ، ثم لم تلبث النظرية أن تهاوت في أعقاب انحسار الاستعمار باستقلال المستعمرات • وشهد القرن التاسع عشر ظهور فكرة التقدم Progress ، ثم انهارت في اعقاب اندلاع الحرب العالمية الاولى التي حطمت آمال العالم في السلام على الارض •

يفترض فيمن يتصدى لاعادة كتابة التاريخ الاسلامي أن يحدد اولاً معالم الاطار او النسق Pattern الذي يتبعه • فليس هناك مؤرخ يكتب بدون نسق قائم على تصور كلي للموضوع • فالحكم على الشيء كما هو معروف فرع من تصوره • صحيح أن هناك من ينكر على المؤرخ ان يكتب وفق نسق كالمؤرخ هـ • أ • ل • فيشر • ولكن عدم وجود النسق ، كما رد عليه النقاد هو في حد ذاته نسق ويتعين على المؤرخ ممن يحملون الاسم بجدارة ان تكون لديه نظرة واضحة الى الانسان والكون • فقد سبقت الاشارة الى اختلاف الاسلام عن غيره من الاديان في مفهومه لطبيعة الانسان والخلق •

ويفترض الاطار الكلي رؤية واضحة لموقع تاريخنا من التاريخ العالمي لقد جرى الغرب على تشويه تاريخنا وتواريخ أمم ، بل وقارات بأكملها ،

بجعلها حاشية على تاريخه ، هذا مع ان عصر السيادة الاوروبية على أكثر بقاع العالم يستمر أكثر من أربعة قرون ابتدأت بالاكتشافات الاوروبية ، هذا بينما استمرت الدولة الاسلامية والدول الاسلامية المستقلة في السيطرة أكثر من عشرة قرون بدءا بالخلفاء الراشدين ، و انتهاء بالأتراك العثمانيين . يكاد المرء لا يصدق ان تاريخ الاسلام كله لا يحتل في بعض التواريخ العالمية أكثر من صفحات محدودة .

ومن الامور الاساسية في رسم الاطار الكلي قضية قسمة التاريخ الى عصور او التعصير كما يقترح البعض تسميتها . وهنا لا بد أن نذكر بان الطريقة الاوروبية في تقسيم التاريخ خاصة بأوروبا . أخطر ما في هذا التقسيم علينا أن عصور الازدهار الاسلامية توافق عندهم ما يعرف بالعصور الوسيطة ، وعبرة العصور الوسيطة ما أطلعت في أوائل القرن السادس عشر الا للدلالة على انها لم تكن سوى معبر من العصور الكلاسيكية - اليونانية والرومانية - الى العصور الحديثة . لقد وقر في ذهن الاوروبي ان هذه العصور كانت الى حد كبير عصورا مظلمة، مع ان الظلام لم يكن في العصور بقدر ما كان في أذهان من أطلقوا التسمية . والاشارة الى أن الاسلام ظهر في هذه العصور توحى بأن العهود الاسلامية الاولى كانت مظلمة او شبه مظلمة كالغربية .

لسنا في حاجة الى هذا التقسيم ، وحسبنا القول بما قبل الاسلام وما بعد الاسلام . وهنا لا بد لي من الاشارة الى قضية هامة ، وهي مسألة اعتبار العهود الاسلامية التي تلت القرن الحادى عشر عهود انحطاط . هذه الكلمة الاخيرة ترجمة لما دعاه اكثر الغربيين بكلمة Pecline . ولو أن كتابنا ومؤرخينا تمنعوا في منجزات الشعوب الاسلامية خلال ما اسموه بعصور الانحطاط لوجدوا ان أكثر من بقعة في العالم الاسلامى شهدت نهضة في هذا الجانب او ذاك من الحضارة . وابرز الامثلة على ذلك منجزات المغول في الهند ، والأتراك العثمانيين في ميادين الفن والعمارة . ومما



يستلقت النظر أنه في حين أن بعض كتاب الغرب أنفسهم قد أخذوا يتخلون عن فكرة الانحطاط هذه ، فإن كتابنا ومؤرخينا يصرون عليها .

يحتاج القول بالانحطاط أو التدهور الى اعادة النظر فيه في ضوء واقع مسيرة الحضارة الاسلامية ، وفي ضوء تطور غيرها من الحضارات . ولو فعلنا ذلك لوجدنا ان حضارتنا كغيرها من الحضارات مرت في أدوار ثلاثة : دور النشأة وارساء الجذور والقواعد ، ودور النقل والانتقاء من كل مصدر في متناول العلماء المفكرين ، ثم اخيرا دور التوطيد والتبلور . ويوافق الدور الاول زمن البعثة النبوية والخلفاء الراشدين . ويقع الثاني خلال القرون الثلاثة التالية ثم تلا ذلك دور انتوطيد وتحديد المعالم والمفاهيم وتبلورها . ما خيل الى البعض انه انحطاط لم يكن الا توطيدا وبلورة للمذاهب والآراء والمعتقدات ، واستمساكا بها . صحيح أن بعض انحاء العالم الاسلامي تعرضت في هذه الاثناء لنكسات وكوارث ولكنه عموما استمسك بما عنده ولم يتدهور . واقع الحال ان معطيات الحياة وظروفها لم تتغير ، ولم يضع العرب ايديهم على علم جديد يقربون به وجه الحياة . ومما ينبغي تذكره هو ان الغرب ذاته كان في هذه الاثناء بلدا ناميا او متخلفا . وجاء الانقلاب الحقيقي في الموازين بالثورة الصناعية التي مكنت الغرب من الانتقال من الاستعمار القديم الى الاستعمار الحديث والسيطرة على مقدرات الشعوب . ولم يكن الغرب ليتمكن من التطور بسرعة في ذلك الطريق لولا استغلال الشعوب وخيراتهم .

في هذه الاثناء شهد العالم الاسلامي تطورات يغفلها مؤرخونا : يتناسون المغول في الهند والعثمانيين ومنجزاتهم ، ويتناسون انتشار الاسلام في افريقيا ويتناسون الحركات الاصلاحية . كان كل هذا امتدادا للمعصر الاسلامي الذي لا زال نعيش فيه برغم جميع الفلسفات الاجتماعية الجديدة أو الايديولوجيات . لقد بقى المسلم في شتى بقاع الارض مسلما له شخصيته المستقلة ، صامدا في وجه الكوارث . في هذه الاثناء قضى على

شعوب برمتها دون رحمة ، وتغيرت خارطة العالم مرة ومرات ، والمسلم مسلم — عربيا كان أو غير عربي • وتلمس الغرب سر هذا الصمود الغريب فوجدوه في الاسلام • فانبرى الكثيرون من المبشرين والمستشرقين لدراسة الاسلام لا بقصد الدراسة وانما لزعزعة أسس الاسلام ذاته • فذهب بعضهم الى انه لا يصلح المسلمون الا اذا تخلوا عن الاسلام أو شكوا في الوحي أو رجعوا الى فرعونيتهم أو اصولهم السابقة على الاسلام • ووقع ثمر منا تحت تأثير هذه الدعاوى • لكنهم لم يلبثوا ان اعادوا النظر في مواقفهم ومنهم — على سبيل المثال — المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل الذى كتب يقول :

« وقد حاولت أن أنقل لابناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لتتخذها جميعا هدى ونبراسا ، لكنني أدركت بعد لآى أنني أضع البذر في غير منبته ، فاذا الارض تهضمه ثم لا تتخض عنه ، ولا تبث الحياة فيه • وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراغة مؤثلا لوحى هذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن واذا الركود العقلي قد قطعنا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة • فرأيت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذى ينبت ويشمر ، ففيه حياة تحرك النفوس ، وتجعلها تهتز وتربو ، ولابناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين » •

لست أرى سببا للتشاؤم ولا لليأس — وأعتقد أن مهمة تعميق الهوية العربية الاسلامية هي بالدرجة الاولى مسئولية المؤرخ • لم يكن الطبرى أو اللادري أو اليعقوبي في حاجة الى تأكيد العروبة أو الاسلام لانهم كانوا يعيشون في جو عربى اسلامى • اما اليوم فنحن نعيش في عصر الايديولوجيات والمذاهب « والتقاليع » ولا معدى لنا عن أن نضع القارىء في الجو الصحيح الذى يولد فيه الشعور بالاعتزاز بنفسه وبقومه وبتراثه •

ولن يتولد فيه هذا الشعور الا اذا أغنيينا تاريخنا بالابحاث التي تدور حول عروبة البلاد وتحولها الى الاسلام ، واغنيينا كثيرا من معالجاتنا للمنجزات بالمحتوى . هناك كما أشرت نقص في الموضوعات التي نعالجها . لقد تعربت بلاد كانت قد خضعت لامم أجنبية ، وتعرضت لتأثير حضاراتنا ، لكنها صمدت في وجه هذه التأثيرات مثل شمال افريقيا . أليس نقصا فينا الا ندرس قضية تعريبية وتحوله الى الاسلام . ألا نقول باستمرار بأننا من المحيط الى الخليج ؟ كيف صرنا من المحيط الى الخليج ؟ وقصدت بمحتوى المنجزات الا نكتفى بقولنا مثلا ان العرب انشأوا المستشفيات . ما هي الصورة التي نكونها لدى القارىء بمجرد ايراد هذه الحقيقة مع ذكر مبلغ ما صرف عليها ؟ أليس الواجب علينا ان تتعدى ذلك الى البحث في ادارتها ، وفي عملية التعلم والتعليم والتدريب فيها ؟

يقودني هذا الى القول بان كل مؤرخ للحضارة أولا وآخرا . ولا يمكن لباحثه ان تأتي غنية الا اذا أدرك وجوه حضارة القوم الذين يؤرخ لهم ، وكان بصيرا بالترابط بين مختلف مظاهر حياة المجتمع على اختلاف فئاته ، وبالعلاقات بين التطورات المختلفة المحلية منها والعالمية . أبسط الامثلة واقربها على سبيل المثال اكتفاؤنا عند بحث حروب الفتح الاولى في الاسلام بتمجيد شجاعتنا وانتصارنا على الفرس ومن بعدهم الترك وغيرهم . هناك أبعاد اخرى للفتح لا يمكن للكاتب تبينها الا اذا كان ملما ببعض الشيء بتاريخ هذه الامم التي انضوت تحت لواء الاسلام ، وعلاقاتها بعضها ببعض . هناك فرق كبير بين الاكتفاء بخبر الفتح وبين تجاوز ذلك الى ادراك ان العرب كانوا الامة الوحيدة التي حطمت حاجز الفرات بين الشعوب السامية ولايرانية ، وحاجز نهر جيحون الذي كان يفصل بين الشعوب الايرانية والتركية ، وأن النتائج الحضارية التي ترتبت على تحطيم هذين الحاجزين كانت اعظم بكثير مما يتصوره المرء . بتفسير هذه

الابعاد نعني الموضوع ، ونوسع مدارك القارىء ، ونعمق ادراكه لمدى الانجاز الضخم الذى حققه قومه ، وبالتالي نعزز فيه شعوره بالاعتزاز بنفسه وبتراثه .

لست ادعو الى تحميل التاريخ ما لا يطيق ، ولا الى تزييف الوقائع . أنا أدعوا الى تبيينها فى نطاق أبعادها الصحيحة . وهذا بالمناسبة لا يتسنى لاتباع التفسيرات التاريخية ذات الوجه الواحد ، ولا أتباع الدكتاتوريات الفكرية ، ولا اتباع المقارنات والمقابلات التى تنتزع الامور من قرائنها التاريخية . فالحكم بأن المسببات كلها مادية أو روحية أو سيكولوجية أو اقتصادية أو سياسية فحسب ، يشوه المنظور التاريخى . فلا بد من انفتاح الذهن واعتماد التحليل العلمى الدقيق .

ولا يتسنى هذا ايضا لمن لا يلتزمون بالمنهج العلمى التزاما كاملا . وهذه نقطة أحب أن أؤكد لها لان اكثر كتابنا لا يأخذون من الجانب العلمى سوق الشكليات . يسمح مثلا كانت او آخر لنفسه ان يجتر اجترارا ، أو أن يكتب دون اطلاع كاف . لا بأس فى أن نأخذ بالطريقة الغربية . فالكاتب الغربى لا يكتب فى الغالب الا اذا كان عنده جديد يقوله ، أو اذا كان لديه تفسير جديد لموضوعه . ولو فعل كتابنا ومن يشتغلون بالتاريخ عندنا مثلهم ، لاختفت اكثر الكتب التى ألفناها .

وأود ان أقف قليلا عند خطأ يرتكبه عدد من كتابنا ومؤرخينا فى حق أنفسهم وحق أمتهم ، ألا وهو غلبة الاسى على كتابتهم عندما يتصدون لتاريخنا وخاصة عند بدء الفتن والحروب ، وعند قيام الدول المستقلة . وان دل هذا على شيء فهو على عدم تفهم كامل لطبيعة العصور التى قامت بها الدول الاسلامية ، ثم الدول المستقلة . اذ لم يكن فى مقدور دولة مترامية الاطراف كالدولة الاسلامية ، ولا أمبراطورية مثل امبراطورية شارلمان مثلا أن تظل متماسكة لفترة طويلة من الزمن . لقد قامت الدولة الاسلامية فى عصر

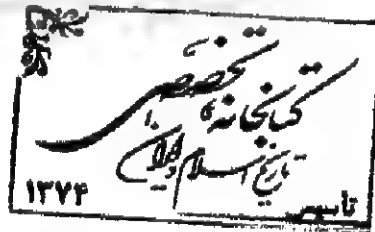
كان معين البشر فيه محدودا ، وكانت المسافات شاسعة ، والاسلحة وأدوات  
الحصار ذات اشكال بسيطة • هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى : لماذا  
لا نركز على الانجازات الكبرى التي كان تحقيقها ولا يزال أقرب ما يكون  
الى المعجزات ، وفي مقدمتها خلق هذا العالم العربي والعالم الاسلامي •  
فلا أعرف الى الان ما يقرأ أكثر من القرآن الكريم ، ولا اسما يردد مثل  
اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم • فلماذا نكتب عنهم بروح والحزن •  
اذا كان لا بد من الاسى والحزن ، فليكن علينا نحن العرب المعاصرين • لا  
عليهم هم • لقد قاموا بدورهم خير قيام •

• • •

قد يتساءل احدكم عما يجب علينا ان نفعله لنعيد كتابة تاريخنا على  
الوجه الصحيح • هذه مسئولية الجامعات العربية والاسلامية ، فالجهد  
الفردى وحده لا يكفي • لا بد من جهد جماعي منسق لسد النقص في  
أبحاثنا ، وعلى أساس مثل هذا الجهد يمكن لنا ان نعيد الكتابة •

الدكتور محمود يوسف زايد

استاذ التاريخ الاسلامي  
الجامعة الاميركية في بيروت





## تجديد في ظل الأصالة

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور  
استاذ تاريخ العصور الوسطى  
جامعة الكويت

من الحقائق المسلم بها ان نسبة كبيرة من العرب اليوم غير راضين عن وضعهم واحوالهم . فرغم هذه المظاهر البراقة التي نلمسها في بعض جوانب الوطن العربي الا ان نظرة جادة امينة في ضوء المقارنة بين أوضاع المجتمع العربي من ناحية واطوضاع العالم المتحضر من ناحية اخرى ، تجعلنا ندرك ان هذا المجتمع يعاني فعلا من حالة تخلف خطيرة ، فكريا واجتماعيا واقتصاديا .

ومن حق العرب اليوم ان يألموا لهذا الوضع ويعيدوا النظر في حقيقة امرهم ، ويتدارسوا اسباب هذه الكبوة التي ألت بهم ، والاسلوب الصحيح للنهوض منها . ذلك ان العرب لم يكونوا مطلقا من تلك الامم التي عاشت على هامش تاريخ البشرية ، دون ان يسطروا فيه أثرا بناء ، وانما كان العرب أصحاب رسالة خالدة ، وبناء حضارة هي باعتراف كافة الباحثين اعظم حضارة شاهدها العالم اجمع — مشرقه ومغرب — طوال العصور الوسطى .

ومن هذا المورد استقى الغرب منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، عندما أفاق اهل الغرب من ظلمة العصور الوسطى ليفتحوا اعينهم على حضارة عربية شامخة البنيان لم تترك فنا ولا علما ولا ضربا من ضروب المعرفة الانسانية الا اسهمت فيه بجديد ، فنشطت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية ، ولم يترك الاوريون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كتابا عربيا في الاداب او العلوم او الفنون الا تلقفوه في نهم وعكفوا على ترجمته الى اللاتينية ليتعلموا فيها ويتلمذوا على ايدي مؤلفيها من اعلام الفكر

العربي • حتى القرآن الكريم عندما وقعت منه نسخة مخطوطة في ايديهم ترجموها الى اللاتينية في وقت مبكر يرجع الى النصف الاول من القرن الثاني عشر للميلاد •

لم يتردد ريموند رئيس اساقفة طليطله في انشاء مكتب كبير للترجمة قام بترجمة عديد من امهات ثمار الفكر العربي الى اللاتينية • بل لقد ظهر من ملوك اسبانيا الذين عرفوا بتعصبهم الشديد في ذلك الدور ضد العروبة والاسلام ، من قدر الثقافة العربية وادراك الا امل في صحوة الغرب دون الوقوف على تراث العرب والافادة منه ، ومن هؤلاء الفونس الخامس ملك قشتالة وليون الملقب بالحكيم ( ٢٥٢ - ١٢٨٤ ) •

وعلى هذا الاساس قامت النهضة الاوربية في القرن الخامس عشر ، وهي النهضة التي استمرت في تطور وازدهار الى ان بلغت ما بلغته اليوم من تفوق وازدهار • اما الاصل ، واما المنبع الذي استقت منه الحضارة الحديثة فلم يلبث ان تعرض للجفاف والذبول ، ووقف العرب اليوم على مفترق الطرق ، بين اسفين على مجد ولى ومترحمين على أيام انقضت ، وبين متشككين في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وبين مفتونين بخضارة الغرب بلغ من شغفهم بها ان اقبلوا عليها في نههم مالا يلتهمون الا مساوئها ولا يقدسون الا سيئاتها • ولننظر في امر كل فريق من هذه الفرق الثلاث •

اما المترجمون على الحضارة العربية وامجادها ، فيحلوا لهم بين حين وآخر ان يقيموا لها عزاء في شكل مؤتمر او ندوة او غير هذا وذاك ، ينعون فيه مجد الآباء وآثار الاجداد ، وغالبا ما يقف دورهم عند التغني بامجاد الماضي ، لعلهم يجدون في ذلك نوعا من السلوى يعوضهم عما يشعرون به من اسى عند المقارنة بين ما كانوا عليه وما صاروا اليه •

ويعبر هذا التفريق عن وجهة نظره بشتى الطرق العلنية الواضحة ، اما بالكتابة او الخطابة التي يتحدثون فيها عن ازمة الحضارة العربية ، وهم



في جميع الحالات يرددون كلاما مكررا يستعرضون فيه ما حققته تلك الحضارة من منجزات في مختلف العلوم والفنون ، وما اسهمت به من نصيب كبير فعال في بناء الحضارة العربية الحديثة ، وكيف ان العرب على هذا الفريق وقوفه عند هذا الحد ، وعدم محاولة تخطيه الى العمل على ايضاح الحقيقة الخاصة بان الحضارة العربية ذبلت ولكنها لم تمت ، وانها كالشجرة الراسخة اصلها ثابت وجذورها قوية متينة ممتدة في الاعماق ، لئن جفت اوراقها نتيجة لعدم العناية بها ، فان بعض الرعاية ومزيد من العناية كفيلا بان يعيدا الى هذه الشجرة نضرتها وخضرتها ، لتصبح اعظم مما امست فيه ، ويعود الى الاستغلال بظلها ليس العرب وحدهم وانما البشر كافة ، مثلما حدث في سالف الزمان . اجل ، علينا ان ندرك وان نعترف بأن ذبول شجرة الحضارة العربية لا يرجع الى عدم قدرتها على مسايرة التطور الحديث ، او — كما يدعي البعض — الى بذور ضعف كامنة بين ثنايا تلك الحضارة اشبه بالجراثيم التي تنخر في جسم حتى يتساقط وتتهاوى اعضاءه تحت تأثيرها . وانما جاء ذبول تلك الشجرة نتيجة لسبب رئيسي واحد هو تقاعس اصحابها عن العناية بها والالتزام بجوهرها ، والاستمرار برعايتها . ومع هذا فان شجرة الحضارة العربية رغم كل ما يحيط بها اليوم من مظهر جاف مجذب ، ما زالت محتفظة باسباب الحياة تنظر الى ابنائها نظرة الم وامل ، وكأنها تتقرب اليوم الذي يقومون فيه بمحاولة جدية مخلصه لرعايتها ، حتى تنهض من كبوتها وتقدم لهم وللبنية جمعاء اضعاف ما يقدمونه لها .

واما الفريق الثاني الذي يضم عصابة المتشككين في ماضي العروبة وحاضرها وربما مستقبلها ، فيمثل الجانب الهدام الذي لا يرى في ماضي الحضارة العربية الا جمودا ، ولا في حاضرها الا عجزا ، ولا في مستقبلها الا ظلاما . وفي الوقت الذي تستثير عظمة الحضارة العربية مفكرى العالم اجمع في الشرق والغرب ، فيعكفون على دراستها ، ويان اصالتها ، وايضاح

عناصر القوة فيها ، وشرح فضلها على الحضارة البشرية جمعاء ويبدلون جهودا متواصلة لاحياء تراثها . . . . . في هذا الوقت نسمع صوتا خافتا غير برىء يستهدف فى صورة مباشرة او غير مباشرة - عن علم او جهل - التشكيك فى قدرة العرب على الانطلاق ، وفى استطاعة حضارتهم النهوض بل فى قيمة تراثهم الخالد واهميته بالنسبة للحاضر والمستقبل .

نعم ، فى الوقت الذى تفاجئنا فيه دور النشر كل يوم بمطبوعات جديدة عن التراث العربى تبرز عظمته وقوته وتصدر عن المهتمين بالاستشراق فى روسيا وهولندا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة الامريكية وغيرها ، اذا باصوات - ماكرة او غافلة - تنبعث من جوف الوطن العربى نفسه تقلل من قيمة التراث العربى بل تندد به ، وترى فى احيائه نوعا من الردة غير المسحبة ، وتتهم الجهود الحريصة على احياء ذلك التراث بانها جهود رجعية . ولعل هؤلاء فاتهم ان الحضارة العربية تمثل اكبر حركة تقدمية شهدتها التاريخ ، زمن ازدهارها ، وان هذه الحضارة تحوى من امكانيات الانطلاق والتقدم ومسايرة التطور من اجل سعادة البشر مالا تحويه حضارة اخرى ، واننا عندما ننادى باحياء تراث الحضارة العربية فاننا لا ننادى بالتمسك بالاساليب العتيقة فى الانتاج كما يحلو لذلك الفريق ان يتشدد ، ولا نطلب بالوقوف عند اساليب الماضى وعدم الاخذ بمحاسن الحاضر . اننا عندما ننادى باحياء التراث العربى ، انما نستهدف استخلاص ما فى هذا التراث من قيم بناءة - فكرية وخلقية واجتماعية واقتصادية - وهى قيم مثالية لاترتبط بالماضى وحده ، وانما هى صالحة لكل زمان ومكان ، ومن الممكن ان تكون اداة طيبة ووسيلة فعالة للنهوض والانطلاق والوصل الى ما بعد مرحلة القمر . علينا ان نذكر ان روجر بيكون رائد البحث العلمى والمنهج التجريبي الحديث فى العالم العربى عندما توصل الى ان الظواهر الطبيعية جميعها متوافقة ومتألقة تألفا يؤدى الى وحدة الطبيعة ، وعندما قال بان الطبيعيات والكيمياء والفلك

والرياضيات تؤدي الى وظائف مختلفة لشيء واحد هو الطبيعة ، وعندما تنبأ بإمكان الوصول الى اختراع سفن تسير بالآلات دون حاجة الى مجدف او شراع ، طائرات يحرك الانسان اجنحتها كما يفعل الطير ، ومفرقات ملتهبة تبيد الجيوش ، وروافع ضخمة لرفع الاثقال ، وعقاقير سامة تبيد الحشرات والهوام ، ومصاييح تضيء دون ان ينفذ وقودها ..... الى غير ذلك من الازهافات التي توصل اليها الانسان فعلا فيما بعد ، والتي غدت اساس التطور الحضارى الحديث .... علينا ان نذكر ان يكون الذى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد عندما توصل الى هذا القدر من المعرفة وتنبا بتلك المعلومات انما كان قد تعلم اللغة العربية ، وتلقى العلم فى جامعة اكسفورد الناشئة على ايدى اساتذة كانوا قد تتلمذوا بدورهم على ايدى العرب فى اسبانيا ، وأنه دأب دائما على حث تلاميذه ومعاصريه على علم اللغة العربية وعلوم العرب بوصفها الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

ان اتسام الحضارة العربية بمسحة من الايمان لا ينبغى ان يكون سببا لادانتها بالجمود والرجعية ، فالاديان السماوية نزلت من اجل تحرير البشر لا تقييدهم ، وبهدف تطوير المجتمع البشرى نحو الافضل والاسمى ، لاتجميدة . والايمان ليس معناه مطلقا تقبل الحقائق تقبلا اعمى دون تمييزها ودراستها دراسة حرة تستهدف الوصول الى كنهها . فها هو القرآن الكريم يستعرض آيات الله من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، وسماوات وارض ، ومد للظل ..... ثم يطالب المؤمنين بان يتدبروا هذه الآيات ، واذا ذكروا بها لم يخروا عليها صما وعميانا . اذا وجدت فئة من رجال الدين — فى المسيحية والاسلام سواء — اتصفت منذ العصور الوسطى بالتزمت والرغبة فى حصر الفكر البشرى داخل دائرة محدودة ضيقة فان هذه الفئة لا يمكن ان تعبر عن رحابة صدر الاديان السماوية وما تحويه من قدرات خلاقة على طريق التحرر والانطلاق .

وفيما عدا هذه الفئة المتزمتة التي تمثل نسبة قليلة من رجال الدين ، نجد اعلام الحضارة العربية وبناتها اكثر ما يكونون تحررا في تفكيرهم واتساع أفقهم . أليس ابراهيم بن سيار النظام هو أول من قرر ان الشك بداية لكل معرفة ، ثم جاء الغزالي من بعده فاكد هذه النظرية وافاض فيها في كتابه « احياء علوم الدين » وذلك قبل ان يولد ديكارت الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت بقرون ؟ اليس ابن تيمية في كتابة « نقد المنطق » هو الذى نادى بان الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة الى اليقين ؟ اليس بن حيان هو الذى قال العبارة الشهيرة بان المعرفة لا تحصل الا بالعمل واجراء التجارب ؟ اليس ابن رشد هو الشارح الاعظم لفلسفة ارسطو ، الذى اطلق لتفكيره العنان وضرب مثلا فريدا لحرية الفكر بعيدا عن كل قيد ديني أو غير ديني ؟ اذا كان هؤلاء وغيرهم من اعلام الحضارة العربية والفكر العربي قد سبقوا زمانهم فكيف بعدة قرون فكيف تعتبر الحضارة العربية جامدة ؟ وكيف نعتبر العودة الى التراث والعمل على احياء ما فيه من قيم ومثل ضربا من الرجعية ؟؟؟ .

اما الفريق الثالث الذى يشمل المفتونين بحضارة الغرب ، فقد بهرهم ضوء الحضارة الغربية الحديثة ، فاقبلوا عليها في نهم شديد يتسحون بها ويحاولون الاتساب اليها متكرين لاصولهم الحضارية .

ولو كان هؤلاء تدبروا امرهم ليميزوا بين الغث والسمين ، ويحرصوا على اختبار العناصر الطيبة من الحضارة الغربية لهان امرهم ، ولكنهم في حماسهم لكل ما هو غربي اندفعوا ليأخذوا عن الحضارة الغربية مساوئها ورذائلها . لقد اغمضوا أعينهم عما فى الحضارة الغربية من حرص على الانتاج والتزام باصول العمل وقواعده وغير ذلك من الجواهر ، وفتحوا اعينهم واسعة على ما ابتلى به المجتمع الغربي اليوم من رذائل ومفاسد . والغريب ايضا بشأن هذا الفريق انه فى الوقت الذى تنبعث اصوات من الغرب تبنى اعجابها بروحانية الشرق ، اذا بهم يتطرقون فى

تمجيد مادية الغرب • لقد فات هؤلاء ان المعجبين بروحانية الشرق ضاقوا  
ذرعاً بعبادة المادة ، وادركوا انه لا حياة لجسد بلا روح ، فاتجهوا بقلوبهم  
نحو الشرق ينشدون روحانياته ويتلمسون فيها القيم والمثل •



فاذا اردنا بعد ذلك ان نطرق باب المشكلة التي نحن بصدد حلها  
لتجديد ما ينبغي ان تكون عليه الحضارة العربية بين تيارى الاصاله  
والتجديد ، فاننا نجد ان الحل في حقيقة امره ليس صعباً ولا مستعصياً  
وذلك اذا حددنا المقصود بالاصالة والمقصود بالتجديد • اذا كان المقصود  
بالاصالة والعراقة والاحتفاظ بما تحويه من قيم ومثل ، فان الاصالة في هذه  
الحالة ينبغي ان تكون اساس التقدم بالحضارة العربية ونقطة الانطلاق  
لاية حركة تستهدف نهضتها داخل اطار مرن بعيد عن الجمود الذي تتبرأ  
منه تلك الحضارة • اما التجديد ، فاذا كان المقصود به التخلص عن الجوهر  
ونبد القديم لا لشيء سوى انه قديم والتمسح بالجديد لا لشيء سوى  
انه جديد ، ففي هذه الحالة تصبح الدعوة الى التجديد خطراً على كيان  
الحضارة العربية واصالتها ومثلها وكيانها • والتجديد مرفوض رفضاً قاطعاً في  
هذه الحالة • ولكن اذا كان المقصود بالتجديد احياء ما ذبل من المثل والقيم  
والاستفادة من الجوانب البناءة في الحضارات الاخرى التي من شأنها  
ان تزيد تلك المثل والقيم اصالة ورسوخاً وتمد البناء الحضارى العربى  
بمزيد من الصلابة ومزيد من القدرة على الحركة ، فمرحباً بالتجديد في  
هذه الحالة ، لانه لا يتعارض مع الاصالة ولا يقف منها على طرف نقيض ،  
وانما يتفق مع خصائص الحضارة العربية وسماتها الاساسية ، وهو الامر  
الذى لا يتضح الا بالقاء نظرة سريعة نحدد فيها تلك الخصائص والسمات  
تحديداً دقيقاً يلقي اضواء على مشكلة خلقها ، ثم اجتمعنا لدراستها : -

لعل اول ما تتصف به الحضارة العربية هو انها حضارة تقديمية  
متطورة بعيدة عن الجمود • فالعرب الذين بدأوا بناءهم الحضارة من  
نقطة الصفر غداة انطلاقهم من شبه جزيرتهم في القرن السابع للميلاد

وانتهوا بان دونوا شروحا على فلسفة ارسطو فاقت كل ماكتب عن تلك الفلسفة حتى العصور الحديثة ، وسبقوا غيرهم في وضع نظريات في الصوت وانضوء ، والصور في المرايا المقعرة والمحدبة وتحليل المواد تحليلا كيمياويا ، ووصف كثير من المركبات الكيماوية وخصائصها ، التمييز بين القلويات والاحماض ، وتأليف موسوعات في الطب ظل يعول عليها في دراسة الطب في الجامعات الاوروبية حتى القرن التاسع عشر ، والتوصل الى نتائج في الفلك والعلوم الرياضية لم يعرفها العالم من قبل ... هؤلاء العرب لا يمكن ان تكون حضارتهم جامدة ، وانما هي تقدمية متطورة ، بدأت - باستخدام الرماح والسهام وانتهت بوصف القنبلة والطوربيد واستعمال القوة الدافعة للبارود ،

بدأت بتلقين الفقه والحديث في المساجد والجوامع وانتهت بانشاء المدارس والجامعات لاستيعاب كافة العلوم العقلية والنقلية . واذا تتبعنا هذا المشوار الطويل لوجدنا انه لم يستغرق من الزمان اكثر من ثمانية قرون . فهل توصف مثل هذه الحضارة بعد ذلك بالجمود وعدم القدرة على التطور ؟ وهل يوصف الرجوع الى مثل هذه الحضارة وقيمها بانه نوع من الرجعية او الردة كما تدعى قلة من الناس ؟

وبعد ذلك تأتي صفة ثانية للحضارة العربية هي الحيوية والاستمرار . فهذه الحضارة منذ مولدها مرت بادوار متباينة بين يقظة وسبات ، وتعرضت لهجمات عديدة من الداخل والخارج ، ولكنها ظلت بروحها وقيمها ومثلها وجوهرها حية قائمة شامخة ، لم تمت مطلقا لدعي انها في حاجة الى بعث جديد ، ولم ينفذ معينها لنقول انها تقتقر الى احياء ، ولم تدبّل جذورها الاصيلية لنطالب باستبدالها بغيرها . لئن كانت اوراقها قد جفت وذبلت فان جذورها ما زالت حية يتوافر لها من اسباب القوة ما يضمن اخضرار الاوراق من جديد لتعود كما كانت بل اكثر مما كانت عليه في الماضي . وحسبي ان اشير الى مثال واحد في هذا الصدد للتدليل على

حيوية الحضارة العربية واستمرارها • فالجزائر البلد العربي الاصيل تعرضت فيه الحضارة العربية لاعنف وابشع ما يمكن ان تتعرض له حضارة في التاريخ من محاولة لاقتلاع جذورها على ايدى الاستعمار الفرنسي • ولكن ماذا حدث بعد تلك الجهود الطويلة المضنية التي بذلتها فرنسا من اجل فرنسة الجزائر ومحو مقوماتها العربية واستئصال شافة لغتها وعقيدتها ؟ •

قامت الجزائر عربية مرة اخرى مثلما كانت قبل الاستعمار الفرنسي ، تفخر بحضارتها العربية ، واسرعت قبل غيرها الى تعريب جامعاتها ومعاهدها التي فرنسها الاستعمار • بل لا نبالغ ولا نجامل اذا قلنا ان الجزائر اليوم غدت زاوية اساسية من زوايا القومية العربية وركنا بارزا من اركان الحضارة العربية وجبهة شريفة من اشرف جبهات النضال العربي • فهل هناك صورة ابرز من هذه الصورة للتدليل على حيوية الحضارة العربية وقدرتها على الاستمرار والبقاء والصمود في وجه القوى المعادية •

وما يقال عن الجزائر يقال اليوم عن فلسطين الحبيبة وارضها العربية الطيبة التي شهدت صفحة من اروع صفحات الحضارة العربية واكثرها ازدهار والتي تتعرض اليوم لابشع جريمة عرفها تاريخ البشر في محاولة اثمة لطمس معالمها العربية ، ولكنها تقف بسواعد ابنائها العرب — مسلمين ومسيحيين — صامدة مرفوعة الرأس لتضرب اروع مثل على حيوية شعب وحيوية حضارة •

وبعد ذلك تأتي صبغة ثالثة للحضارة العربية تبدو في اتساع افقها وانفتاحها على العالم اجمع وعلى الحضارات كلها • فالحضارة العربية منذ مولدها حتى اليوم لم تكن ابدا منغلقة على نفسها ، وانما هي قابلة للاخذ والعطاء • وحسب الحضارة العربية انها عند قيامها افادت من الحضارات القديمة السابقة لها زمينا مثل حضارات اليونان والرومان والفرس بل

الهنود والصينيين • وهي في ذلك حرصت كل الحرص على ان تحسن الاختيار والانتقاء ، كما اظهرت قدرة على تكييف الالهام الدخيل وفق حاجاتها ، وفي خلقها اياه خلقا جديدا يسبغ عليها طابعها الخاص • وبعبارة اخرى فان الحضارة العربية لم تلتقط كل ما صادفته من عناصر الحضارات الاخرى ، وانما عرفت كيف تتخير غذاءها ، فتقبلت كل ما من شأنه ان يساعدها على الاحتفاظ بجوهرها ومثلها وقيمتها وطابعها ، ونبتت كل ما لا يقبل التكيف وكل ما لا يتفق مع اصولها ومبادئها • ولا يقلل من شأن الحضارة العربية مطلقا انها افادت من غيرها ، لان سنة التطور البشرى والرقى الحضارى تتطلب دائما ان يستفيد الخلف من جهود السلف • ولو كان لزاما على كل جيل او على كل حضارة ان تبدأ بوضع اساس البناء الحضارى من جديد لوجدنا البشر اليوم في مستوى اقرب الى العصر الحجرى القديم ، ولكننا توصلنا الى القداحة اليوم بعد ان بدأ الانسان الاول بحك قطعتين من الحجر بعضهما ببعض لتوليد شرارة يشعل منها النار ، وما زالت جهود الاجيال تتعاقب حتى توصل الانسان الى عود الثقاب فالقداحة ويكفي الحضارة العربية فخرا انها لم تقف عند حد الاخذ عن الغير والنقل عن السابقين وانما ابتكرت وازافت وجددت ، ثم اعطت الحضارات الاخرى اللاحقة اضعاف ما اخذته عن الحضارات السابقة •

اما الصفة الرابعة للحضارة العربية فهي التسامح المطلق • الحضارة العربية حضارة محبة وأخاء • محبة بين مختلف الاجناس واخاء بين مختلف الاديان السماوية • لا تعصب اعمى ولا كراهية مجوجة ، ففي ظل المحبة والاخاء يكون التعاون محكما والتقدم ممكنا • الا يكفي ان يكون بناء الحضارة العربية واعلامها من العرب والفرس والترك والبربر وغيرهم من ابناء الشعوب والجنسيات التي انصهرت داخل بوتقة العروبة وفكرت بعقليتها وانتجت بوحى من مثلها وفي ظل قيمها وما وفرت له جميعا من حياة آمنة مطمئنة • الا يكفي الحضارة العربية ان يكون يكون من بين



اعلامها وبناتها جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن رشد والطبري  
والبيروني والخوازمي والفارابي وابن سينا والبتاني وابن خلدون ؟ الكل  
سواء مع اختلاف الدماء التي تجري في عروقهم والكل يسرون في موكب  
واحد هو موكب العروبة . ومن ناحية اخرى الا يكفي الحضارة العربية  
ان تحتضن بين ذراعيها وداخل صدرها المسلم والمسيحي واليهودي بل ربما  
الصابئي ؟ يكفي ان نعلم انه من بين اعلام الحضارة العربية كان ثابت بن  
قرة وسانان بن ثابت ، وحنين بن اسحق وجورجيوس بن بختيشوع ويوحنا  
بن ماسويه وموسى بن العازار واسحاق بن موسى وابن العبدى . بل يكفي  
الحضارة العربية فخرا ودليلا على تسامحها ان الفيلسوف اليهودي الشهير  
ابن ميمون الذى يفخر به الفكر الاسرائيلي تلقى تعليمه على ايدى اساتذة  
ومشايع من العرب المسلمين ، في جامع قرطبة الكبير ، حيث سمح للجميع  
على اختلاف اديانهم ومللهم ونحلهم بالدخول وتلقى العلم دون تفرقة او  
تمييز . وهكذا ضربت الحضارة العربية اروع مثل فى التسامح والاخاء  
والمحبة .

واخيرا فان الحضارة العربية تتصف بانها حضارة ايمان . ففي ظل  
الايمان نشأت ، وبين ربوعه ازدهرت وترعرعت ، وبفضله وهديه اكتسبت  
اسمى قيمها ومبادئها ومثلها . فمن الايمان كان التسامح والمحبة ، ومن  
الايمان نبتت مكارم الاخلاق .

والحضارة العربية عندما اتصفت بالايمان واتخذت منه دعامة لها لم  
تهمل المادة بل اعطتها حقه من التقارير لما لها من اهمية في بناء  
ال عمران وسعادة البشر . ومن ناحية اخرى فان الحضارة العربية عندما  
اتخذت من الايمان ركيزة لها استهدفت فى المقام الاول أن تحمى كيانها  
بسياج منيع من المبادئ الخلقية والمثل الكريمة لان الاديان السماوية  
كلها تتفق فى رسالة واحدة هى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . والايمان  
لا يتعارض مع العلم مطلقا بل على العكس الايمان هو الذى يتوج العلم

بهالة من الخير والبركة تجعل منه علما نافعا • فلا خير في علم دون اخلاق ، ومكارم الاخلاق هي جوهر الاديان السماوية ومحور رسالتها • وحسبنا دليلا على الترابط بين الايمان والعلم ما جاء في الحديث الشريف « العلم علما علم الاديان وعلم الابدان » وهكذا غدا علم الطب - او علم الابدان - صنوا للايمان وعلم الاديان • واذا كانت بعض المذاهب الحديثة تدعى بانه في التمسك بالايمان بعدا عن الخط الاشتراكي ، فانا نجد في مبادئ الاديان السماوية خير اشتراكية تأخذ من الغنى للفقير • ها هو القرآن الكريم يحتم اخذ الزكاة ويفرضها فرضا على القادر فيقول « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وها هو العهد الجديد يردد في سفر اعمال الرسل أن « جميع الذين آمنوا كانوا معا ، وكان عندهم كل شيء مشتركا ، والاملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج !! » فهل هناك بعد ذلك اشتراكية اقوى واعمق من اشتراكية الايمان هذه ؟ ! •

واخيرا فانا عندما نقول ان الحضارة العربية حضارة ايمان لا نغنى بذلك - كما يدعى المعرضون - ان يتحول المجتمع الى حلقات ذكر ويترك الانتاج والعمل • فالحضارة العربية حضارة ايمان ومثل واخلاق ، وهي حضارة كد وعمل وانتاج « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » •

دكتور

سعيد عبد الفتاح عاشور

استاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

# كربوغا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين

بقلم : ابراهيم خليل  
مدرس مساعد - قسم التاريخ  
كلية الآداب - جامعة الموصل

## كربوغا قبل توليه السلطة :

كان موت ملكشاه ، بداية لانحلال دولة السلاجقة وتفككها ، حيث بدأت سلسلة من الصراعات بين العائلة الحاكمة السلجوقية نفسها ، كان أبرزها الصراع الذي نشب بين بركياروق وتركان خاتون زوجة ملكشاه الأخيرة ، والتي كانت انجبت ولدا سنة ١٠٨٧م أسمه محمود . وقد حاولت تركان خاتون ان تكتسب نأ وفاة زوجها حتى تكون انتهت من تدابيراتها الخاصة في تدعيم موقف ابنها .

لعب قوام الدولة أبو سعيد كربوغا بن عبد الله الجلاي الامير ، دورا مهما في الدعوة لمحمود (١) ويبدو انه كان يعمل في خدمة تركان خاتون حيث ارسلته الى اصبهان بخاتم السلطان « فاستنزل مستحفظ القلعة وتسلمها » (٢) . ثم اخذت تتصل بالامراء وتبذل لهم الاموال سرا وتأخذ منهم البيعة لابنها محمود . ومن هؤلاء الامراء اسماعيل بن ياقوتي خال بركياروق . وكان اميرا على اذربيجان فأرسلت اليه تطمعه بالزواج منها وتدعوه لمحاربة بركياروق . وكان كربوغا قد ساهم في تلك المهمة .

توجهت ترکان خاتون الى اصبهان حيث حسم الصراع بان يحتفظ ابنها محمود بأصبهان وفارس ، وتكون بقية الدولة السلجوقية من نصيب برکیاروق • ولكن الاقدار تدخلت فتوفي محمود سنة ١٠٩٤ وعنذ سار برکیاروق الى اصبهان « فدخلها وتملكها » (٣) •

نشأ صراع آخر على العرش • اذ دخل برکیاروق في نزاع مع عمه تتش الذي اخذ يطالب بالسلطنة • وكان ممن ساعده في هذا الصراع قسيم الدولة آقسنقر ، صاحب حلب • وكان آقسنقر يبرر هذه المساعدة بان « أولاد ملکشاه صغار ، وان الملك لا يستقيم لهم لصغرهم وللخلف الواقع بينهم » (٤) • بالاضافة الى عدم استطاعة آقسنقر نفسه الوقوف بوجه تتش ، الذي كان يسيطر على دمشق وما جاورها • وقد أدخل آقسنقر معه في هذا الحلف كل من بوزان صاحب حران ، وياغی سیان صاحب انطاكية مقنعا اياهم بنفس الحجة وحتى « ينظروا ما يكون من أولاد ملکشاه » على حد قوله • (٥)

استطاع تاج الدين تتش بذلك التحالف من احتلال الرحبة ونصيبين سنة ١٠٩٣ م • وتطلع الى الموصل بعد ذلك حيث كان العقيليون يحكموها ، وقد طلب من ابراهيم بن قریش العقيلي أن يعترف به سلطانا وان يسهل له المرور عبر الموصل نحو بغداد لاسقاط برکیاروق • ولكن ابراهيم رفض مطلب تتش • والتقى الجيشان عند « المضيع » وهي قرية قرب الموصل • وكان ابراهيم في ثلاثين ألفا وتتش في عشر آلاف • وقد انتهت المعركة بانتصار تتش وهزيمة ابراهيم وحلفائه من الشيوخ العرب فقبض عليهم جميعا • ويذكر ابن الاثير كيف ان كثيرا من نساء العرب قتلن انفسهن خوفا من السبي والفضيحة • (٦)

دخلت الموصل في حوزة تتش ، فعين عليها علي بن شرف الدولة نائبا عنه ، ثم اتجه بعد ذلك نحو ميافارقين وديار بكر واذربيجان حيث

احتلها • أما بركياروق فقد احتل الري وهمذان وما بينها ، والتقى الطرفان ، وهنا انحاز قسيم الدولة آقسنقر صاحب حلب الى بركياروق مذكرا بوزان صاحب حران « بانا اطعنا هذا لننظر ما يكون من اولاد صاحبنا ، والآن وقد ظهر بركياروق والرأى والمرؤة تقتضي بأن نقصده ونكون معه » • (٧) ويورد ابن العديم (٨) في « زبدة الحلب » سببا آخر لانحياز آقسنقر وهو أن تتش أخذ يقرب ياغى سيان اليه ، ولم يول آقسنقر وبوزان شيئا من البلاد التي فتحها • ثم وجد تتش نفسه وحيدا فأثر الانسحاب وهو في أشد الغيظ من تصرفات حليفة السابق وقرر ان ينتقم منه •

قدم بركياروق الى بغداد ، وأرسل الى الخليفة المقتدى بالله يطلب الخطبة ، فأجيب طلبه ، ولقب بـ « ركن الدين » (٩) •

أما تتش فقد عاد الى الشام ، وبدأ يتحرش بحلب في صيف ١٠٩٤ م • وفي مواجهة ذلك تحالف آقسنقر مع بوزان وارسل لهم السلطان بركياروق الامير كربوغا ، الذي كان قد مال الى جانبه ايضا بجيش كبير • وقد التقى الطرفان عند نهر سبعين ، واشتد القتال ودارت الدائرة على آقسنقر وحلفائه واحضر عند تتش أسيرا « فقال له : لو ظفرت بى ماكنت صنعت • قال : كنت اقتلك • فقال له ( تتش ) أنا احكم عليك بما تحكم على » •

اتجه تتش بعد ذلك الى حلب ، حيث اعتصم بقلعتها كل من قوام الدولة كربوغا وبوزان منتظرين النجدة من بركياروق « وتحرير أهل حلب فيما يفعلونه » (١٠) • فأخذ بعضهم زمام المبادرة ففتحوا الابواب ودخل تتش وسلمت المدينة اليه وقبض على بوزان فقتله • ثم أخذ كربوغا حيث اعتقله بجمص • (١١)

ويعلل ابن الاثير عدم قتل تتش لكربوغا في انه أبقي عليه طمعا في استصلاح حمية الامير « أنر » • • زيادة على ذلك انه لم يكن له بلد يملكه اذا قتله ، كما فعل بالامير بوزان • (١٢) •

استولى تتش بعد ذلك على الرها وحران وسار الى ديار بكر قاصدا  
فارس لملاقاة بركياروق . وقد دارت رحى معركة قتل اثنائها تتش بعد  
خيانة بعض اعوانه المقربين اليه « ففُطِعَ رأسه وطُيِفَ به في المعسكر ثم حمل  
الى بغداد وطُيِفَ به فيها » (١٣) .

اكتفى بركياروق بذلك الانتصار ، ولم يحاول ضم الشام الى فارس  
وبغداد . فتوزعت املاك تتش بين ولديه رضوان ودقاق فسيطر الاول على  
حلب وأخذ الثاني دمشق . ثم جرت اتصالات بين بركياروق ورضوان  
حول مصير كربوغا فوافق رضوان على اطلاق سرحة (١٤) .

توجه كربوغا ، بعد اطلاق سراحه ، مع أخيه التوتناش وجميعا  
حولهما عددا من « العساكر البطالين » (١٥) احتلوا بهما حران ونصيبين  
واتصل بها هناك محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش ، وثروان بن وهيب  
وأبو الهيجاء الكردي لطلب مساعدتها ضد الامير علي بن شرف الدولة  
صاحب الموصل .

وافق كربوغا على تقديم المساعدة ، فالتقى بمحمد بن شرف الدولة واتجها  
سوية نحو الموصل ، لكنه لم يتمكن من فتحها فتركها الى « بلد » وفي الطريق قتل  
محمد بن شرف الدولة . فعاد كربوغا الى حصار الموصل ونزل بقرية  
« باحافلا » . وحاول على بن شرف الدولة الاتصال بجكرمش صاحب  
جزيرة ابن عمر ولكن التوتناش علم بذلك فقاتله وانسحب جكرمش ثم عاد  
الى بلاده . وقد عاد التوتناش ليشترك مع اخيه كربوغا في حصار الموصل .

واجه اهالي الموصل الحصار الاقتصادي الذي ضربه كربوغا حولها  
على الرغم من انعدام الاقوات والمؤونة بها بحيث أنه لم يعد هناك  
« ما يوقدونه فأوقدوا القير وحب القطن » (١٦) فاضطرت الى الاستسلام بعد  
تسعة اشهر . وقد نجح كربوغا في حكم المدينة « واحسن السيرة فيها » (١٧)  
الى درجة انه قتل اخاه التوتناش لانه « قبض على اعيان البلد وطالبهم  
بوردائهم » (١٨) واستمر كربوغا في حكم الموصل حتى وفاته سنة ١١٠١م

## ٢ - احتلال انطاكية من قبل الصليبيين :

في الوقت الذي كان فيه بلدوين يوعاد نفوذه في الرها وما جاورها من المناطق ويؤسس أول امارة صليبية في الشام كانت اكثرية الجيش الصليبي التي انفصلت عن الحملة الكبرى قد اتجهت نحو شمال الشام قاصدة انطاكية . وقد وحد الصليبيون ، وهم في طريقهم نحو انطاكية مساعدة قوية من جانب سكان تلك المناطق وبخاصة الارمن (١٩) وقد تألف هذا الفريق من بوهيموند النورماندي . وروبرت ، وأتين دي بلوا وريموند واديمار وجونموى . وكان يمثل الامبراطور البيزنطي في الحملة القائد « تاتيكيوس » على أساس ان هناك اتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين أقسموا فيها للامبراطور بأن يسلموا اليه انطاكية . (٢٠)

احدثت انباء تقدم الصليبيين قلقا كبيرا بين اهالي الشام . وبدأ الصليبيون زحفهم على انطاكية فوسلوا مدينة « مرعش » فخفف سكانها لاستقبالهم فرحين غاية الفرح وحملوا اليهم ذخيرة وفيرة ، وكان ذلك في كانون الاول ١٠٩٧ م . ثم دخلوا مدينة المعرة ( ٢١ ) الجديدة واستولوا على قلعة ارتاح (٢٢) وتجمعوا عند نهر الاورنت ( العاصي ) (٢٣) عند الجسر الجديد ، ( ٢٤ ) وبعد قتال شديد مع بعض الاهالي شقوا طريقهم عبر النهر منتصرين . وبفضل هذا الانتصار « غنموا غنيمة هائلة من قافلة كانت تحمل المؤونة الى باغى سيان (٢٥) وهكذا اضحى الطريق امامهم مفتوحا الى انطاكية (٢٦) .

كانت انطاكية من اقوى المدن المحصنة في ذلك الوقت ، (٢٧) ومن الصعوبة جدا اقتحام اسوارها وقلاعها . ويظهر ان الصليبيين قدروا أهميتها من الوجهتين العسكرية والتجارية ، وساعدتهم على ذلك الظروف السياسية التي كانت تسود الشام حينذاك ، ففي الوقت الذي كان الصليبيون يشقون طريقهم عن الاراضي الاسلامية كانت الحروب الاهلية بين ولدى تتش : رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق قد دخلت مرحلة حاسمة .

ولعب ياغي سيان صاحب انطاكية دورا في هذا الصراع ، فهو تارة مع رضوان واخرى مع دقاق ، الامر الذى كان له اثر سلبى على الوضع العام الاسلامى ، وعلى وضع ياغي سيان نفسه الذى حرم من الحصول على اقرب القوى الاسلامية اليه ، وهى حلب التى لم تكن تبعد عنه اكثر من ( ٦٠ ) ميلا • ( ٢٨ ) •

اما موقف سكان انطاكية ، فلدينا روايتين احدهما اسلامية والاخرى لاتينية ، حيث تذكر الرواية الاولى بأن ياغي سيان « خاف من النصارى » • ( ٢٩ ) الذين في داخل انطاكية فأخرجهم بحجة حفر الخندق ، وكان اخرج المسلمين من قبلهم ، فلما أرادوا الدخول منعهم ، ولكنه وعدهم بأن ينتظروا حتى يحسم الصراع بين الطرفين • وأمنهم على نساءهم واطفالهم • أما الرواية الثانية فتذكر بأن « الارمن والسريان الذين كانوا داخل المدينة قد دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار » • وكانوا موجودين بيننا ( اى بين الصليبيين ) كل يوم بينما بقيت نساءهم في المدينة ( ٣٠ ) ويضيف المصدر اللاتيني الى قوله هذا بأنهم كانوا ينقلون الاخبار بين الصليبيين وقوات المدينة ، حتى ان المحاصرين اخذوا يخرجون من المدينة جماعة جماعة دون أن يعترض الصليبيون طريقهم •

يبدو من هاتين الروايتين ان ياغي سيان اتخذ بعض الاجراءات التي تحتتمها ظروف المعركة ، وحتى لا يتحول اولئك الى « رتل خامس » علما بأنه قد قام ببعض الاستحكامات واحتاط للامر وظهر من شجاعته وجودة رأيه ما لم يشاهد من غيره ، كما يقول ذلك ابن الاثير • هذا ولا يعدم ان يكون قد بالغ هو أو بعض جنده في القيام باجراءات أمن مشددة اتسمت احيانا بالتعسف لا سيما اذا أخذنا برواية المؤرخ المجهول بأنهم كانوا يتقصون الاخبار من الجانبين الامر الذى يجعل من المنطق اخراجهم من المدينة مهيناً نفسه لحصار قد يطول ، وقد طال فعلا •



بدأ الصليبيون في الاغارة على بعض القرى القريبة لنهيا والحصول على المؤن ، واضطروا لذلك ان يترك بعضهم مواقعهم ، فترامى الخبر الى ياغى سبيان فخرج يغير على الصليبيين بنفسه ، « ولا يكاد يخرج ويعود الا ظافرا » . ( ٣١ ) وقد فطن الصليبيون الى ذلك وأنبهم بوهيموند على ترك مواقعهم . ( ٣٢ )

أخذت حالة الصليبيين تسوء . لا سيما وان الارمن والسرمان قد أخذوا يشترون الحنطة والاطعمة من القرى المجاورة ويبيعونها للصليبيين بأثمان فاحشة ( ٣٣ ) وفي هذا الوضع السيء ، حيث الفقر والبؤس والجوع ، بدأ بوهيموند يلعب لعبته ، ويعمل لنفسه ، فيكون بذلك قد ارغم باقى الزعماء الصليبيين على التنازل له عن انطاكية بعد فتحها من جهة ، والتخلص من ممثل الامبراطور البيزنطى القائد تاتيكيوس والذى ينتظر بدوره ايضا توزيع الغنائم من جهة اخرى . لا سيما وان بطرس الناسك قد تسلل المعسكر ليلا ولكن قبض عليه وأعيد ( ٣٤ ) اما الجنرال البيزنطى تاتيكيوس فقد ترك المعسكر ايضا في شباط ١٠٩٨ لكي يثير البيزنطيين لارسال امدادات اكثر للصليبيين ( ٣٥ ) وقد كان رحيل تاتيكيوس بتأثير من بوهيموند الذى ارتاح بعد رحيله وصفا له الجو . وقد أورد المؤرخ المجهول بأن تاتيكيوس قد سمع نبأ زحف جيش تركي كبير فاستبد به الفزع الشديد فراح ينتحل شتى المبررات ( ٣٦ ) ويظهر ان بوهيموند قد استفز القائد البيزنطى واعلمه بأن الصليبيين يتهمون به بالخيانة وبانه يتفاوض سرا مع الاتراك ، وعندئذ فكر تاتيكيوس بالانسحاب . ( ٣٧ )

التفت بوهيموند بعد ان تخلص من تاتيكيوس لتنفيذ القسم الاخر من خطته وهى التأثير على بقية الزعماء الصليبيين وكان قد اتفق مع رجل ارمنى الاصل اسمه فيروز يعرف بالزراد من اهل انطاكية وغللمان له برح كانوا يتولون حفظه ( ٣٩ ) على أن يفتح له باب البرج الذى فيه بعد أن بذل له بوهيموند « مالا واقطاعا » ( ٤٠ ) ويذكر ابن العديم سببا لخيانة فيروز

فيقول « ان ياغي سيان كان قد صادر هذا الزراد وأخذ ماله وغلته فحملة هذا على ان كاتب بوهيموند ( ٤١ ) ولما تأكد بوهيموند من دخوله المدينة عقد اجتماعا لكبار القادة وبين لهم الصعوبات التي تعترض الصليبيين والحالة السيئة التي وصلوا اليها « من عدم القوات ومن حور الشتاء ومن طول مدة الحصار » ( ٤٢ ) وطلب منهم أن ينفرد أحدهم بالقيادة فان تمكن من الاستيلاء على المدينة أو شن الهجوم عليها بمفرده أو بمساعدة الآخرين اصحب المدينة له . ( ٤٣ ) ولكنهم اختلفوا وكل طلبها لنفسه . فقال : « الصواب ان يحاصرها كل رجل منا جمعة فمن فتحت في جمعته فهي له فوافقوا على ذلك » ( ٤٤ ) ويبدو من هذه الروايات بأن بوهيموند كتب سر اتفاقه مع فيروز الزراد ، لا كما يورد ( الدويهي ) بأن بوهيموند أطلق قواد جيوش الصليبيين على السر الذي كان بينه وبين صاحب البرج فأقبل عليهم لهرب حزيل . ( ٤٥ )

تجمع الصليبيون بعد ساعات من المؤتمر المذكور في السهل ، واقام جماعة منهم على الجبل ، وما أن انبلج الفجر حتى اقتربوا من الابراج « فدلى الزراد جبلا فطلعوا من السور وتكاثروا ورفع بعضهم بعضا » ( ٤٦ ) وهجم قسم منهم على الحراس فقتلوهم وتسلم بوهيموند البرج ، وعندما تكامل عددهم وأصبح يزيد على خمسمائة ضربوا البوق عند السحر فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن مصدر البوق ف قيل له انه القلعة ففتح الباب « وهرب ياغي سيان في نفر يسير وترك بها اهله وماله » ( ٤٧ ) حيث سقط عن فرسه بالقرب من ارمناز ومعه خادم من غلمانه فحملة الخادم واركبه ولكنه عاد فسقط ثانية وادركه الارمن وقتلوه وحملوا رأسه الى الصليبيين . أما انطاكية فقتل منها وأسروا سبى من الرجال والنساء والاطفال ما لا يدركه حصر وهرب الى القلعة ثلاث الاف تحصنوا بها ( ٤٨ ) « كما نهبت الاموال والالات والسلاح » ( ٥٠ ) وقد أحدث استيلاء الصليبيين على انطاكية هلعاً بين سكان المناطق المحاورة « فوصل الخبر الى عم ( ٥١ ) وأنب ( ٥٢ ) فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الارمن » ( ٥٣ )

هذا وقد استغرق حصار انطاكية حوالي ثمانية أشهر من وصول الصليبيين اليها وحتى ٣ حزيران ١٠٩٨ أى قبل أربعة أيام من وصول كربوغا صاحب الموصل بجيش كبير لنجدها • (٥٤)

### ٣ - التحالف الاسلامي :

ترجع المحاولات الاولى للتحالف الاسلامي الى كانون الثاني سنة ١٠٩٧ أى بعد ان وصل الصليبيون انطاكية بشهر وتسعة أيام • فقد تجتمعت عند شيزر (٥٥) حملة اسلامية لنجدة انطاكية على رأسها دقاق صاحب دمشق ، وجناح الدين حسين بن ملاعب أمير حمص • وقد اصطدم هذا التحالف بقوات صليبية بقيادة بوهيموند كانت تتقدم نحو نهر العاصي فقرروا اعتراضها في موقع يعرف باسم البارة (٥٦) وانتهت المعركة بانزال خسائر فادحة بالقوات المتحالفة فعاد المسلمين الى حماه • (٥٧)

كما جرت محاولة اخرى حيث وجد رضوان صاحب حلب انه لا يستطيع ان يغمض عينيه عن هذه الحوادث • وانه لابد من يهرع لنجدة ياغي سيان لاسيما وأن الاخير قد ارسل ولده شمس الدين برسالة يعتذر فيها عما بدر منه ويطلب النجدة • وبالفعل تحرك رضوان في شباط ١٠٩٨ وانضم اليه سقمان بن أرتق صاحب ديار بكر وأرسلان ناش صاحب سنجار وتقدموا نحو انطاكية ، ولكن الارمن نقلوا تحركات الجيش الاسلامي الى الصليبيين فاستمد هؤلاء وعسكروا بين نهر العاصي وبحيرة العمق (٥٨) فدارت معركة بين الطرفين استبسل فيها سقمان بن أرتق وكانت تتيحها ان تخادل المسلمون وتفرقوا • (٥٩)

أما الصليبيون فقد استولوا على حصن حارم (٦٠) بد أن انسحب منها المسلمون الى حلب • وبسقوط حارم بأيدي الصليبيين أصبحت جبهة انطاكية من جهة حلب آمنة •

وكما فشل دقاق صاحب دمشق في نجدة ياغي سيان فشل رضوان صاحب حلب ايضا ، فكان لابد لياغي سيان من أن يمد بصره الى القوى

المحيطة به لعله يظفر بتحالف اكثر قيمة واهمية • ولكن أين يتوجه ؟ • كان من الطبيعي ان لا يتصل بمصر في هذه الفترة لاسيما وان الوزير الافضل ابن بدر الجمالي كان بعيدا عن ادراك قيمة التحالف الاسلامي والخطر الذي يهدد الامة الاسلامية • ففي الوقت الذي كان السلاجقة في خضم الصراع مع الصليبيين عمل هذا على استغلال ذلك ، وانشغال السلاجقة فأرسل جيوشه الى ناحية الشام ونزل في بيت المقدس مطالبا الامير سقمان والامير ايل غازي ابنا أرتق يلتمس فيهما تسليم بيت المقدس اليه من غير سفك دم ولما (٦١) رفضا طلبه استعد للقتال ونصب المجانيق وهاجم بيت المقدس وتسلمها من سقمان •

لم يكتف ابن بدر الجمالي بذلك بل ارسل وفدا مصريا الى معسكر الصليبيين أمام انطاكية في شباط ١٠٩٨ • وبالفعل دخلت الفاطمية في مفاوضات مع الصليبيين في الوقت الذي كان السلاجقة يشددون الضغط عليهم • (٦٢) والظاهر أن الصليبيين قد تحسسوا بذلك الانقسام « فكتبوا الى صاحب حلب ودمشق باننا ( اى الصليبيين ) لا نقصد غير البلاد التي كانت للروم ، لانطلب سواها » (٦٣) حتى لا يساعدوا صاحب انطاكية • وهنا ادرك ياغي سيان خطورة الموقف فوجه نداء الى بركياروق وتابعه قوام الدين ابو سعيد كربوغا الذي يدرك ببعيرته وحكمته ما يهدد العالم الاسلامي من مخاطر ثم انه كان من ابرز امراء اعالي الجزيرة ، وفوق ذلك ان هذه النجدة قد تتيح له تحقيق طموحه بضم حلب اليه والتي كان يتطلع اليها منذ زمن بعيد • واذا ما استولى كربوغا على انطاكية فسوف يكون من السهل عليه ضم حلب • (٦٤)

تهياً كربوغا للسير في سنة ١٠٩٨ حين ارسله بركياروق على رأس جيش كبير • (٦٥) ولكنه لم يلبث ان توقف في الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع ، فاعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح انطاكية وقد تم لهم ذلك • ولو أن كربوغا انفذ الى انطاكية مباشرة لاسلمه ياغي سيان مدينة انطاكية وتغيرت ظروف المحاصرين • (٦٦)

سمع كربوغا بسقوط انطاكية ، وهو بهم بعبور الفرات • واقام في  
مرج دابق حيث اجتمع بدقاق بن تنش صاحب دمشق وطغتكين التركمانى  
اتابك دمشق وجناح الدولة حسين بن ملاعب صاحب حمص وارسلان تاش  
صاحب سنجار وسقمان بن أرتق وغيرهم من الامراء من ليس مثلهم » على  
حد قول ابن الاثير • « (٦٧)

تحرك الجيش الكبير نحو انطاكية عن طريق نهر العاصى وكان يعلم  
بان قاصتها لازالت بيد المسلمين ، واقترب من انطاكية وشدد الحصار عليها  
ومنع عنها الطريق برا وبحرا • (٦٨) وقد تغير موقف الصليبيين ، فبعد ايام من  
دخول المدينة وجدوا انفسهم محاصرين من قبل قوات كربوغا (٦٩) التي  
عسكرت في السهل الممتد جنوبى انطاكية عند باب البحر • (٧٠) وبعد  
مناقشة بين كربوغا وشمس الدين بن ياغى سيان حول تسليم القلعة أرسل  
كربوغا قائدا من قواده هو احمد بن مزوان لتسلم القلعة •

أما الصليبيون فقد تعرضوا داخل انطاكية لازمة قاسية ، اذا اخذ  
اليأس يدب الى نفوسهم ، بسبب قلة الغذاء « فليس لهم ما يأكلونه • •  
وتقوت الاقوياء بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » • (٧١) واصبح  
من المحتمل جدا ان يعم الوباء المدينة • أضف الى ذلك ، ان السكان  
المسيحيين انفسهم فقدوا الثقة بقدرة الصليبيين على تحصين المدينة والاحتفاظ  
بها ، خاصة وان قلعة المدينة كانت لا تزال بيد المسلمين • (٧٢) ولم يكن  
ثمة أمل سوى وصول الامبراطور البيزنطى الكسيوس كوفين ، حيث كانوا  
قد أرسلوا اليه نداء لنجدهم ، فخرج الامبراطور المذكور على رأس جيش  
قاصدا انطاكية عبر اسيا الصغرى ، ولكن الامور لم تكن تجري لصالح  
الصليبيين — على ما يبدو — فقد التقى الامبراطور بـ « اتين دى بلوا »  
وجماعته فاخبروه بان انطاكية قد استردت من قبل المسلمين وان جيشا  
اسلاميا كبيرا في طريقة للقضاء على قوات الامبراطور البيزنطى قبل  
وصولها • ومع انه — اى الامبراطور — تلقى الخبر بحذر ويأس ، وقرر

الانسحاب على اعتبار انه كانت انطاكية قد سقطت فمن حماقة التقدم اكثر في ارض الاعداء ، وانه من الخير له ولامبراطوريته ان ينسحب تجنباً للمخاطر ، فقد بدأ باستشارة كبار قادة جيشه ، فنصحوه بالتراجع ايضا . ومع ان انسحاب الكسيوس كومنين ، كان من الوجهة الاستراتيجية ، اجراء حكيماً ، الا انه كان من الناحية السياسية خطأ فظيلاً فت عضد الصليبيين ، الذين وضعوا اللوم على « دي بلوا » باعتباره يتحمل مسؤولية كبيرة ازاء اخوانه المحاصرين الذين ضعفت معنوياتهم ، (٧٣) وبلغوا درجة من اليأس ، اضطررتهم الى ارسال وفد الى كربوغا ( يطلبون منه الامان ليخرجوا » (٧٤) وكان الوفد المذكور يضم رجلين هما بطرس الناسك وآخر اسمه هيرليون ، وهو شخص فرنسى يحسن العربية والفارسية . ولكن الوفد المذكور عاد خالي الوفاش بعد ان رفض كربوغا طلبهم (٧٥) وقال لهم « لاتخرجون الا بالسيف » . (٧٦)

ازدادت حالة الصليبيين سوءاً . وخارت قواهم ، وضعفت معنوياتهم وسيطرت عليهم حالة من اليأس والكآبة ، ولعل هذه الحالة النفسية هي وراء اختلاق بوهموند « قصة التجربة المقدسة » . وتتميز ذلك أن رجلاً اسمه بطرس بورثلسيو ادعى انه شاهد في الحلم مكان الحربة التي ملعن بها السيد المسيح في الكاتدرائية ، (٧٧) ولا شك في ان مثل هذه الاسطورة وغيرها من التي انتشرت بين الصليبيين كان لها اثر كبير في رفع معنوياتهم والتفافهم حول زعاماتهم . كما جاءت عاملاً حاسماً في القضاء على روح اليأس الذي وجد طريقه اليهم . وبالتالي كانت سبباً في احرازهم النصر . (٧٨) وكان لبوهيموند دور كبير في نشر خبر الحربة المقدسة ، وعلى الرغم من ان « ادهمار » المندوب البابوى وبعض الامراء شككوا بالقصة المذكورة . الا انهم سرعان ما اكتشفوا الحربة المقدسة (٧٩) فارتفعت معنوياتهم ودفعوا في صفوف متراصة وتقدمهم « هيم دى فرماندو » و « روبرت النورماندى » و « كودفرى » ورجال بروفانس يتقدمهم ادهمار حاملاً الحربة . ثم تنكرد وبوهيموند . اما ريموند فقد ظل في الداخل ليراقب الحصن . (٨٠)

بدأ الصليبيون بالخروج وكربوغا لم يصدر لقواته امرا بالهجوم عليهم وهنا اشار « وثاب بن محمود » بأن يبادر بالهجوم ، في حين قال بعض الأمراء ينبغي ان تقف على الباب فنقتل كل من يخرج فان امرهم الان وهم متفرقون سهل • (٨١) ولكن كربوغا امرهم بعدم المبادرة بهجوم وقال لاتفعلوا ، امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » • (٨٢) وقد حاول بعض الجنود قتل جماعة من الخارجين الا ان كربوغا نهرهم •

تكامل خروج الصليبيين ، واحتشدوا في صف عظيم ، فتردد كربوغا أزاءهم • وقد ذكرت بعض المصادر المسيحية انه بعث اليهم رسولا يعرض عليهم انه على استعداد لبحث شروط الهدنة لكنهم تجاهلوه ، فلجأ الى الانسحاب الى ارض وعرة بعيدة ، (٨٣) على أمل ان ينقض عليهم هناك ، ولكن الهزيمة سرعان ما لحقت بالجيش الاسلامي وكان آخر من انهزم سقمان بن ارتق وجناح الدولة • (٨٤) وعندما وجد كربوغا ذلك انهزم هو أيضا ، واعتقد الصليبيون ان في الأمر مكيدة ، فلحق به فرسان النورمان الذين انقضوا على الاموال والاقوات والامتعة • (٨٥) وذكر ابن الاثير بان جماعة من المجاهدين ثبتوا وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة •

لقد ابدى الصليبيون وحشية كبيرة • فقتلوا الآلاف من المسلمين وغنموا ما في المعسكر ، وهكذا لم يستطع كربوغا - في الحقيقة - لا أن يوجد جيشه ، ولا ان يجنب النساء والاطفال المذبحة ، ولا حتى خيمته من النهب (٨٧) • كانت هزيمة كربوغا في ٢٨ حزيران سنة ١٠٩٨ • (٨٨) اما قلعة انطاكية فقد استسلمت بعد ان راسل الصليبيون احمد بن مروان وأمنوه ومن كان معه واطلقوا اصحابه ، فخرج الارمن وقتلوا بعضهم واخذوا بعضهم ولم يسلم منهم الا القليل •

#### ٤ - نظرة في اسباب الهزيمة :

لنتساءل عن اسباب هزيمة كربوغا ، التي لم تكن عسكرية وحسب بل تداخلت جملة عوامل كان لها اثر كبير في توجيه الاحداث نحو المصير

الذى آلت اليه • بإمكاننا القول أن حملة كربوغا كانت تحمل منذ البدء جذور انهزامها وتقهقرها • ونجمل هذه الاسباب بما يأتي :

اولا - عدم زحف كربوغا الى انطاكية مباشرة : اذا أردنا أن نلقي نظرة على جيش كربوغا ، الزاحف نحو انطاكية تبين لنا انه وصل في ٧ حزيران • علما بأنه كان قد خرج قبل ذلك بثلاثة اسابيع ، وهي التي قضاهما في -صار الرها (٩٠) منا اعطى لاعدائه فرصة الاستعداد والتأهب لملاقاته • ويقول كراي ان بلدوين امير الرها كان له فضل كبير على الصليبيين حيث أعاق كربوغا مدة ثلاثة اسابيع (٩١) ويعلل رونسيومان استراتيجية كربوغا ان كربوغا كان يقصد حماية جناحه الايمن ، ولكنه - اى كربوغا - لم يدرك ان بلدوين كان ضعيفا الى الحد الذى لا يستطيع فيه القيام بالهجوم (٩٢) • ومهما يكن من أمر فقد اضاع كربوغا هذه الاسابيع سدى •

ثانيا - الحوار الذى جرى بين كربوغا وابن ياغي سيان حول القلعة : ان هذا النقاش يدل دلالة واضحة على عدم وجود الثقة بين الاثنين • فقد أصر كربوغا على تسلم القلعة على اساس أن تكون خط دفاع ينسحب اليه المسلمون ، ولكن شمس الدين بن ياغي سيان فضل ان يحتفظ بالقلعة ريشا يتم احراز النصر • ومع ان كربوغا حسم الموقف بأن أرسل من يستولى على القلعة الا ان هذا الجدل كان له أثر كبير في اضعاف معنوية المسلمين من جهة وتضييعهم الوقت من جهة أخرى •

ثالثا - ارتفاع معنوية الصليبيين بعد عثورهم على الحربة المقدسة : عندما ساءت حالة الصليبيين داخل انطاكية ، وأفراط الجوع فيهم واضطر بعضهم الى اكل الميتة ، (٩٥) وانهارت قواهم • ادركوا انه لا بد من حدوث معجزة • وتحت وطأة هذا الشعور شاعت بعض القصص عن الحربة المقدسة ، وكيف ان الله ادركهم ، ووجه اليهم رجلا قرويا اسمه بورثلميو ، والذى ذهب الى ريموند واخبره بقصة الحربة التى كان المسيح قد طعن بها (٩٦) ،



وانها مدفونة بكنيسة « القسيان » في الكاتدرائية وانهم ان وجدوها فان النصر سيكون حليفهم والا فانهم مقبلون على الهلاك . وبعد ثلاثة ايام من الصوم اتجهوا الى الموضع المذكور ، وبالفعل وجدوا الحربة فأبشروا بالنصر . ومهما يكن من أمر ، فان هذه القصة كانت عاملا مهما في رفع معنويات الصليبيين فتعلقوا بحدث ألهى ألهب حماسهم ووضعهم تحت حالة من الحماس الجمعى ، جعلهم يتدفقون الى خارج المدينة بكل قوة ونشاط الامر الذى كان له أثر في نصرهم .

رابعا - عدم تجانس جيش كربوغا : لقد كان عدم التجانس هذا الصفة التى ميزت جيش كربوغا . فقد تنازعت الخلفاء بين الامراء العرب والترك . (٩٨) فأيد حمص على عداء مع امير فيح يوسف بن آبق . كما تفرق كثير من التركمان بتدبير رضوان ، (٩٩) على ما يبدو . وقد احس كربوغا بذلك فعمد الى الاتصال برضوان صاحب حلب . وعندما « ترادفت رسل الملك رضوان في اثناء ذلك الى كربوغا توهم دقاق من ذلك » . وهكذا كان النزاع مخيما على جيش كربوغا . ومع أن هارولد لامب يذكر بان هؤلاء الامراء ، على الرغم من تنازعهم مستقلين لسنوات بعيدة ، الا ان السبب العام الذى جمعهم هو دفاعهم عن الاسلام ، فان روح النهب والسلب والحصول على الغنائم كانت تسيطر على بعض قطاعات جيش كربوغا وبخاصة عرب بنى كلاب . (١٠١) لذلك بقوا يعانون خلافا في صفوفهم كان له اثره في هزيمتهم . (١٠٢)

خامسا - عدم وجود خطة عسكرية واضحة في ذهن كربوغا : من خلال هذا الاستعراض للاحداث يظهر لنا ان كربوغا كان لا يملك خطة عسكرية يستطيع بموجبها قيادة جيشة . ولعل ابرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبته في توجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون من انطاكية . (١٠٣) لربما خشى اذا اسرع بضربهم فسوف لا يقضى الا على مقدمتهم . (١٠٤) وهنا ارتكب خطأ عسكريا حيث ان الهجوم في بعض الحالات افضل وسيلة

الدفاع . وما أن شاهد كربوغا تراص الصليبيين حتى أصيب بالنصر  
ولجأ الى الارتداد واستدراج العدو الى ارض مكشوفة ،  
وابلغ احد قواته بأن يعلن الانسحاب حالما يرى النار حيث انها ستكون  
اشارة الى ان المعركة قد اصبحت ليست من صالحهم . ( ٢٠٥ ) ولكن  
الصليبيين شددوا هجماتهم ، وتم لهم النصر .

سادسا — معاملة كربوغا لمعينته من الامراء : لقد ذكر بعض المؤرخين  
ان سوء معاملة كربوغا لمن معه من الملوك والامراء كانت سببا من اسباب  
هزيمته . فقد شعر بنوع من الاستعلاء على هؤلاء « وتكبر عليهم ظنا منه  
انهم يقيمون معه على هذا الحال » . ( ١٠٦ ) « فخبثت نياتهم » . ( ١٠٧ )  
وقد ساهم ملوك كربوغا هذا وغطرسته في السير نحو الكارثة . ( ١٠٨ )  
علما بانه ليس من بين هؤلاء الزعماء من كان يستسيغ ان يكون تحت امرة  
كربوغا الذى ليس الا اميرا مثلهم . ( ١٠٩ ) هذا وقد يكون للجو الذى  
خيم على المعسكر الاسلامى اثر في اقدام كربوغا على مثل هاتيك المواقف  
حيث بلغ النزاع والمنافرة بين الزعماء اشده ، فشرع كربوغا بان جيشه  
سيتمزق ، فاراد ان يحفظ النظام باستخدام سلطة مستبدة . ( ١١٠ )

٥ — خاتمة :

وبعد ، لا بد أن نقول بان كربوغا قد ادى دوره في الدفاع عن العالم  
الاسلامى ، مدركا ما يتعرض له هذا العالم حينذاك من اخطار متشعبة بالعدوان  
الصليبي . وقد فتح الباب بذلك امام عماد الدين زنكي ونور الدين محمود  
ليكملا المسيرة من بعده . وتتجسد امامنا هذه الحقيقة اذا ما علمنا بان عماد  
الدين — بالذات — قد عاش في كتف كربوغا بعد مقتل والده ، حيث  
تعهد ، ( ١١١ ) . وقد يكون عماد الدين قد تحسس الخطر الصليبي خلال  
ملازمته لكربوغا .

لقد توجه كربوغا ، بعد الهزيمة ، الى الموصل ، حيث ساهم مرة اخرى  
في الصراعات الاسرية التى نشبت بين بركياروق ومحمد . وفي سنة ١١٠٠

أرسله السلطان بركياروق الى اذربيجان فاستولى على معظمها • ( ١١٢ )  
وعندما وصل الى مدينة خوى ( ١١٣ ) سقط مريضا • وبعد ثلاثة عشر  
يوما توفي في منتصف ذى القعدة سنة ٤٩٥ هـ ( ١١٠١ م ) في بلدة خوى  
نفسها حيث دفن هناك • ( ١١٤ )

أما الموصل فقد تولاه من بعده موسى التركماني وهو نائب كربوغا  
في حصن كيفا الذي كاتبه الموصليون بعد سماعهم نبأ وفاة الامير قوام  
الدولة ابو سعيد كربوغا • ( ١١٥ ) •



## الهوامش

- ( ١ ) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ، ج ٤ ، ص ٨١٩
- ( ٢ ) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢١٠
- ( ٣ ) ابن القلانيس ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٧ .
- ( ٤ ) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١١ .
- ( ٥ ) المصدر نفسه ، ص ١١
- ( ٦ ) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٢١
- ( ٧ ) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣ .
- ( ٨ ) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٠٨
- ( ٩ ) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٣ ، ص ١٠
- ( ١٠ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٩
- ( ١١ ) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ١ ، ص ١٢٣
- ( ١٢ ) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٨
- ( ١٣ ) ابن القلانيس ، المصدر السابق ، ص ١٣ .
- ( ١٤ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ .
- ( ١٥ ) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٨ .
- ( ١٦ ) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٢٥٩ .
- ( ١٧ ) ابو الفداء ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٣
- ( ١٨ ) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٨
- ( ١٩ ) حسن حبش ، الحرب الصليبية الاولى ، ص ٤٨
- ( ٢٠ ) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٩١
- ( ٢١ ) المعرة : مدينة كبيرة قديمة مشهورة من اعمال حمص بين حلب وحماء .
- ( ٢٢ ) ارتاح : اسم حصن منيع من اعمال حلب .
- ( ٢٣ ) ويسمى لذلك نهر حماه . وقد سمي بالعاصي لان غالب الانهر تسقى الارض بغير دواليب ونواير . ماعدا نهر حماه لايسقى الا بنواعير تنزع

الماء منه . ويسمى ايضا النهر المعكوب لحرية من الجنوب الى الشمال  
واسمه القديم نهر الاورنت ( الاورنط ) انظر : ابي العباس احمد بن علي  
القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج ٤ ، ص ٨٠ .

( ٢٤ ) الجسر الحديد : يقع في الشمال الشرقي من انطاكية على مسافة نصف  
يوم سيرا على الاقدام بين حارم وانطاكية .

( ٢٥ ) المؤرخ المجهول ، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د. حسن  
حبشي ، عن اللاتينية وسنشير اليه ب « اعمال الفرنجة فقط » .

( ٢٦ ) رونسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

( ٢٧ ) انطاكية : بناها الملك انطيفونيا على نهر اورنطس وسماها على اسمه  
انطيفونيا . وقد وصفها المؤرخ المجهول ( ص ١٠٣ ) بانها مدينة رائعة  
عظيمة . اذ يوجد داخل اسوارها اربعة جبال ضخمة ويقوم على  
اعظمها ارتفاعا حصن حصين . وعلى السفح تمتد المدينة وهي محاطة  
بسورين وفيه ( ٤٥٠ ) برجاً .

Oldenbourg., The Crusades, P. 106. ( ٢٨ )

( ٢٩ ) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤

( ٣٠ ) اعمال الفرنجة ، ص ٥٠

( ٣١ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢

( ٣٢ ) اعمال الفرنجة ، ص ٥٥

( ٣٣ ) المصدر نفسه ، ص ٥٥

Mayer, H. E., The Crusades, P. 71 ( ٣٤ )

Ibid., P. 71 ( ٣٥ )

( ٣٦ ) اعمال الفرنجة ، ص ٥٦

( ٣٧ ) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٠٩

( ٣٨ ) اختلفت المصادر العربية في رسم اسم فيروز هذا فهو عند ابن الاثير في  
الكامل ج ١٠ ص ٢٧٤ « روزبة » وعند ابن القلانص ص ١٣٦ « فيروز »  
وعند ابن العديم وعند ابن العديم « فيروز » . ولم يذكر ابن الاثير  
ولا ابن العديم جنسه وذكر ابن القلانص انه « ارمنى » اما المؤرخ  
المجهول فيذكر انه « تركي » وذكر الدويهي في تاريخ الازمنة ص ٨  
« قيل انه كان نصرانيا » .

- ( ٣٩ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ٤٩٨
- ( ٤٠ ) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٤
- ( ٤١ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٢٣
- ( ٤٢ ) الدويهى ، تاريخ الازمنة ، ص ٨
- ( ٤٣ ) اعمال الفرنجة ، ص ٦٦
- ( ٤٤ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٣
- ( ٤٥ ) الدويهى ، المصدر السابق ، ص ٨
- ( ٤٦ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٤
- ( ٤٧ ) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٥٥ .
- ( ٤٨ ) ارمناز ، قرية من ناحية انطاكية بالشام . انظر الحموى : معجم البلدان  
ن ج ١ ص ١٥٧ .
- ( ٤٩ ) ابن القلانيس ، المصدر السابق ، ص ١٣٥
- ( ٥٠ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٥
- ( ٥١ ) عم : قرية بين حلب وانطاكية . انظر الحموى ، المصدر السابق .  
ج ١ ص ١٥٧
- ( ٥٢ ) انب : حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب . انظر : الحموى : المصدر  
السابق ، ج ١ ، ص ١٤٠
- ( ٥٣ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٥
- ( ٥٤ ) Atiya, Crusade, Commerce and Culture, P. 61.
- ( ٥٥ ) شيزر : قلعة تشتمل على كوره بالشام قرب المعره ، بينها وبين حماه  
يوم : انظر : الحموى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .
- ( ٥٦ ) البارة ، بليدة وكوره من نواحي حلب وبها حصن . انظر الحموى :  
المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .
- ( ٥٧ ) رونسيمان ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
- ( ٥٨ ) بحيرة العمق او بحيرة عذبه المياه بينها وبين انطاكيه ثلاثة اميال فى موقع  
يقال له « العمق » انظر : الحموى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥١
- ( ٥٩ ) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٤٦٤

» (٦٠) حارم : حصن حصين وكوره تجاه انطاكية : انظر : الحموى ، المصدر السابق ح ٢ ، ص ٢٠٥

(٦١) ابن القلانيس ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٦٢) Krey, The first Crusade, P. 164.

(٦٣) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٤

(٦٤) رونسيومان : المصدر السابق ، ص ٣٠٥

(٦٥) The Encyclopadia of Islam ,,Art "Kurbouka," P. 1129.

(٦٦) اعمال الفرنجة ، ص ٧١

(٦٧) ابن الاثير ، الكامل ، ح ١٠ ، ص ٢٧٦

(٦٨) الدويهى ، المصدر السابق ، ص ٨

(٦٩) Brundage, op. cit., p. 57

(٧٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦

(٧١) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٦

(٧٢) Brundage, op. Cit., P. 57

(٧٣) Setton, A history of Crusades, P. 320.

(٧٤) ابن الاثير ، الكامل ، ح ١٠ ، ص ٢٧٧ وكذلك ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٦

(٧٥) Stton, or Cit. 320

(٧٦) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٧

(٧٧) Kerr, The Crusades, P. 25.

(٧٨) Krey, op. Cit., p. 163.

(٧٩) Brundage, op. cit., p. 61

(٨٠) Archer, The Crusades, P. 74.

(٨١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٢) المصدر نفسه ، ح ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٣) Archer, op. cit., p.75

(٨٤) ابن الاثير ، الكامل ، ح ١٠ ، ص ٢٧٧

Camp, The Crusades: Iron men and Saints. P. 167. ( ٨٥ )

( ٨٦ ) ابن الاثير ، الكامل ، ح ١٠ ، ص ٢٧٧

Mills, The history of the Cruasde for the recovery and possess ( ٨٧ )  
ion of the Holy P. 213

( ٨٨ ) ويذكر الدويهي في تاريخ الازمنة ان الهزيمة وقعت في ١٨ حزيران سنة  
١٠٩٨

( ٨٩ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ١٣٦ .

( ٩٠ ) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام .

Krey, op. Cit., P. 103. ( ٩١ )

( ٩٢ ) رونسييمان ، المصدر السابق ، ص ٣٢٨

( ٩٣ ) اعمال الفرنجة ، ص ٧٢

( ٩٤ ) لربما ان احمد بن مروان كان على صلة بالصلبيين ، خاصة وانهم قد  
اعطوه الامان واستخدموه فيما بعد ، اذ دخل في خدمتهم .

Mayer, op. cit., P. 55 ( ٩٥ )

Brundage, op. Cit., P. 57 ( ٩٦ )

( ٩٧ ) ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ١٩٦

Keed, op Cit., P. 25 ( ٩٨ )

( ٩٩ ) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦

Seteon, op. Cit., P. 322. ( ١٠٠ )

Comp. op. Cit., P. 163 ( ١٠١ )

( ١٠٢ ) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ح ١ ، ص ٢٠٩

( ١٠٣ ) اشار بعض الامراء ومنهم وثاب بن محمود على كربوغا بوجوب ضرب  
الصلبيين اولا فاول فرد عليهم كربوغا بان « امهلوهم حتى يتكامل  
خروجهم فنقتلهم » انظر : ابن الاثير ، الكامل ، ح ١ ، ص ٢٧٧ وكذلك  
ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

( ١٠٤ ) رونسييمان ، المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٣٥٠

Archer. op. Cit., p. 75 ( ١٠٥ )

( ١٠٦ ) ابن الاثير ، الكامل ، ح ١ ، ص ٢٧٧



- ( ١٠٧ ) أبو الفداء ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٥
- ( ١٠٨ ) the Encyclopedia of Islam - vol. II, P. 29
- ( ١٠٩ ) Setion, op. Cit., 322,
- ( ١١٠ ) روتسيما ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .
- ( ١١١ ) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ٢٧ .
- ( ١١٢ ) ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٦١
- ( ١١٣ ) خوى : بلد مشهور من أعمال اذربيجان .
- ( ١١٤ ) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٤١
- ( ١١٥ ) العمرى ، منهل الأولياء ومشرّب الاصفياء من سادات الموصل الحدياء ، ورقة ٢٩ .



## المصادر والمراجع

- ابن الاثير الجزرى ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم الملقب عز الدين  
( ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٤ )
- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية في الموصل ، تحقيق الدكتور احمد  
طليمات ، ( القاهرة ، ١٩٦٣ )
- الكامل في التاريخ ، ح ١٠ ، ( طبعة بيروت ١٩٦٦ ) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب  
والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، المجلد الخامس  
( بيروت لا . ت ) .
- ابن العبري ، غريغورس ابو الفرح الملطي ( ت ١٢٨٦ )
- تاريخ مختصر الدول ، ( بيروت ، ١٩٥٨ )
- ابن العديم ، كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله  
( ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م )
- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق د . سامي الدهان ، ح ٢ ،  
( دمشق ، ١٩٥٤ ) .
- ابن الفوطى ( ت ٧٢٣ هـ ) ، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ،  
ح ٤ ، حققه د . مصطفى جواد ، ( دمشق ، ١٩٦٧ ) .
- ابن القلائس ( ت ٥٥٥ هـ ، ١١٦٠ م ) ابو يعلى حمزة بن اسد بن علي  
بن محمد : ذيل تاريخ دمشق ، ( بيروت ، ١٩٠٨ )
- ابن كثير الفرش ( ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م ) عماد الدين ابو الفداء بن  
كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ح ١٢ ، ( القاهرة ، ١٣٥٨ هـ )
- ابو شامة ( ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ ) عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان :  
الروضتين في خبر الدولتين : ح ١ ، ( القاهرة ، ١٢٨٧ هـ ) .
- ابو الفداء ( ت ٧٣٢ هـ / ١٢٣١ م ) عماد الدين ابو الفداء اسماعيل :  
المختصر في اخبار البشر ، ح ١ ، ( بيروت ، لا . ت ) .

الحموى ، ياقوت ( ت ٦٢٦ هـ ) ، معجم البلدان ، ح ١ ، ح ٢ ،  
( بيروت ١٩٥٥ ) .

الدهبي ( ت ١٧٠٤ م ) ، البطريك اسطفانوس الدويهي :  
تاريخ الازمنة : نشرته مجلة المشرق ، السنة ٤٤ ، بيروت ١٩٥١ .  
الذهبي : ( ت ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م ) الحافظ الذهبي  
العبر في خبر من غير ، ح ٣ ، تحقيق فؤاد سيد ، ( الكويت - ١٩٦١ ) .  
العمري ، ( ت ١٢٣٢ هـ ) ياسين بن خير الله الخطيب ،  
منهل الاولياء ومثرب الاصفياء في سادات الموصل الحدياء . مخطوطة  
في المتحف العراقي ببغداد تحت رقم ١٥٦٤ .

القلقشندي ( ت ٨٢١ هـ ١٤١٨ م ) ، ابي العباس احمد بن علي :  
صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ح ٤ ، ( القاهرة ، ١٩٦٣ ) .  
المؤرخ المجهول ( كان حيا سنة ١٠٩٥ م )  
اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د . حسن حبش ،  
( القاهرة ، ١٩٥٨ ) .

رونسيومان ، ستيفي ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د . السيد  
الباز العريني ، ح ١ ، ( بيروت ، ١٩٦٧ ) .  
عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية ، صفحة مشرفة من تاريخ  
الجهاد العربي في العصور الوسطى ، ح ١ ، ( القاهرة ، ١٩٦٣ ) .  
يوسف ، حوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية  
الاولى ( القاهرة ، ١٩٦٣ )

Atiya, A.S., Cr sade, Commerce and Culture, (Bloomington, 1962).  
Archer, T.A., The Crusades, The story of Nation (London, s1894).  
Barker, E., The Crusades, The Crusades, (London, 1949).  
Brundage, J.A., The Crusades, (Wiscon-Sin, 1962).  
Krey, A.C., The first Crusade, (Princeton, 1958).  
Kerr, J.C., The Crusades, (London, 1760).  
Lamp, H., The Crusades, Iron men and saints, (London, 1935).  
Mills, C., The history of the Crusades for the Recovery and possession of  
the Holy land, Vol, L, (London, 1820).  
Mary, H.E. The Crusades, Tr, by John gillinghem, (Oxford, 1972).  
Oldenbonrg.z., The Crusades, Tr by F.A. Carter, (New York, 1965).  
Setton, K.M. (ed) A History of the Crusades, (Philadelphia, 1955).  
The Encyclopadia of Islam, Vol, II, Art (Kurbuka) London, 1921.



## اللقاء الحضارى فى الأندلس

دكتور عبد العزيز الأهوانى  
مصر

كل من يدرس تاريخ الحضارة فى العصر الوسيط يعرف ويسلم بأن  
الاندلس كانت موطنًا للقاء طويل بين حضارتين حضارة اسلامية عربية مشرقية  
من جانب ، وحضارة مسيحية لاتينية اوربية من جانب آخر . ويسلمون ان  
هذا اللقاء كانت له آثاره التى يمكن رصدها فى حياة اسبانيا المسيحية حتى  
العصر الحاضر وفى حياة اوربا الغربية فى آخر القرون الوسطى وفى عصر  
النهضة . وقد كتب الباحثون الاسبان فى تأثر أسبانيا بالحضارة الاسلامية  
كتبًا وابحاثًا عديدة، لعل اشهرها لقرب العهد بهولما آثاره من نقاش ومعارضة  
ماكتبه العالم الاسبانى Américo Castro (١) فى هذا السبيل . وكذلك  
كتب الباحثون الاوربيون عن تأثير الحضارة الاسلامية فى الغرب الاوربى  
وسجلوا ما ترجم الى اللاتينية من مؤلفات عربية وما دخل عن طريق اسبانيا  
العربية الى ذلك الغرب من آثار فى فروع العلم المختلفة وفى نظم الحياة  
المادية والاجتماعية والفنية . ويعتبر كتاب السيدة الالمانية Sigrid Hunpse  
( شمس الله على الغرب ) (٢) من الكتب الحديثة فى هذا المجال ويمتاز  
بالشول وان لم يلتزم فيه المنهج الاكاديمى الدقيق . وآخر ما صدر محاضرات  
لمنتجمرى وات عن الموضوع .

ولكن القضية التى لم تكد تطرق هو قضية التأثير العكسى ، أى تأثير  
الحضارة المسيحية اللاتينية فى الاندلس العربية .

افرد ابن خلدون فصلا قصيرا في مقدمته بعنوان « فصل في ان المغلوب مولع ابدا بالاقْتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده » وكان ابن خلدون قد زار غرناطة وعاش فيها فترة قبل تأليف المقدمة . فاتخذ من الاندلس مثالا تطبيقيا لهذا المبدأ الذي ذكره فقال : « حتى انه اذا كانت امة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا التشبيه والاقْتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العنصر مع اهم الجلالة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء والامر لله » ص ١٤٠ طبعة بولاق ١٣٢٠ هـ .

ولا يهمننا في هذا المجال بحث اسباب الاقْتداء والتشبه وتفسير ابن خلدون لهما ، وانما يهمننا ما سجله ابن خلدون من مشاهدته لتأثير المجتمع الاسباني المسيحي في المجتمع الاسلامي الاندلسي ، ثم لنسأل هل اقتصر على الجانب المادي والاجتماعي من الحياة ام شمل جوانب أخرى عقلية وروحية ؟ ذلك هو الموضوع الذي لم يجد بعد ما يستحقه من عناية المؤرخين والباحثين حقا . لقد كانت الحضارة العربية في الاندلس اكثر ازدهارا وتقدما من الحضارة اللاتينية في كثير من الجوانب ، وذلك يفضي بطبيعة الحال الى ان يكون العطاء من الطرف الاكثر تفوقا وان يكون الاستقبال ممن هو دونه .

ومع ذلك فان الظروف التاريخية للحضارة العربية في الاندلس كانت تتيح اتصالا وثيقا لا بد ان تكون له بعض النتائج في الحضارة الاندلسية ذاتها . منها أن المنطقة الاسلامية من اسبانيا كانت تشتمل على جماعات ضخمة من المسيحيين يعيشون داخل المجتمع الاسلامي حيث يمارسون شعائريهم الدينية ، ويحتفلون باعيادهم ومواسمهم ، ويحتفظون بتقاليدهم الشعبية ، ويقيمون علاقاتهم الاجتماعية حسب اعرافهم القديمة — ومنها أن

اللغات الاعجمية ظلت حية داخل المنطقة العربية ، وإن كثيرا من العرب ومن المسلمين المستعربين كانوا يعرفون الاعجمية ويتكلمون بها في حياتهم اليومية بجانب اللهجات العامية العربية . ومنها ان الاندلس العربية كان يعيش فيها عدد من علماء المسيحية الذين يعرفون اللاتينية ويتدارسونها ويعتبرون أنفسهم حملة لهذه الثقافة اللاتينية . ولم يكن الجدل الدينى لينقطع بين العلماء من اهل الملتين . الى ظروف اخرى لعل اهمها ان الحدود بين المنطقتين العربية واللاتينية لم تكن ثابتة ، وانما ظلت متأرجحة ، بحيث يفاجأ كثير من سكان الدولتين الاسلامية والمسيحية بتغير تبعيتهم السياسية نتيجة الحروب والتوسع او التقلص في حدود الدولتين . ومن هذه الظروف ايضا اعتماد اهل الدولتين الاسلامية والمسيحية على مناصرة اخوانهم في الدين ممن هم خارج حدود اسبانيا ، فاعتمد المسلمون على المغاربة واعتمد المسيحيون على دول العالم المسيحي في اوربا الغربية فكان يتدفق على كلا الجانبين انصارهما من الجنوب والشمال طلبا للجهاد او التماسا للمغانم .

وقد كان لهذا كله آثاره الواضحة في الحياة السياسية في الاندلس ، وفي انواع الفتن والثورات التي قامت . وفي النظم الادارية وفي الحياة الاقتصادية .

ومع ذلك فان المؤرخين السياسيين لاسبانيا خلال العصر الوسيط لا يكادون يبرزون في وضوح اثار هذه الظروف وابعاد هذا اللقاء او الصراع في كتاباتهم التاريخية والاقتصادية ، فضلا عن الاجتماعية والثقافية ، وهم - اميل الى ان يعالجوا قضايا التاريخ السياسى في كل منطقة على حدة ، منفصلا عن مشاكل المنطقة الثانية ، ويتناولوا الغزوات والمعارك الحربية بين الطرفين في اطار العلاقات الخارجية بين الدول اكثر من تناولهم لها باعتبارها جزءا من التكوين الداخلى للمجتمعين المتحاربين . وكذلك نجد العناية بالجانب الاقتصادى من حيث تأثيره المباشر بهذا اللقاء الحضارى ، ضيق النطاق محدود الابعاد .

وإذا عدنا الى القضية الاولى وهى تأثير الاندلس الاسلامية حضاريا  
بأسبانيا المسيحية وجدنا ان مجال الدراسة كان ولا يزال شديد الضيق .  
ولا أعرف لاحد جهدا كبيرا في هذا السبيل الا جهد المستشرق الاسبانى  
سيمونت . • Simonet. في الجانب اللغوى . فانه في كتابه او معجمه عن  
الالفاظ اللاتينية الاصل الذى استخدمها المستعربون (٣) يقدم احصاء  
لتلك الالفاظ كما وردت في المؤلفات العربية . وقد اضيف الى هذا الجهد  
جهد آخر للمستشرق الهولندى دوزى في تكملة للهجات العربية ، كما  
اضاف كاتب هذه السطور الى القائمة ما استخدمه من كتاب ابن هشام  
اللخمى عن لحن العامة . كانت هنالك اضافة اخرى صدرت عن  
اكتشاف الخرجات الاعجمية وعن دراسة ديوان ابن قرمان واسهم فيها  
كثيرون وعلى رأسهم المستشرق الاسبانى جاريثا جومث ، كما كان لكاتب  
هذه السطور جهد في ذلك .

فاذا تجاوزنا الجانب اللغوى ، أو جانب المفردات اللغوية بعبارة ادق  
فان دراسة اساليب التعبير اللغوى لم تدخل في نطاق هذه الجهود - الى  
جوانب اخرى وجدنا جهد الاستاذ جاريثا جومث في مجال الاوزان الخاصة  
بالموشحات والازجال ومحاولته اثبات ان هذه الاوزان تأثرت باوزان  
اسبانية قديمة ، وانها تسير على غير النمط العربى الكمى ، بل على عدد  
المقاطع ومواضع النبر .

وليس من شك في أن هنالك صعوبات موضوعية وعقبات تحويل  
دون اكتشاف تأثير الحضارة الاسبانية في الحضارة العربية ، اهمها في  
نظرنا ضياع كثير من النصوص وخاصة النصوص النثرية التى تتصل  
بالاداب شبه العامية من قصص واساطير ، وخلو المكتبة الاندلسية من  
مؤلفات تصف الحياة اليومية للناس وتتحدث عن عاداتهم وتقاليدهم وانماط  
معيشتهم . فمن المعروف ان المثقفين القدامى كانوا يحتقرون هذه الانواع  
الادبية غير الكلاسيكية . فلما قرأنا ديوان ابن قرمان وجدنا فيه ما يدل



مثلا على احتفال الاندلسيين برأس السنة الميلادية ( ينير ) ، وما يدل على الاحتفال بزمان العصور بما يشبه ما يعرف في اوربا باسم Vendimia

وسبب آخر اقرب لان يكون سببا نفسيا لدى الباحثين العرب المحدثين فانهم - فيما يبدو - يعتقدون ان القول بتأثر الحضارة الاسلامية العربية بالحضارة المسيحية اللاتينية مما ينقص من قدر ثقافتنا القومية، وهم اميل لان يجعلوا تطورها وما يستحدث فيها صادر من داخلها أو من ذاتها، لا من تأثير اجنبى وافد عليها من الخارج . ولاأرى داعيا لهذا التحرج . ولا أجد ان الاخذ عن الاجنبى ينتقص من شأن الاخذين مادامت الحضارة الآخذة لا تفقد شخصيتها ولا تقع في التقليد الاعمى .

وبناء على هذا أرى انه مما يفيدنا علميا لاستكشاف تطورنا الحضارى . ورصد دقائقه فى الاندلس وغيرها من مواطن اللقاء الحضارى أن يكون الدارس متنبها الى احتمال هذا التأثير وهو يقرأ ما بين يديه من نصوص .

وقد حاولت شيئا من هذا اثناء قراءتى للادب الاندلسي ، وخرجت بأشياء قليلة اضعها بين أيدي الدارسين لعلها تفتح بعض النوافذ فى هذا الجدار الاصم القائم بين الحضارتين اللتين عاشتا معا فى أسبانيا خلال قرون طويلة ، لا سيما فيما يتصل بتأثر الحضارة العربية ، نظرا لان تأثيرها أكثر معرفة ووضوحا .

### أولا - الترجمة عن اللاتينية :

( أ ) معروف ان حركة الترجمة الى اللغة العربية قديما كانت فى المشرق من اليونانية فى المرتبة الاولى ، ثم من الفارسية والهندية . ولا نكاد نعرف شيئا ترجم عن اللاتينية . وقد استفادت الحضارة الاندلسية من هذه الترجمات المشرقية . ولكنها التفتت بحكم المجاورة والمعايشة الى اللغة اللاتينية .

ومن الثابت ان كتابا للمؤرخ اللاتينى (هروشين) Paulus Orosius  
من أهل القرن الخامس الميلادى قد ترجم الى العربية في عهد  
عبد الرحمن الناصر او الحكم المستنصر وهو الكتاب الذى عنوانه فى  
اللاتينية Historiarum adversus paganos. (٤) وتوجد  
الترجمة العربية لهذا الكتاب محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا فى  
نيويورك (٥) وقد استفاد ابن خلدون والمقرئ من هذه الترجمة وأشار  
الى الكتاب ابن جليل (٦) .

وفى الترجمة العربية لهذا الكتاب اضافات تكمل تاريخ القوط الى  
دخول طارق بن زياد عليهم ، وقد نقلت هذه الاضافات عن مؤرخين  
لاتينيين .

( ب ) وحين يتحدث العذرى ( احمد بن عمر بن انس المعروف بأين  
الدلامى ت ٤٧٨ هـ ) عن مدينة طالق Italica القريبة من اشبيلية ويذكر  
حكامها قبل الفتح الاسلامى نجد مثل هذه العبارة « ويذكر فى بعض  
الكتب المؤرخة للاخبار القديمة ان أشبان بن طيطش ... الخ » (٧) وحين  
يذكر الملك القوطى ششقوط Sisabuto ٦١٢ - ٦٢١ حكمه ) يقول  
« وكان بصيرا بالكلام عارفا بالكتاب . وكان عصره عصر علوم . وأهله  
اهل تهمة وفى ايامه كان اشيدز العالم يعلم الكتاب » .

والشيدز الذى يشير اليه هو san Isioloro اسقف اشبيلية المشهور  
صاحب المؤلفات المعروفة ( توفى ٦٣٦ ) بما يدل على ان المسلمين فى اسبانيا  
عرفوا كتب هذا العالم لا سيما ما يتصل بالتاريخ . وفى الحق ان مراجعة  
ما كتبه العذرى عن ملوك القوط على ما أورده اسقف اشبيلية عنهم يوحى  
بأن العذرى كانت بين يديه نصوص للقديس ايزيدور .

( هـ ) ومما ترجم أيضا الى العربية من كتب لاتينية تلك المجموعة التي تشتمل على قرارات المجامع الكنسية الكاثوليكية • وهى المجموعة التي تحمل فى العربية هذا العنوان « جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدس » وهى من محفوظات المكتبة الاهلية بمدريد ( رقم ٤٨٧٩ ) وقد ترجمت هذه المجموعة فى عهد الطوائف •

حقا ان هذه الترجمة الاخيرة قصد بأن ينتفع بها رجال الدين المسيحى ممن تعربوا فى اسبانيا ، ولكن الصراع الدينى فى الاندلس والحواريين الملتين كان يدعو المسلمين الى الاطلاع على النصوص المسيحية • وقد كان بين يدى ابن حزم نصوص مسيحية ، هى غالبا مما ترجم عن اللاتينية فى الاندلس ، يستغلها فى كتابه ( العضل ) •

وكذلك توجد اشارات فى نصوص عربية الى اللسان اللاتينى والى كتب الاعاجم ورواة العجم مما يدعو الى مزيد من التفتيش والبحث والتعقب لتوضيح هذا الجانب من الثقافة العربية وما اقتبسته عن اللاتينية او عن الاسبانية •

ثانيا - على ان قضية التأثير بالثقافة المسيحية او الاسبانية لا ينبغى ان يقتصر فيها الى بحث مترجم من اللاتينية او اللغات الرومانسية الى العربية • ولعل هذا ان يكون أقل الجوانب تأثيرا ، وانما ينبغى ان يشمل الامر الثقافة الحية او الثقافة الشعبية التى تسربت مشافهة الى الثقافة الاندلسية - فاذا وضعنا هذا فى الاعتبار ونظرنا الى بعض ماورد فى التراث الاندلسى وجدنا الكثير :

( أ ) هذه الالفاظ الاعجمية التى استخدمها العرب والتى سجلتها كتب لحن العامة ، لها أو لبعضها دلالات بعيدة • مثل كلمة - ذتيلة - التى ذكرها ابن هشام اللخمي حيث يقول :

« ويقولون للطعام الذى يصنع عند نبات الاسنان للاطفال الذنتيلة باللام والصواب الذنتينة بالنون ، وهو اسم اعجمى • وحكى الزبيدى فى كتاب طبقات النحو واللغويين قال : اخبرنى بعض الشيوخ انه نبت سن لبعض ولد الامير عبد الرحمن بن الحكم رحمه الله ، فحدث فيه ما يحدث الناس عند نبات اسنان الصبيان • فقال الامير للوزراء : هذا الذى يسميه الناس بالاعجمية الذنتينة هل روى عن العرب فيه شيء ••• الخ » (٨) •

ومثل الفاظ ببطيرو فيجه و مرنده و كنبوش وهى فى الاسبانية

Cambuj - Merienda - Faja - to abadero يضاف الى ذلك لفظ

(ينير = يناير) عند ابن قزمان للدلالة على عيد رأس السنة الميلادية وكلها تدل على نفوذ المرأة المسيحية فى المجتمع الاسلامى وعلى تقاليد اسبانية انتقلت الى مسلمى الاندلس •

(ب) وحين تتجاوز الالفاظ الى الاخبار والقصص سنجد فى كتب التاريخ الاندلسي امثال قصة البيت المقل فى طليطلة وكيف اصر لنديق آخر ملوك القوط على فتحه فكان نذيرا بدخول العرب الى اسبانيا • وقصة بنت يوليان صاحب سبته مع ذلك الملك وكيف غيرت التاريخ • وكلها قصص اخذت بغير شك من التراث الشعبى المسيحى • وسيجد من يبحث نظائر لهذا فى كتب التراث الاندلسى ، وخاصة فى كتب الجغرافيا وما ورد فيها من عجائب البلاد والاثار القديمة والحقائق السحرية لبعض العيون والاشجار والازهار وفيما اورده العذرى ، وفيما نقله القزوينى عن الاندلسيين قدر صالح من هذا • وكذلك سيجد الباحث فى الكتب التى تتحدث عن صوفية الاندلس وكرامات بعض اوليائه ما يستشف ماوراءها من أساطير اسبانية الاصل (٩) •

(ج) والشعر العربى ، لانه التراث الاصيل عند العرب ، يفترض انه الحصن الممتنع على التأثير الاجنبى ، والشعر الاندلسي بغير شك كان

يسير في فلك الشعر العربى • ومع ذلك فاننا نلمح احيانا في هذا الشعر ما يجعلنا نتوقف ونفكر في قضية التأثير بالثقافة الاسبانية القديمة ، وان اختلفت الطرائق •

فقول الشاعر الاندلسي ابي عبد الله محمد بن مسعود (١٠)  
حيران من دهشة كأني      قلبق خانه الغدير

وذكر ابن عبد ربه للدب وتحطيمه خلايا العسل ، وان ارتد ذلك الى امثال عامية فهو لا ينفى ان هذه الامثال في بعض الاحيان ثمرة لقاء حضارى مرتبط بلغات عامية تعايشت وتبادلت التأثير •

هذا التراث الشعبى المشترك بين الثقافتين هو في نظرنا وفي نظر بعض الباحثين هو المصدر الذى انبثقت عنه الموشحات الاندلسية • ولا تزال الخرجة العامية او الاعجمية في موشحات الاندلسيين تحمل من المعانى والاخليلة والاساليب ما يجعلها نمطا مختلفا عن الشعر العربى التقليدى (١١) • ويكفى ان يكون اكثر الغزل في الخرجات على لسان الفتاة تنغزل في الفتى وتشكو حبها لامها لندرك مدى مخالفة هذه الخرجات من الغزل في القصيدة العربية ومدى قربه من الاشعار البرتغالية القديمة التى تعرف باسم ( Cantigas de Omigo ) مما يدل على تراث محلى مشترك •

ثالثا - أما من حيث الفنون ، فقد أوردنا نص ابن خلدون عن التماثيل او الصور في بيوت الاندلسيين ، وهنالك نصوص كثيرة تذكر التماثيل في حمامات المدائن الاندلسية والصور على الابسطة ، فضلا عما وصل اليها من ادوات مصنوعة من العاج •

ولدينا في الموسيقى نص صريح للتبناشى عن نوعين من الغناء عاشا في الاندلس نوع اعجمى ونوع عربى • ( وذلك في كتابه المخطوط ، متعة الاسماع في علم السماع (١٢) وان ابن باجه وافق بينهما •

وفي تجويد القرآن يقول الطرطوشي استنكارا لما يفعله المجودون حين يبلغ القراء فيه ذكر المسيح « فمثلوا اصواتهم فيه باصوات النصارى والرهبان والاساقفة في الكنائس » (١٢) •

إن كل ما قصدته بهذه الاشارات السريعة هو التنبيه الى ان الدارسين للحضارة العربية في الاندلس ينبغي لكي يستكشفوا الصورة الدقيقة لتلك الحضارة العظيمة ان يعيد بعضهم قراءة التراث العربى الاندلسى لعلهم يجدون فيه ما يزيدنا معرفة باثار هذا اللقاء الحضارى الخصب الذى حدث على تلك الارض الغنية التى كانت حلقة اتصال بين عالمين وحضارتين •



## المصادر والمراجع

- ( ١ ) صدر الكتاب بالاسبانية في بيونس ايرس بالارجنتين سنة ١٩٤٨ بعنوان :  
Espana en su Historia.  
ثم صدرت بعد ذلك طبعات مجددة بالانجليزية والاسبانية .  
Cristionos, Morosy Indios  
حسنى عبد الوهاب ( هامش ٢ ص ٢٥٩ ) .
- ( ٢ ) ترجم الى الفرنسية بعنوان : باريس سنة ١٩٦٣  
Le Soleic D'Allh Brille sur.  
ثم ترجم اللغة العربية .
- ( ٣ ) Fn. J. Simonet, Slesorio de Voces Ibericas y latnes usadas pntre los  
Mozàrales. Nadrid I888
- ( ٤ ) B. Sànchez Alonso, Historia de la historiografia espanola  
Atadrid 1976 - الجزء الاول ص ٦١ . ولد هورشيوس في طركونه  
اوربانه حوالى سنة ٣٩٠ .
- ( ٥ ) انظر دراسة المستشرق الايطالي Y. Leui Della Viola عن المخطوط  
في مجلة Al-Anolalus ( سنة ١٩٥٤ ) ص ٢٥٧ وما بعدها  
volxix Face 2 - ويشير الكاتب الى أن نسخة غير كاملة من ترجمة  
هروشبشش توجد في مسجد عقبة بالقيروان بناء على مكتبة من حسن
- ( ٦ ) انظر طبقات الاطباء لابن جلجل - تحقيق فؤاد سيد ص ٢ ( القاهرة  
المعهد الفرنسي ١٩٥٥ ) .
- نصوص عن الاندلس - تحقيق عبد العزيز الاهواني - مدريد ١٩٦٥ .
- ( ٧ ) نصوص عن الاندلس - تحقيق عبد العزيز الاهواني - مدريد ١٩٦٥ .
- ( ٨ ) انظر : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة ، مجلة  
معهد المخطوطات سنة ١٩٥٧ - المجلد الثالث - عبد العزيز الاهواني .

» ( ٩ ) انظر على سبيل المثال ما نقله الدميري في حياة الحيوان ج ١ ص ٢٩١  
عن كتاب النصائح لابن ظفر عن راهبين اسلما ، وما رواه ج ٢ ص ١١٢  
عن ابن بشكوال عن طائر في بلاد الروم يحفظ دعاء .

( ١٠ ) الذخيرة ١ - ٢ ص ٧٨ .

» ( ١١ ) ناقشنا هذه القضية بشيء من تفصيل في كتابنا ( الزجل في الاندلس -  
القاهرة ١٩٥٧ ) .

» ( ١٢ ) المخطوط حسبما ذكر جاريثا جومت في مكتبة ابن عاشور بتونس . وهذا  
الكتاب جزء من تأليف ضخيم للتبفاشي بعنوان « فصل الخطاب في  
مدارك الحواس الخمس لاولى الالباب » والمؤلف احمد ابن يوسف  
التبفاشي من اهل القرن السابع ( ديوان ابن قزمان ج ٣ ص ٣٥ .  
وقد نشر النص الخاص بالموسيقى في مجلة ( الفكر ) التونسية بتحقيق  
حسن حسنى عبد الوهاب عدد يونيو ١٩٥٩ .





## بناء الإنسان العزى الجديد

دكتور بروفيسور كارل بتراچك

Prof. Dr. Karel Petrcek

Prague Czechoslovakia

الاستاذ بجامعة براغ

لا شك أن مفهوم الانسان في التعاليم الاثروبولوجية الاسلامية مبنى على علاقته مع الله . اذ بينما كانت نقطة ارتكاز نظرة الجاهلية الى العالم هي الانسان ذاته نرى ان الاسلام ينطلق من وجهة نظر اخرى ، فعلاقة الله التبادلية مع الانسان ، تشمل مستويات عديدة ، منها المستوى الانطولوجي ، الاتصالي الاخلاقي ، وال Hierarchy كما في علاقة السيد بالعبد .

واذا تطرقنا الى المستوى الانطولوجي بالذات نرى ان هناك علاقة الخالق بال مخلوق ، وهي علاقة ذات شكل واحد اى ان الله هو المصدر الاول والاخير للوجود الانسانى ، وهذا مؤكد فى القرآن الذى يربط على جوانب الحياة الانسانية بمشيئة الله .

ان الاسلام الحديث ايضا يتخذ نفس الموقف من هذه المسألة ، اذ لم يستغن قط على شكل علاقة الخالق بالمخلوق ، وهذا ما يلاحظ بشكل جيد من خلال المناظرة الدائرة حاليا مع الدارونية ( محمود شلتوت ١٩٦٦ وآخرون ) .

ان علاقة الخالق بالمخلوق لا تقتصر على الله والانسان فقط ، بل تشمل الكون بكامله . وكل ما هو على الارض — هو خالق كل شيء

( ١٠٢٦ ) • أى أن الله خلق حتى البيئة والظروف الخارجية التي تحيط بالإنسان ، وبذلك النى امكانية تأثير الظروف على الإنسان وعلى تطوره • الخالق •

اذن برمج وجود الإنسان وظروفه ، أى انه لا وجود لاي علاقة سببية بين الإنسان والظروف لان العلاقة الوحيدة هى بين الإنسان والله ، وبين الله والظروف • يشهد على ذلك التفسير المعروف للتسبب عند الأشعرى وتلاميذه خاصة الباقلاني ( انظر P. Antes, 1970 واخرون ) •

غير انه بالرغم من ذلك ، نرى ان لمفهوم الظروف وجود فى الاسلام ، فقبل كل شيء يكون الرسول محمد بنشاطه واعماله عصرا نبويا جديدا ، ويحيط الإنسان بظروف جديدة ، وينعكس ذلك ( فى غير ما ينعكس ) بحقيقة كون الرسول عربيا وكون الوحي قد نزل عليه باللغة العربية • وكذلك هو الحال فى التشريع الاسلامى الذى اخذ الكثير من الشرع المحلى ( العرف ، والعادة ) محترفا بذلك بتأثير الظروف •

والى جانب ذلك فان ممثلوا الاسلام الحديث يقبلون بدون تردد تأثير الظروف مثلا على تطور العلم ( محمد الباقي ١٩٦٥ ، ٣٩٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣ ) • وعلى العلاقة بالدين الذى لا يتغير بحد ذاته ( ٤٥٧ ) • وفى بعض الاحوال الى حد حين تؤثر على تطور الإنسان فى المدار الذى انتهى فيه الوحي وبدأ الإنسان بالسير وحده حسب امكانياته الشخصية حتى وصل الى الاختلاف الممكن ظهوره مع الدين والوحي ( محمد الغزالي ) ان التغيير فى الظروف الاجتماعية يمكن ان يغير كذلك الرأى حول تعيين بعض ممثلي الشريعة الاسلامية ( ابراهيم اللبان ١٩٦٤ ، ٢٥٦ ) • وبالمثل يقبل محمود شلتوت فى اعماله تفسير الكثير من الظواهر بدون الرجوع الى الاسلام — عندما لا ينوه عنها مباشرة فى القرآن او السنة — ويسمح

في مثل هذه الحالات ان يرجع الى العقل الانساني ، وان يكون لزمان الظروف اعتبار • بينما يحتفظ الاسلام في كل الاحوال بشمول مفهومه للزمان •

وفي المقابل نرى أن الكثير من المحدثين الذين لا ينطلقون من وجهات النظر الاسلامية يؤكدون بشدة على اهمية الظروف لحياة وتطور الانسان ولحل الكثير من المسائل الاجتماعية ومسائل اخرى (انظر العروى ١٩٦٧ ، زكي نجيب محمود ١٩٦٨ ، وآخرون من اللذين يكتبون عن الاشتراكية العربية من امثال عصمت سيف الدولة ١٩٦٥ ) انظر

K. Petracek, 1969/a, 1968/b.

ان هؤلاء المحدثين يأخذون مواقف معروفة في تيارات العلم والفلسفة الاوروبية التي تجهل من حقيقة تفاعل الانسان مع البيئة احد العوامل المهمة لتطور الانسان والحياة برمتها • ويكون الدور الرئيسي في هذا التفاعل للعمل ، الذي يترتب عليه تغير الظروف الطبيعية بالاضافة الى تغير الانسان ذاته • ان بناء فكرة الانسان على العمل وعلى الانسان نفسه هي مقولة معروفة في تيارات الفكر الماركسي F. Engles وكل الفكر الماركسي المعاصر •

هذا وقد اعطى الباحثون الغربيون اهمية كبرى للعلاقة بين الاسلام والعمل ، فهناك فرضيات ماكس وير Max Weber التي انتقدتها الاسلامى Mexime Rodinson ( ١٩٦٦ ) ، ولدينا ايضا تحليل رودنتال F. Rosenthal ( ١٩٧٠ ) لمفهوم العلم والمعرفة وعلاقته بمفهوم العمل ( او الممارسة ) •

وبالرغم من ان الاسلام التقليدى مثلا ( الغزالي في كتابه ميزان العمل ) يقيم العمل ايجابيا لا يطهر ابدا اى تأسيس انطولوجى للانسان في العمل • وهذا بالطبع عائد الى الانثروبولوجية الاسلامية التي سبق الكلام عنها •

ان تقييم العمل في الاسلام الحديث يبدأ في مؤلف رفاة الطهطاوى الذى يرى في العمل اصل كل القيم ( انظر افور عبد الملك ١٩٦٥ ) • واداة لتحسين احوال المجتمع البشرى ، ومصدر للثروة التى لا يتم توزيعها بشكل عادل ( رفاة السعيد ١٩٦٩ ) وهكذا نرى لأول مرة في تاريخ الفكر العربى تقييم ( على طريقة الاشتراكيين الاوروبيين ) للعلاقة بين العمل والقيم ورأس المال ، فينتقد الاستغلال برأسمالي • ويطالب بتدخل الدولة لحماية العمال امام استغلال الملاكين او الرأسماليين ( لويس عوض ١٩٦٩ ) •

وهناك تقييم آخر انشاق في تيارين مختلفين ، احدهما تيار الفكر الاسلامى الحديث ممثلا بجمال الدين الافغانى ، محمد عبده ، رشيد رضا ... واخرون والاخر تيار يمثل الليبرالية الحديثة المتصلة بتطور الفكر العلماني والمجتمع الحديث • الا ان ما يهمنا هنا ليس تتبع هذا التطور وانما ما وصل اليه في الوقت الحاضر ، وسنعتمد بشكل خاص على المراجع المصرية •

نستطيع ان نقسم تيارات الفكر الحديث الى ثلاثة اقسام وذلك نسبة الى الملامح التي يعطوها للانسان العربى المعاصر ( انظر K. Petracek ١٩٧٣ ) فهناك الانسان الاسلامى والانسان القومى العربى الاشتراكي والانسان الطبقي • ان النموذج الاول موجود في مخطوطات مفكرى الاسلام اما الثاني فعند كتاب الاشتراكية العربية والثالث هو خاص بالماركسيين ( في اوروبا كما في العالم العربى ) •

ولعله من المستحسن ان اقدم باختصار التحليل الذى قمت به في مكان آخر ( K. Petracek ١٩٧٣ ) عن مواقف هذه النماذج من ظاهرة العمل •

## شخصية الانسان الاسلامي والعمل

ان الفكر الاسلامي المعاصر ( O. Carre ١٩٧٠ ، جمال الدين العياد ١٩٦٧ ، عبد المنعم خلاف ، محمد الغزالي ١٩٦٣ ، ١٩٦٠ محمد الباهي ١٩٦٥ ) يؤكد على قيمة العمل ويرفع منها في نماذج الانسان الاسلامي المعاصر معتمدا في ذلك على نصوص وامثلة من القرآن والسنة ويشير أيضا في هذا المجال الى تجارب اوروبا الناجحة والى روح العصر ، ويطلب بتقييم جديد للعمل والوقت الذي هو احد ابعاد العمل . ان العمل هنا يرتبط بشكل رئيسي بالاخلاق ومن حين الى آخر بالمعرفة وتصبح له قيم ميتافيزيكية اذ ينادى به كقيمة لها وزنها في هذا العالم وفي العالم الاخر ايضا . ويتطرق موضوع العمل في ناحية اخرى الى المسألة الانطولوجية فهو - اى العمل من مميزات الانسان كمخلوق اجتماعي ، ونتيجة لطبيعة عقله وغريزته ، يسبب له السرور ويزيده بالنفع . الا ان الانسان لا يملك القدرة على الخلق لان هذه القدرة هي لله وحده ، وعليه فان انطولوجية الانسان ليست في العمل ، ان اساس الانسان يكمن في الله والدين الاسلامي لا يتخطى حدود هذه الفرضية .

## شخصية الانسان الطبقي والعمل

ان هذا النموذج يمثل المفكرين الماركسيين في العالم العربي وهم مخلصين للمفهوم الماركسي الذي هو باختصار - الانسان ذو قيمة نوعية في عملية تحويل العالم المادى والانتاج هنا هو حياة ذات نشاط نوعي ، ومن خلال هذا النشاط تظهر الطبيعة كما لو كانت من صفة ونتيجة لنشاطه ( الانسان ) .

ونظر الى الاتفاق العام لمفكر هذا التيار في العالم العربي نرى ان نرجع الى أعمال بعضهم فقط ( ذؤاد مرسي ١٩٦٧ ، راشد البراوي ١٩٦٣ ) . اذا كان التاريخ من صنع الانسان ونتيجة للعمل والتعاقب الزمني ، ولان الطبيعة تسخر خلال ذلك بشكل متزايد لخدمة الانسان ، يظهر الدليل

على ان الانسان خلق نفسه ، وهذا ما جاء على لسان قواد مرسي معبرا عن  
اهمية وفعالية العمل في الوجود الانساني . ان انصار الفكر الاسلامي  
لا يمكن ان يقبلوا بهذا الموقف .

ان النشاط الانساني هو ايضا عامل مهم لتغير الاحوال المتأخرة في  
العالم العربي . وهكذا يدخل العمل الى الهيكل البنائي للمجتمع .  
والجدير بالذكر ايضا ان العلاقة بين النظرية والممارسة لا تزال احدى  
المسائل الراهنة في مختلف اعمال الفئات الماركسية في العالم العربي  
( B. Tibi ١٩٦٩ ) .

#### شخصية الانسان القومي العربي الاشتراكي والعمل

ان كمية الكتب التي تتناول موضوع الاشتراكية العربية لا تحصر  
لذلك سنقتصر عنها على بعض المراجع . -

ففي المواثيق الرسمية ( مصر ١٩٦٢ ، السودان ١٩٧٠ ، العراق  
١٩٧١ ) نجد ان العمل يقيم دائما ايجابيا ، وفي بعض الاحوال يوصف  
كالطريق الوحيد للوصول الى اهداف المجتمع .

وتقف الدوائر ذات الاتجاهات اليسارية ( من حول مجلة الكاتب  
انظر Hanna Gardner ١٩٦٩ ) كموقف عصمت سيف  
الدولة المتأثر بـ Sartre, Bergson ( ٩٦٥ و ٩٦٨ ) معطية للعمل  
قيم ايجابية . فالمؤلف عصمت سيف الدولة يربط بين الحرية والعمل ،  
ويرى ان ميزة الانسان هو في انه يغير الظروف التي تحيطه . وهو - اي  
الانسان - يقوم بذلك من خلال تعرفه على القوانين الطبيعية واستعماله  
لها لخدمة مصالحه الخاصة . العمل هو اذن تعريف نوعي للانسان اي  
ان له قيمة انطولوجية . وينسب راشد البراوي ( انظر S. Wild ١٩٦٩ )  
للعمل قيم انسانية واقتصادية . اما عبد الحميد مرسي وعدلي سليمان  
( ١٩٦٢ ) فيتكلمان عن الجانب الاخلاقي للعمل ، ونجد ذكر اهمية

العمل في الاعمال المخصصة للدعاة ( احمد جمال الدين كاشف ) وكذلك في المطبوعات الاقتصادية ذات الاتجاه الاشتراكي ( علي البارودي ١٩٦٧ ، جلال احمد امين ١٩٦٦ ، موسوعة الهلال الاشتراكية ١٩٦٨ ) وفيما عدا ذلك في مطبوعات الاعداد السياسي ( رشدي ابراهيم حسان ١٩٦٣ ) وحتى في الصحف اليومية مثلا في الاهرام ١٩/٥/١٩٦٧ ص ٧ يوجد مقال عن شخصية مصر واهمية العمل .

وهكذا نجد ان نموذج الانسان القومي العربي الاشتراكي يقيم العمل ايجابيا في مستويات النصوص التي قدمناها ، وكما هو الحال في نموذج الانسان الطبقي ( الماركسي ) يكون للعمل قيمة انطولوجية بشكل ان الانسان يبني نفسه من خلال بقائه لتاريخه وتؤكد صفات العمل الاجتماعية والاقتصادية ويربط بينه وبين الاشتراكية .

وغالبا ما يقيم العمل اخلاقيا ونفسيا ، وتكرر الاشارة الى موقف الاسلام الايجابي من العمل .

وفي ليبيا ايضا نجد ان للعمل قيم ايجابية في جميع الاتجاهات ( الاقتصادية ، الاجتماعية ، النفسية ، والاخلاقية ) وينظر اليه كاثبات للوجود الانساني . وهو - العمل - يفسر من وجهة نظر اسلامية ، ولكن المجال هنا لا يتسع لتقديم الامثلة .

ان مثل هذه المواقف هي بدون شك موجودة في انحاء اخرى من العالم العربي . وفي الختام يمكننا ان نلخص العلاقة بين ما ذكرناه عن انتيارات الفكرية ( والنماذج التي تمثلها ) بالشكل التالي - بالنسبة لتقييم العمل تختلف نماذج الانسان الطبقي ، والانسان القومي العربي الاشتراكي مع النموذج الاسلامي في المستوى الانطولوجي ، اما في المستويات الاخرى فتلتقي جميع النماذج على تقييم العمل تقييما عاليا ( اخلاقيا واجتماعيا ) .

وينفرد النموذج الطبقي والنموذج القومي العربي الاشتراكي في رؤيتهم للعمل كأساس للوجود الانساني ، والانسان عندهم يخلق نفسه بنفسه ، بينما لا يمكن ان يقبل مثل هذا الرأي في الاسلام الذي يبقى محتفظا بالعلاقة التقليدية بين الانسان والله كما سبق ان اشرنا •

ان هذا التركيب للفكر العربي كما نظرنا اليه من خلال علاقته بالعمل هو بالطبع نتيجة التطور التاريخي والتحرك الاجتماعي والفكري في العصر الحديث ، ولا شك ان هناك مصالح اجتماعية وطبقية في خلفية هذه الظاهرة ، ومن المؤكد ايضا ان أحد تلك النماذج ذو عمل اوروبي - ونقص النموذج الطبقي في الفكر الاوروبي الاشتراكي ( الماركسي ) الذي يرى في العمل اساس الوجود الانساني ، وهذا ما استحال وجوده في النموذج الاصلي لفكر المجتمع العربي ( الفكر الاسلامي ) • واذ نجد الآن مثل هذه الاراء عند النموذج العربي القومي الاشتراكي فيسعدنا بالتالي ان نحكم على ان هذه الظاهرة تعنى تحرك الفكر العربي من ذاتيته الاسلامية الى فكر اوروبي الشكل ولا يكون على الاقتباس الفكري هنا اي مأخذ ، اذانه يستعمل لحل مشاكل عربية خالصة •

ان تقييم العمل الجديد كما اورده الفكر العلماني العربي في شكل نموذج الانسان القومي العربي الاشتراكي هو في محله •

ان الانسان العربي الجديد ينطلق من التقييم الجديد للعمل حيث يخلق نفسه بنفسه من خلال الصراع مع الطبيعة وبذلك يستطيع ان يقف الى جانب آلهته ليقول - انا الحق •

ان الانسان العربي الجديد ينطلق من التقييم الجديد للعمل حيث يخلق للعمل كما تفره حدود ميتافيزيكية معينة من الفكر العربي القديم وبالإضافة الى ذلك يمكنه ان يمتد أيضا على ما يقدمه الفكر الثوري الاوروبي •



# الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة عاصمة بني مدرار

دكتور الحبيب الجنحاني  
كلية الآداب - الجامعة التونسية

## (١) الفلاحة :

يكاد ينحصر النشاط الفلاحي في سجلماسة وضواحيها في ميدانين :

أولا : الزراعة في بساتين الواحة •

ثانيا : تربية الماشية •

يذكر الجغرافيون العرب البساتين الجميلة بواحة سجلماسة المقسمة الى احواض ترويه مياه الوادي بفرعيه الشرقي والغربي ، وهي التي تمد سكان المدينة بأنواع الخضر والثمار ، وقد اشتهر منها العنب ، وزبيبها المعرش ، يقول البكري : « وهي كثيرة النخل والاعناب • وجميع الفواكه ، وزبيب غنيها للمعرش الذي لا تناله الشمس منه زبب في الشمس » (١) • ويزرعون القطن ، والكمون ، والكروياء والحناء التي يصدرونها الى سائر بلاد المغرب (٢) ، وأشهر انتاج الواحة هو أنواع تمورها طبعاً ، وقد بلغت في سجلماسة ستة عشر صنفاً ، قال ياقوت متحدثاً عن رستاق النخيل بضواحي سجلماسة : « وفيه ستة عشر صنفاً من التمر ما بين عجوة ودقل وأكثر أقوات سلجماسة من التمر وغلثهم قليلة (٣) • وتمثل انواع التمور هذه أبرز صادراتها الفلاحية الى جانب الحناء والماشية •

ان الاراضى المحيطة بالواحة هى اراضى صحراوية لا تسمح بزراعة الحبوب مثل سهول وادى شلف بالقرب من تاهرت ، ولذ فاننا نجد السلجمايين يزرعون الحبوب السقوية في البساتين المقامة على الوادى ، ويشبه ابن حوقل زراعتهم السقوية بزراعة المصريين على ضفتى النيل قائلا : « •• فيزرع بمائه حسب زرع مصر فى الفلاحة ، وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما اغدقت تلك الارض سنة فى عقب اخرى حصدوه الى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحب صلب المكسر ، ولذيد المطعم ، وخلقه ما بين القمح والشعير ، ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ، ولهم رطب اخضر من السلق فى غاية الحلاوه » ( ٤ ) • ويسمى البكرى هذا القمح بالصينى ، ويسع مد النبى ( صلعم ) من خمسة وسبعين الف حبه •

اما معلوماتنا عن نوع الملكية العقارية فى امارة سجلماسة اندر من الكبريت الاحمر ، وهى لا تختلف فيها عن نظام الملكية العقارية الذى نعرفه فى مناطق اسلامية فى نفس العصر ، ولا سيما ما نعرفه عن ملكية الاراضى ببلاد الشام والعراق • ولكن يبدو ان هناك تفرقة بين ملكية بساتين الواحة ، وهى ملكية خاصة واضحة ، وبين ملكية المناطق خارج الواحة ، وهى تفرقة تفرقها طبيعة الارض فى منطقة صحراوية من جهة ، ونظام المراعى فى بيئة قبلية تعتمد تربية الماشية دعامة اساسية فى حياتها الاقتصادية ، هنالك اشارة سريعة اوردها ابن حوقل سمحت لنا بطرح هذه النقطة ، فهو يخبرنا : « انهم يبيعون البلاد للمراعى والزرع والمياه لورود الابل والماشية ( ٥ ) ، فالميدان الثانى للنشاط الزراعى فى اماره سجلماسة هو اذن تربية الماشية ، وقد ساهم الاتتجاع الى واحتها بالمواشي فى اختيار مكان تأسيسها ، ان صحت الرواية التى تذكر ان ابا القاسم سلكو كان صاحب ماشية ينتجع بها الى براح سجلماسة قبل تأسيس المدينة •

## ( ب ) الحرف :

ان المركز التجارى الذى اصبحت تحتله سجلماسة ابتداء من نهاية القرن الثانى الهجرى ، وما رافقه من تطور ديمغرافى ، وتقدم عمرانى قد ساعد كل ذلك على نشوء انواع من الحرف وازدهارها، وابرز هذه الصناعات اليدوية صناعة النسيج المعتمدة على قطن الواحة ، وعلى الصوف المتوفر بمنطقة تافللت ، ولاسيما صوف حصن برارة في الطريق بين فارس وسجلماسة ، ويحدثنا عنه البكري قائلا : « وهو بلد يحسن فيه الغنم ... وصوفها من اجود الاصواف ، ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثوب منها ازيد من عشرين مثقالا » • ( ٦ ) وقد اشتهر اللباس السجلماسى في المشرق ، والمغرب ، والاندلس وهو يشبه الدرجيني في ثوبه ولونه ، ولكنه يفوقه جودة ( ٧ ) •

وذاع صيت السجلماسيات بمهارتهن في صناعة النسيج : « ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف ، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق القصب الذى بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا ، واكثر كأرفع ما يكون من القصب الذى بمصر ، ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ، ويصبغونها بانواع الاصباغ ( ٨ ) •

والى جانب انواع الحرف المتعلقة بالبناء اشتهرت ايضا صناعة الاوانى الخشبية بسجلماسة ، وهى من شجر يعرف باسم الموضع الذى بنيت فيه أي التامجاثت» ، ويصفه البكري قائلا : وهو شجر يعظم ورقه هذب كورق الطرفاء ، ومنه آنية سجلماسة ودرعة ، وما والاها » ( ٩ ) •

ولا شك ان هنالك بعض الصناعات المتصلة بوفرة الذهب المجلوب الى سجلماسة من بلاد السودان ، وهى باب تبرها ، وبما يستخرج من معادن درعه التى وظف عليها ابو المنتصر اليسع بن ابى القاسم الخضس ، وقد راينا وجود معدن للفضة بجبل مجاور لسجلماسة •

### ( ج ) التجارة :

سجلماسة هي اولا وقبل كل شيء مدينة تجارية ، ويعود الفضل في ازدهارها ، وتقدمها المعماري ، ومظاهر الترف في حياتها الاجتماعية ، وهجرة الناس اليها من البصرة على شط العرب الى الاندلس ، وبلاد السودان الى نشاطها التجاري ، ومركزها الحساس في مفترق مسالك تجارية شهيرة في تاريخ التجارة المغربية في العصر الاسلامي الوسيط ، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان سجلماسة كانت مركزا تجاريا عالميا عصرئذ ، فالتجارة — اذن — هي مصدر الثروة الكبيرة التي تجمعت بالمدينة ، ولاسيما الثروة الذهبية التي كانت بايدي سكانها ، وخاصة فئات التجار بينهم ، ويقول عنهم ياقوت : « واهل هذه المدينة من اغنى الناس واكثرهم مالا ، لانها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ، ولاهلها جراحة على دخولها » ( ١٠ ) .

ويعرب البكري عن استغرابه من ان الذهب عند سكان المدينة جزاف عدد بلا وزن ، والكراث يتبايعونه وزنا لاعددا ( ١١ ) . ويروي ابن حوقل قصة طريفة عاشها بمدينة اودغست تصور مدى الثراء الذي بلغته فئة التجار بسجلماسة ، فبعد ان تحدث عن سكنها من تجار البصرة والكونة وبغداد ، وعن الحركة التجارية الدوابة بها قال عن اهل سجلماسة : « .. وسائر ارباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال ، وتتقارب بالعصبية او صافهم ، وتتاكل احوالهم ولقد رايت باوغست صكافية ذكر حلق لبعضهم على رجل من تجارا اودغست ، وهو من اهل سجلماسة مائتين واربعين الف دينار وما رايت ، ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شيئا ولا نظيرا ، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخرسان فاستطرفت » ( ١٢ ) .

وقد كانت التجار ، مصدر القوة المالية وبالتالي السياسية والعسكرية للامامة المدرارية الصفرية ، فنجد مبلغ المكوس التي وظفها اميرها المعتر على القوافل الخارجة والوردة و على ما يباع بها ويشترى يصل مع العشر والخراج اربعمائة الف دينار ، وهذا المبلغ جباية المدينة وعملها فحسب ،

ويقوم ابن حوقل بمقارنه فيذكرنا بمبلغ جباية المغرب كله من اوله الى آخره فيقول : « انها بلغت من ثمانمائة الف دينار الى ما زاد على ذلك ييسير ، وربما نقص الكثير ، ويحدد جغرافيا منطقة سجلماسة وعملها التي جمع منها هذا المبلغ فتكون خمسة ايام في ثلاثة ( ١٣ ) •

اما علاقاتها التجارية فقد كانت متنوعة تنوع المسالك التي تربط بينها وبين المراكز التجارية نحو الشمال الشرقي : من سجلماسة الى وجده ، والى تلمسان ، عن طريق قفصه ، ثم الى مدن الساحل التونسي من جهة ، او الى طرابلس عن طريق نقزاوة ، ثم برقة ، فمصر ، فالمشرق الاسلامي ، وغربا نحو انماث وريكة ثم الى مدن ساحلية تقع على البحر المحيط مثل نول لمسطه وشمالا نحو فاس ، ثم الى مدن المرافئ على البحر الابيض المتوسط . وقد راينا ان سجلماسة لم تكن تمثل خاتمة المطاف بالنسبة للقوافل ، فهي تتجه اليها باعتبارها مركزا تجاريا نشطا مع بلاد السودان ، فهي - اذن - باب لمعدن التبر ، او ميناء صحراوي تتجمع فيه بضاعتان ثمينتان من بضائع العصر : الذهب والرقيق • ان جميع القوافل التجارية القادمة من المراكز التجارية المذكورة ، والمتجهة نحو بلاد السودان او العائدة منها تمر بسجلماسة ، فهي - كما ذكر سلفا - مركز حساس من مراكز التجارة العالمية عهدئذ •

يصف لنا البكري المسلك بين وحدة سجلماسة فيقول : « وعلى مدينة وحدة طريق المارة ، والصادرة من بلاد المشرق الى سجلماسة وغيرها من بلاد المغرب والطريق منها الى سجلماسة تخرج من وحدة الى صاع وهي قرية ذات نهر وثمار ومزارع ، ومنها الى تاملنت ، ومنها الى جبل بنى برنسيبيان ، ومنه الى قير ، ومنه الى الاحساء (١٤) • ومنها الى لامسلى ، ومنه الى دار الامير ، ومن دار الامير الى سجلماسة (١٥) •

ومن تلمسان في اتجاه الجنوب الغربي نحو سجلماسة. تمر القوافل بقلعة ابن الجاهل ، وهي قلعة منيعة كثيرة الثمار والانهار ، ويتصل بها جبل

تارنى ، وهو وما يليه جبال معمورة الى مدينة تبزيل ، وهى أول الصحراء ،  
ومنها يسافر الى مدينة سجلماسة ، والى وارجلان (١٦) •

ومن فاس فى اتجاه الجنوب نحو باب الصحراء : سجلماسة فتتمر  
القوافل بمدينة صفروى مرحلة ، ثم الى الاصنام مرحلة ، ومنها الى موضع  
يسمى المزى مرحلة ، ثم تاسفمرت مرحلة ، ثم الى مكان يقال امغاك مرحلة  
كبيرة نحو الستين ميلا » ومنها تدخل فى عمل سجلماسة بين أنهار وثمار  
ثلاث مراحل الى مدينة سجلماسة (١٧) ، ويصف البكرى مسلكا آخر  
بين فاس وسجلماسة نقلا عن محمد بن يوسف الوراق ( ٢٣٢ هـ - ٣٦٢ هـ ) •

ويمر الطريق من سجلماسة الى اغمات بموضع يسمى تيجمامين ،  
وفيه معدن للنحاس ، ثم منه الى وادى درعة ، ثم الى مكان اسمه اذامست ،  
ومنه الى ورزازات فبلد هسكورة ، ثم منطقة قبيلة هرزجة ، ثم اغمات (١٨) •

أما فى اتجاه الجنوب فهناك مسلك صحراوى نحو بلاد السودان  
طويل وصعب يقول عنه ابن حوقل : « وبين المغرب والبلدان التى قدمت  
ذكرها وبلد السودان مفاوز وبرارى منقطعة ، قليلة المياه ، متعذرة المراعى ،  
لا تسلك الا فى الشتاء وسالكها فى حينه متصل السفر دائم الورود  
والصدر (١٩) ، وهو طريق تجارة الذهب مع اودغست وغانه بالخصوص •

وفود الاشارة الى البضائع التى كانت تحملها القوافل التجارية المتجهة  
الى سجلماسة ، أو المنطلقة منها ، وقد رأينا أن الضرائب الموظفة على  
صادرات ، وواردات المدينة ، وعلى ما يباع ويشترى من البضائع فى سوقها  
تمثل المورد المالى الرئيسى لخزينة الدولة المدرارية • اتنا لا نملك قائمة  
كاملة بأنواع البضائع ، ولكن ما نقلته لنا كتب الجغرافيين العرب تعطى  
فكرة واضحة عن هذه البضائع •

ويلوح لنا أن أهم صادرات سجلماسة من المنتجات الزراعية ،  
«منتجات الحرف اليدوية المختلفة كان نحو بلاد السودان ، وخاصة نحو  
مدينة اودغست ، وغانة ، وتكرور ، ومن هذه المنتجات :

- القمح
- الثمار المجففة
- انواع التمور
- الزبيب
- المنسوجات
- النحاس المصنوع
- الخرز
- الملح

ويجلب من بلاد السودان : الذهب والرقيق ، والعنبر ، واشجار  
الصمغ من جبل يشرف على مدينة اودغست ، ويصنع بها الديباج ، ويصدر  
هذا الشجر عن طريق سجلماسة الى الاندلس (٢٠) .

يتحدث الحميري عن تكرور فيقول : « واليها يسافر أهل المغرب  
الاقصى بالصوف والنحاس والخرز ، ويخرجون منها بالتبر والخدم (٢١) .  
ويحدثنا البكري عن ثراء سكان اودغست قائلا : « وكانت لهم أموال  
عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم الف خادم واكثر (٢٢) ، ومن المعروف  
أن العملة المتداولة في اودغست هي التبر الخالص ولا يستعملون الفضة  
الفضة ، فالقوافل التجارية القادمة من سجلماسة بأنواع البضائع المذكورة  
تعود ببضاعتين أساسيتين : الذهب والرقيق .

ويصدر الى اودغست القمح ، والثمار ، والزبيب ، كما يتجهز اليها  
بالنحاس المصنوع وبثياب مطبغة بالحمراء والزرقاء مجنحة ، ويجلب منها

العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الابريز الخالص  
خيوطا مفتولة ، وذهب اودغست اجود من ذهب الارض واصحة » (٢٣)  
وينقل لنا صاحب الاستقصا نصا عن الشريشى يصور لنا بدقة اهمية نوع  
التبادل التجارى بين سجلماسة وغانة ، فيقول : « وقال الفقيه الاديب  
ابو العباس احمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى في شرح المقامات الحريية ،  
ما نصه : غانه بلد من بلاد السودان ، واليها ينتهى التجار يعنى من المغرب ،  
والمدخل اليها من سجلماسة ، ومن سلجماسة اليها ذهابا ميسرة ثلاثة اشهر ،  
ومن غانة الى سجلماسة اياها مسيرة شهر ونصف ، وفون ذلك • وسبب  
ذلك ان الرفاق تتجهز اليها من سلجماسة بالامتعة والاثقال فتباع فى غانة  
بالتبر فمن سافر اليها بثلاثين جملا يرجع منها بثلاثة احمال ، أو بحملين :  
واحد لركوبه ، وثان للماء بسبب المفازة التى فى طريقها ، حدثنى غير واحد  
من تجارها انهم يقطعون المفازة فى ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء الا على  
ظهور الابل ، فائمان احمال الثلاثين جملا يجتمع فيها من التبر ما يجعل  
فى مزود واحد فيطوون المراحل للخفة (٢٤) •

ولا نغفل فى حديثنا عن نوع البضائع المتبادله بين المغرب الاقصى ،  
سرورا بسجلماسة ، وبين بلاد السودان عن الاشارة الى بضاعة ثمينة ونادرة  
فى المناطق الافريقية جنوب الصحراء ، وهى الملح وكان مصدر الريح الوافرة ،  
والحصول على كميات من الذهب ، ( وربما بلغ الحمل الملح فى دواخل  
بلد السودان واقاصيه ما بين مائتين الى ثلاثمائة دينار » (٢٥) •

اما العلاقات التجارية مع بلاد المشرق والاندلس فهى تشمل البضائع  
المتبادله بين التجارية فى ذلك العصر ، ويحتل الذهب والرقيق المكانة الاولى  
فى صادرات سجلماسة نحو الشمال والشرق ، وقد اشتهر الثياب السجلماسى  
بين المنتوجات الصناعية للمدينة ، ويبدو ان تطور صناعة النسيج بها  
جعلها تحتاج الى توريد القطن الاشبلى الشهير بالرغم من اننا نجد القطن  
ضمن المنتوجات الزراعية للواحة ، يقول الحميرى متحدثا عن أشبيلية



« والقطن يجود بارضها ، ويعم بلاد الاندلس ، ويتجهز به التجار الى افريقية ، وسجلماسة ، وما والاها » (٢٦) •

ونجد ميناء تابحريت على شواطئ البحر الابيض المتوسط من الموانئ الشهيرة التي استعملت في تصدير البضاعة الواردة من سجلماسة ، يقول عنها الحميري : « وهي محط للسفن ، ومقصد لقوافل سجلماسة وغيرها » (٢٧) •

ويتساءل المرء في هذا الصدد عن نقطة ذات شأن في حركة التبادل التجارى ، ونعنى هنا نوع العملة المتداولة ؟

فقد مرت بنا اشارة الى ان الشاكر لله تلقب بامير المؤمنين ، وضرب الدنانير والدرهم الشاكرية ، وتحدث بان حوقل عن دار الضرب في عهد المعتز •

وقد كانت عملة سجلماسة قوية وشهيرة تجاوز التعامل بها حدود الواحة واعمالها ، حيث اننا نجد الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر يدفع للتجار الذين تعهدوا بجلب الرخام من قرطاجنة وتونس الى مدينة الزهراء بقرطبة ، بعد ان شرع في بنائها سنة ٣٢٥هـ ، مقابل عملتهم الدينار السجلماسي - قال ابن عذارى : « وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية » (٢٨) ، وتحافظ العملة السجلماسية على شهرتها عدة قرون ، فبعد ان رأينا الخلافة الاموية في قمة مجدها تستعمل الدينار السجلماسي ، نجد الاندلس في عهد السعديين الرشيد الموحدى تتعامل بالدنانير السجلماسية المعروفة بالدنانير العشرية (٢٩) •

ان التعرف بدقة على هذا الدور الخطير الذى لعبته التجارة في هذه المدينة الاسلامية ، وما ادى اليه من تجمع لرأس المال ، وترف اجتماعى

تمثله فئات اجتماعية جديدة يعتمد نشاطها الاقتصادي اساسا على التجارة ،  
متحرره من السيطره الاقتصادية لهياكل الاقطاع الاسلامى يسمح لنا  
فى المستوى التنظيرى بطرح التساؤل التالى :

ألا تمثل فئات التجار هذه الملامح الجينية للمجتمع الرأسمالى  
التجارى المبكر ؟

### الحياة الاجتماعية :

ولا مناص من التعرض الى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى  
نهاية هذه الدراسة ، بالرغم من ندرة المعلومات الواردة خلال وصف  
بعض الجغرافيين العرب والتي تكشف عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية .  
واول ما يعترض سبيلنا فى هذا الصدد العناصر السكانية للمدينة ، فقد  
رأينا الفئات الطاغية بينهم تتألف من البربر ، وقد انحدروا اليها من البادية  
المجاورة للمدينة الجديدة ، ونقلوا اليها كثيرا من عاداتهم وطباعهم ، يحدثنا  
البكرى عن القبائل التى قسم عليها أبو منصور اليسع بن مدرار سنة  
٢٠هـ احياء المدينة فيقول : « وهم يلتزمون النقب فاذا حسر احدهم عن  
وجهه لهم يميزه احد من أهله » (٣٠) ، ولكن التقدم العمرانى السريع  
الذى عرفته المدينة خلال القرن الثالث الهجرى ، واستقرار فئات اجتماعية  
جديدة نزحت اليها من مدن شرقية شهيرة مثل البصرة ، والكوفة ، وبغداد  
أثر كل ذلك مع تعاقب الاجيال فى أخلاق سكانها الاولين ، وجعلهم يتطبعون  
بطباع أهل المدر ، بل بطباع سكان المدن الكبرى المزدهرة عصرئذ ،  
ويتحدث ابن حوقل عن مظهرهم وأخلاقهم بعد ان زار المدينة سنة ٣٤٠هـ  
فيقول : « ... وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب فى المنظر  
والمخبر مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمرأة وسماحة ورجاحة »  
(٣١) ، ثم يواصل وصفه للازدهار التجارى وخلق الاهالى قائلا : « ... »

مع تجارة غير منقطعة منها الى بلد السودان ، وسائر البلدان ، وارباح متوافرة ، ورفاق متقاطرة ، وسيادة في الافعال ، وحسن كمال في الاخلاق والاعمال يخرجون برسومهم عن دقة أهل المغرب في معاملتهم وعاداتهم الى عمل بالظاهر كثير ، وتقدم في افعال الخير شهير ، وحشو بعض على بعض من جهة المروءة والفتوة ، وان كانت بينهم الحنات والتترات القديمة تواضعوها عند الحاجة ، واطرحوها رئاسة وسماحة ، وكرم سجية تختصهم ، وأدب نفوس وقف عليهم بكثرة أسفارهم ، وطول تغربهم عن ديارهم وتعزبهم من اوطانهم ، ودخلتها سنة أربعين فلم أر بالمغرب اكثر مشائخ في حسن سمت ، وممازحة للعلم وأهله الى سعة نفوس عالية ، وهم سائمة سامية » (٣٢) •

ومن مظاهر الترف الاجتماعي انتشار الحمامات بها ، وقد وصفها البكري بانها رديئة البناء ، غير محكمة العمل ، ولم يحدد لنا عددها ، ووفرة الرقيق ، وهو أمر طبيعي ، لانه كان يمثل البضاعة الاساسية الى جانب الذهب في العلاقات التجارية للمدينة مع بلاد السودان ، ولا سيما مع أودغست (أو اودغشت) (٣٣) ، وغانة •

واشتهر جوارى اودغست بمزايا كثيرة منها المهارة في الطبخ • يقول الحسيري : « ويجلب منها سودانيات طبابخ محسنات تباع الواحدة منهن بمائة دينار كبار وأزيد. لحسن عمل الاطعمة الطيبة ، ولا سيما اصناف الحلوات مثل الجوزينيات واللوزينجات ، والقاهرات ، والكنافات ، والقطائف والمشهدات ، واصناف الحلوات ، فلا يوجد أحذق بصنعها منهن » (٣٤) •

وهكذا اصبح الفرق شاسعا بين حياة المدينة ، وقد أثرت الثروة التجارية في مبانيها ، وفنها المعماري ، وفي الحياة الاجتماعية لسكانها التي عرفت أنواعا من الترف ، وحياة القبائل الرحل في البوادي الصحراوية ، تلك الحياة التي يصفها بن حوقل بدقة ، بعد ذكره للمدن والمناطق المسكونة

في أرض المغرب ، فيقول : « ... وما عداه وأوغل في براري سجلماسة ، وأودغست ، وتادمكة الى الجنوب ، ونواحي فزان ، ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ، ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ، ولا شيئا من الحبوب ، والغالب عليهم الشقاء والاثشاح بالكساء ، وقوام حياتهم باللبن واللحم » (٣٥) •

ان نص ابن حوقل المذكور — وهو شاهدعيان — يكشف بوضوح مظاهر الترف والتقدم الاجتماعي الذي بلغته سجلماسة في القرنين الثالث والرابع ، ولاغرو في ذلك اذا عرفنا اهمية الفئات التجارية في المدينة ، وهي مدينة تجارية اولا وبالذات ، كما سنرى ولم يقتصر الجغرافي الشيعي على وصف مظاهر الثراء ، بل نقل لنا معلومات عن سمو الاخلاق وحسن سمت شيوخها ، وعن جمال سكانها •

ويبدو ان كثرة الفتن التي عاشتها المدينة ابتداء من نهاية القرن الرابع الهجري ، وتدهورها الاقتصادي ، وغارات القبائل الرحل عليها بعد ان فقدت قوتها العسكرية التي كانت تحميها أثرت كل هذه العوامل في مظاهر الحياة الاجتماعية التي يقدم لنا عنها الشريف الادريسي في النصف الاول من القرن السادس الهجري صورة قاتمة بالمقارنة الى اللوحة الوصفية التي نقلها لنا ابن حوقل قبله بقرنين (٣٦) •

لمحنا قبل قليل الى استقرار فئات اجتماعية جديدة بالمدينة تتمثل في التجار المسلمين الذين أتوا اليها من مدن اسلامية شهيرة في المشرق مثل البصرة والكوفة وبغداد ، وقد أمها أيضا تجار من مدن المغرب والاندلس ولكننا نجد الى جانب هذه الاقليات الاسلامية اهل الذمة ، ولاسيما اليهود ، وقد اصبح لهم دور فعال في الحياة التجارية ، ولاسيما في تجارة الذهب خلال القرن الثالث الهجري أدى الى سيطرتهم على الحياة الاقتصادية بالمدينة من جهة ، والى تقمة السكان عليهم ، وقد استغلوا دخول الجيش الفاطمي للمدينة بقيادة عبد الله الشيعي سنة ٢٩٥ هـ للانتقام منهم ، ومر تجارهم

بسحنة شديدة ، فقد أمر ابو عبد الله بقتل اغنيائهم ، واخذ اموالهم ، وفرض على جميع سكان المدينة من اليهود الذين يرغبون في الاقامة بها :

امتهان احدى الحرفتين : الكنافة أو البناء ، ويعمل صاحب الاستبصار ذلك قائلا : « والسبب في تسخير اهل سجلماسة لليهود في هاتين الحرفتين الرذيلتين كونهم مجبن في سكنى بلدهم للاكتساب لما علموا ان التبر بها أمكن منه بغيرها من بلاد المغرب لكونها بالمعدنة ، فهم يعاملون التجار به ليخدعوهم بالسرقة وانواع الخدائع . ولما علم منهم ابو عبد الله الداعي ما هم عليه من ذلك عند استخراج عبد الله من سجن اليسع بن مدرار بها ، وكان الذي نص عليه ، ونم به لليسع يهودى . وحكى عبيد الله لابن عبد الله ماجرى له معه قتل منهم الاغنياء ، واخذ اموالهم بالعذاب ، وامر من شاء ان يقيم منهم بالبلد في ان يتصرف في هاتين الخلتين ، فمن دخل في الكنافين من اصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود ، وقصروا البناء عليهم خاصة لانهم خائفون أبدا من أن يخون احدهم المسلم فيهلكه ، فهم ينصحونهم في البناء ، ويلازمون الخدمة دون خروج لفرائض الصلوات ، ولا لغير ذلك من ملازم العبادات ، فتأتى خدمتهم موفرة سريعة ، وهم الآن قد مازجوا المسلمين وداخلوهم ، وهو العز الذي كانوا يرتقبونه في سالف الازمان ، وبعده الزلة الدانية القاصمة ان شاء الله لظهورهم المستأصلة لشأفتهم عما قريب » ( ٣٧ ) •

ان المحنة التى مربها يهود سجلماسة بعد استيلاء الفاطميين عليها لم تدم طويلا حسب نص صاحب الاستبصار ، قد عادوا الى دورهم البارز في الحياة الاقتصادية ، وقد استمر هذا الدور ، ويبدو أن الزلة الدانية التى انتظرها الجغرافى المراكشى لم تحدث ، لاتنا نجد خازن المال بسجلماسة أيام الخليفة الموحدى السعيد هو ابن شلوخة اليهودى ، كما ان صمويل الفاسى حبر

مراكش الذى اعتنق المسيحية ايام المرابطين ، وسمى *Sommel Marrochitanus* .  
قد شغل منصبا ذا شأن في بيعة سجلماسة (٣٨) •

أما أهل الذمة من النصارى في سجلماسة فلم تنقل لنا المصادر عنهم شيئا ، ولا سيما ايام الدولة المرابطية ، والاشارة الوحيدة عن وجودهم بالمدينة ما ذكرناه من الفتنة التى أثارها انصار الخليفة الموحدى السعيد سنة ٦٤٢ هـ بين النصارى والمسلمين قرب باب التصبية ليتمكنوا من الدخول اليها ، والقضاء على ابن زكريا الهزرجى التائر على السلطة الموحدية •

ان ما نأمله من عثور الدارسين يوما على كتب طبقات علماء سجلماسة ، والمصنفات المذهبية والفقهية التى ألفها علماء دعوة الخراورج الصفرين بسجلماسة سيسمح بالمزيد من التعرف الدقيق والشامل للحياة الاجتماعية في هذه المدينة الاسلامية التى احتلت مكانة بارزة في عصور ازدهار المغرب الاسلامى •

## المصادر والمراجع

- ( ١ ) المغرب ، الجزائر ١٨٥٧ ، ص ١٤٨ .
  - ( ٢ ) انظر : نزهة المشتاق ، ليدن ١٨٠٤ ، ص ٦٠ وما يليها .
  - ( ٣ ) معجم البلدان ، بيروت ١٩٦٣ ج ٣ ، ص ١٩٢ .
  - ( ٤ ) صورة الارض ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٩٠ .
  - ( ٥ ) نفس المصدر ، ص ١٠٠ .
  - ( ٦ ) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٧ .
  - ( ٧ ) الدرجيني نسبة الى درجين ، وهي مدينة قديمة بقرب نقطة ، وهي آخر بلاد الجريد ، انظر : الاستبصار ، سبق ذكره ص ١٥٩ .
  - ( ٨ ) معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .
  - ( ٩ ) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٥ .
  - ( ١٠ ) معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .
  - ( ١١ ) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥١ .
  - ( ١٢ ) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٥ .
  - ( ١٣ ) نفس المصدر .
  - ( ١٤ ) موضع رملى في بلدزناته يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع ونحوه ، انظر البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٦ .
  - ( ١٥ ) نفس المصدر ، ص ٨٨ انظر ايضا : الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٦٠٨ .
  - ( ١٦ ) نفس المصدر ، ص ٧٧ .
  - ( ١٧ ) نفس المصدر ، ص ١٤٥ وما يليها .
  - ( ١٨ ) راجع نفس المصدر ، ص ١٥٢ وما يليها .
  - ( ١٩ ) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ١٠٠ .
- يصف البكرى طريقا صحراويا بين تادمكت والقيروان عن طريق وارجلان ، ثم قسطلية ، وطريقا صحراويا آخر بين تادمكت ،

وغدامس ، ثم جبل نفوسة فطرابلس ، انظر المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٨٢ . ويبدو ان طريق تجارة الذهب والرقيق ولا سيما نحو اودغست وغانة كان يمر بصورة اساسية بسجلماسة في العصر المدارى ، فهو الطريق الذى تكاد تقتصر عليه معلومات الجغرافيين العرب فى القرنين الثالث والرابع .

- ( ٢٠ ) راجع : ابكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٨ .
- ( ٢١ ) الروض المعمار ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٣٤ .
- ( ٢٢ ) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٦٨ .
- ( ٢٣ ) المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، ولعل الصواب « من اجود ... » .
- ( ٢٤ ) الاستقصا ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ص ٩٩ وما يليها .
- ( ٢٥ ) ابن حوقل ، صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٨ .  
انظر : البكرى ايضا ، سبق ذكره ، ص ١٧١ .
- ( ٢٦ ) ابروض المعمار ، سبق ذكره ، ص ٥٩ .
- ( ٢٧ ) نفس المصدر ، ص ١٢٧ ، انظر البكرى ايضا ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ٨٧ .
- ( ٢٨ ) البيان المغرب ، بيروت ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .
- ( ٢٩ ) راجع : عبد العزيز بن عبد الله سبق ذكره ، ص ٢١ .
- ( ٣٠ ) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٨ .
- ( ٣١ ) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٠ .
- ( ٣٢ ) نفس المصدر ، ص ٩٦ ، وما يليها .
- ( ٣٣ ) راجع عن « اودغست » البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٦ وما بعدها ، الاستبصار ، سبق ذكره ، ص ٢١٥٦ وما يليها ، الروض المعمار ، سبق ذكره ، ص ٦٣ وما يليها ، دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج ١ ، ص ٧٨٥ مع قائمة مراجع .



( ٣٤ ) الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٥٤ .

( ٣٥ ) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٨٤ .

( ٣٦ ) انظر : نزهة المشتاق ، سبق ذكره ، ص ٦١ .

( ٣٧ ) الاستبصار ، سبق ذكره ، ص ٢٠٢ ، ونجد نفس النص تقريبا في  
« الروض المعطار » سبق ذكره ، ص ٣٠٦ .

( ٣٨ ) وهو مؤلف كتاب "De deventin Messiaequem" وقد ترجم لأول  
مرة من العربية الى اللاتينية عام ١٣٣٩ م بباريس بقلم الدومينيكان  
Alfphonse Bonhomme ، انظر : عبد العزيز بن عبد الله : « الموسوعة المفريية ،  
للاعلام البشرية والحضارية » معلمة الصحراء » ، الرباط ١٩٧٦ ،  
ص ١٢١ .



# العصور الوسطى الأوروبية

## مرودها الزمنية والنظريات التي قامت حول بدايتها

دكتور جوزيف نسيم يوسف  
استاذ تاريخ العصور الوسطى

جاءت العصور الوسطى الاوروبية بعد العصر القديم لتقطع من تاريخ  
الانسانية حوالى عشرة قرون من الزمان . وهناك كثير من الآراء والافكار  
والنظريات التي قامت حول بداية تلك العصور ونهايتها . ولكنها تبدأ ،  
عادة، بالقرن الخامس وتنتهى بالقرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادى .  
تبدأ بسقوط روما وانهايار الامبراطورية الرومانية القديمة على ايدى  
الجرمان البرابرة سنة ٤٧٦ م وتنتهى بسقوط القسطنطينية في ايدى الاتراك  
العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، او بحركة الاصلاح الدينى في الغرب التي تزعمها  
مارتن لوثر في القرن السادس عشر .

ويقسم المؤرخون الغربيون الحدثون تلك العصور الى حقتين  
متميزتين : العصور المظلمة وتقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠ م ، والعصور  
الوسطى الحقيقية وتشغل القرون الخمسة او الستة التالية . والحقبة  
الثانية تنقسم بدورها الى فترتين لكل منهما خصائصها وسماتها وان كانتا  
متصلتين بطبيعة الحال : الفترة الاولى وتشغل الحقبة الوسيطة من التاريخ  
الوسيط ، وتقع فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر للميلاد .  
والثانية وتشغل القرنين او القرون الثلاثة التالية ، وهى التي تعرف بالعصور  
الوسطى المتأخرة . والجدير بالذكر ان هذا التقسيم لا يعنى على الاطلاق  
انه يوجد خط فاصل بين هذه الفترات ، اذ كانت متصلة وان تميزت كل

فترة منها بخصائص معينة • ثم انه لا يجوز القول بأنه يوجد تمييز محدد واضح بين التاريخ الوسيط من ناحية وبين كل من العصر القديم والعصر الحديث من ناحية اخرى ، اذ تداخلت عناصر الفكر في بعضها في مختلف عصور التاريخ (١) •

لقد بدأت العصور الوسطى في اوروبا بالقرن الخامس عندما وقعت غارات المتبربرين على الدولة الرومانية القديمة، وكانت آنذاك شبحا متهالكاً. ثم انهال أولئك القوم آخر الأمر في جوف هذه الدولة المحتضرة ، وقضوا عليها وعلى نظمها وحضارتها ليقبوا على انقاضها ممالك جديدة جرمانية لها انظمة وحضارة جديدة مغايرة (٢) •

كان هذا يعنى — بكلمة مختصرة — نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وتقاليده وحضارته ، وبداية عصر جديد له نظمته وقوانينه الخاصة به • فقد تحطم جهاز العمل الرومانى ، وانهار من اساسه ذلك الصرح الشامخ في السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفلسفة الذى كان سائداً عند الرومان القدماء ، لتحل محله انظمة مغايرة وامم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها (٣)

وقبل تناول موضوع التحديد الزمنى للعصور الوسطى الاوروبية ، والنظريات التى قامت حول بدايتها ، يحسن ان نمهد لذلك بكلمة سريعة عن تقسيم التاريخ نفسه الى حقب وعصور •

ان مسألة تقسيم التاريخ الى عصور وتحديد بداية ونهاية لكل عصر، مسألة صعبة معقدة ثار حولها الكثير من الجدل بين المؤرخين وواضعى النظريات، ولم يصلوا فيها الى نتيجة حاسمة قاطعة • ولقد اتضح بعد دراسات طويلة مضمينة ان التاريخ ليس له بداية او نهاية ، وان تحديد البدايات والنهايات لمختلف العصور التاريخية انما هو محاولة اجتهادية تقليدية جرى عليها الكتاب والمؤرخون بقصد تسهيل دراسة التاريخ وتقريبه الى الافهام قدر الاستطاعة •

وعلى هذا يواجه الباحث الذى يتناول بالدراسة اى فترة تاريخية مشكلة التحديد الزمنى لها ، واين يضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها . وليس هذا بالامر الهين او اليسير ، لان التاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الحقائق والاحداث المترابطة التى لا يمكن تفتيتها او تجزئتها او فصلها عن بعضها ، وان كل فترة من فترات التاريخ ما هى الا عصر تغير وانتقال من السابق الى اللاحق . ومع ذلك فقد اتفق على تقسيم التاريخ الى ثلاثة عصور رئيسية هى : القديم والوسيط والحديث ، كما اتفق على تحديد كل عصر تحديدا زمنيا دقيقا . ولكن يجب ان نفهم جيدا ان هذا التحديد الجاف لا يعنى بحال من الاحوال ان فترة ما تنتهى في يوم معين معلوم وان فترة اخرى تعقبها في اليوم التالى تختلف عنها في قوانينها وانظمتها من سياسية ودينية وثقافية واقتصادية واجتماعية وغيرها .

فعندما نقول ، مثلا ، ان العصور الوسطى تبدأ في القرن الخامس وتنتهى في القرن الخامس عشر للميلاد ، او انها تقع على وجه التحديد بين عامى ٤٧٦ م و ١٤٥٣ م فان ذلك لا يعنى بحال ان التاريخ القديم بحضارته وانظمته في الدين والفلسفة والفكر والقانون والاقتصاد والاجتماع قد انتهى فجأة وبدون سابق انذار سنة ٤٧٦ م ، او أن العصور الوسطى بمثلها ومبادئها ونظمها وتقاليدها قد زالت نهائيا سنة ١٤٥٣ م . فلا يمكن ، في الواقع ، تحديد يوم بالذات او سنة بعينها كنهاية للتاريخ القديم وبداية للعصر الوسيط او كنهاية للقرون الوسطى وبداية لعصر النهضة والعصر الحديث . فمما لا شك فيه أن عناصر التاريخ القديم قد استمرت بعد سنة ٤٧٦ م لتؤثر في العصر الوسيط ، وان لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انهيار الامبراطورية الرومانية القديمة . كما ان عناصر التاريخ الوسيط قد استمرت ، هى الاخرى ، بعد سنة ١٤٥٣ م لتؤثر في عصر النهضة وان لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انتهاء العصور الوسطى .

ولا يضاح هذه المسألة نقول ان دراسة اى عصر تعنى القاء الضوء على النظم والحضارة السائدة فيه ، من اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وعسكرية وفكرية وغيرها . وليس من الحكمة القول بأن كل هذه المظاهر التى يتميز بها عصر ما تنتهى فى يوم بالذات لتحل محلها بشكل فجائى وعلى الطريقة المسرحية ، خصائص اخرى جديدة مغايرة . وعلى هذا فان قيام العصور والحركات الهامة فى التاريخ ، وان قيام الدول والامبراطوريات وانهيارها ، وان الاحداث الخطيرة التى تؤثر تأثيرا بالغا فى سير مجرى التاريخ البشرى - كل هذه لا يمكن ان تكون فجائية او بنت يوم وليلة ، انما هى عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة تحتاج الى فترات من الوقت ممتدة متباعدة .

ولقد سار المؤرخون على هذا النهج فى ابحاثهم ودراساتهم . وكانوا يختارون حادثة معينة او واقعة لها دلالتها او تاريخا له أهميته ، ليكون نقطة البداية او النهاية لفترة ما . والامثلة على ذلك عديدة . اذ يعتبر بعض المؤرخين سنة ٤٧٦ م التى قضى فيها البرابرة بصفة نهائية على شبح الامبراطورية الرومانية القديمة كبداية للقرون الوسطى الاوروبية ونهاية للتاريخ القديم . بينما يرى البعض الآخر ان عصر النهضة يبدأ بالشاعر الايطالى المعروف دانتى اليجيرى وملحمته الشعرية الكوميديا الالهية فى القرن الرابع عشر للميلاد ، او بحركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر . ويجعل بعض الكتاب الثورة الفرنسية او نتائج مؤتمر فينا بداية للعصر الحديث ، وهكذا (٤) .

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن ان ندرس العصور الوسطى الاوروبية التى اقتطعت من تاريخ البشرية حوالى عشرة قرون من الزمان . فيجب ان نعرف كيف ومتى بدأت ؟ وكيف ومتى انتهت ؟ ويجب ان نضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها ، وان كان من المسلم به بداءة ان عصور التاريخ عبارة عن حلقات فى سلسلة واحدة تمتد منذ القدم وحتى يومنا هذا .

ولقد تعددت النظريات والافكار في هذا الصدد ، واختلفت آراء المؤرخين المعنيين بالتاريخ الاوروبى النوسيط حول هذه المسألة اختلافًا عجيبا بينا ، وعلى رأس هؤلاء جورج جوردون كولتون G. G. Coulton وسيدنى بينتر S. Painter ، وجون لامونت J. LaMonte ، وستيفن رانسيمان S. Runciman ونورما بينز N. Baynes ، و . ب . كير W. P. Ker ، فضلا عن الكثيرين غيرهم . وسنحاول فيما يلى عرض اهم النظريات التى قامت حول بداية العصر الاوروبى الوسيط .

الواقع انه توجد حدود فاصلة عديدة يصلح كل منها ان يكون بداية لدراسة تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى . ولكل حادثة او واقعة او تاريخ ، ظواهر وخصائص ومميزات جعلت هذا المؤرخ او ذاك يأخذ برأى أو باخر كبداية لتلك العصور . وفيما يلى اهم النظريات التى أثرت حول هذا الموضوع .

#### النظرية الأولى :

وضع بعض المؤرخين سنة ٢٨٤ م كنهاية لتاريخ الدولة الرومانية القديمة وبداية للعصور الوسطى الاوروبية ، وهى السنة التى تولى فيها الامبراطور الرومانى دقلديانوس Diocletian ( ٢٨٤ - ٣٠٥ م ) عرش الامبراطورية . وهناك اكثر من سبب دعا لهذا الاعتبار . منها ان الامبراطور الرومانى اوغسطس Augustus ( ٣٠ ق م - ١٤ م ) كان قد وضع اساس القاعدة بأن الامبراطور هو اول رومانى حر فى روما . ولكن دقلديانوس نحا نحوا مغايرا . اذ اعتنق مبادئ الملكية الشرقية التى تجعل من الملوك اشخاصا فوق القانون وفوق الشعب بل وتجعلهم فوق مستوى البشر . فهم اقرب للالهة منهم الى الناس . فالملك فى نظره نصف اله يجب ان يؤدى له الشعب فروض الطاعة والعبادة والولاء . وهذا يعنى ان الاسس التى قام عليها التاريخ القديم بدأت تنهار لتحل محلها مثل وافكار وقيم جديدة .

ثم ان حكم دقلديانوس يرتبط بتلك الفظائع التي ارتكبها ضد المسيحية التي ظهرت في اخريات التاريخ القديم باعتبارها منافسا خطيرا لعبادة الامبراطور التي كانت سائدة وقتذاك ، وباعتبارها تهديدا لوحدة الامبراطورية ودولة داخل الدولة ومن الدواعي الاخرى التي دعت الى اختيار بداية حكم دقلديانوس كبداية للتاريخ الوسيط انه يعتبر حدا فاصلا بين زمنين منفصلين تقريبا . فقد كان هذا الرجل اول من فكر ، ولو نظريا ، في امر تقسيم الامبراطورية الرومانية الى قسمين : احدهما شرقي والاخر غربي ذلك التقسيم الذي لم يأخذ شكله النهائي الطبيعي الا في عهد قسطنطين الكبير في اوائل القرن الرابع للميلاد . ومع ذلك يجب ان نفهم ان وجود حاكم في الشرق وآخر في الغرب في عهد خلفاء دقلديانوس لم يضعف من وحدة الامبراطورية الرومانية بمعناها المعروف وقتذاك . بل كان هذا ، في واقع الامر ، عبارة عن انفصال ظاهري فقط . فقد كانت نفس القوانين والانظمة الحكومية ، بل ونفس التقاليد الرومانية معترفا بها آتئذ من كلا الحاكمين وفي كلا القسمين (٥) .

### النظرية الثانية :

ويحدد بعض المؤرخين سنة ٣٢٣ م كبداية للعصور الوسطى ، وهي السنة التي اعتلى فيها الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine I. The Great (٣٠٥ - ٣٣٧ م) عرش الامبراطورية بعد قضائه على خصومه ومنافسيه في الشرق والغرب . ومن اهم الاسباب في الاخذ بهذه النظرية ما يلي :

اولا - التغييرات الاجتماعية والدينية الهائلة التي حدثت في عهده كنتيجة لاعتراف قسطنطين بالديانة المسيحية كديانة رسمية للدولة بموجب مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ م - الذي اجاز رسميا اعتناق الدين الجديد ، واصبحت الكنيسة المسيحية هي كنيسة الدولة والامبراطور هو الرئيس الديني الاعلى لها . وكانت هذه الخطوة انقلابا عظيم الشأن ترك آثاره



البالغة في مجريات الامور والاحوال طيلة العصور الوسطى الاوربية .  
مجريات الامور والاحوال طيلة العصور الوسطى الاوربية .

ثانيا - اقدام قسطنطين على خطوة لا تقل عن سابقتها شأنا ، وهي تأسيس مدينة القسطنطينية على الضفة الاسيوية للبحر عند اتصاله ببحر مرمرة ، لتفى بمطالب العصر وحاجياته بعد أن فقدت روما أهميتها الكبيرة التي كانت تتمتع بها . ولذلك آثار بالغة الاهمية في مجرى التاريخ البشرى وقتئذ لان نقل الامبراطورية من الغرب الى الشرق ، وترك القياصرة الاقدمين روما الى القسطنطينية عند طرف أوروبا الاقصى ، كان معناه تأسيس دولة جديدة استمرت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة اكثر من عشرة قرون ، ونعنى بذلك الامبراطورية الرمانية الشرقية او الدولة البيزنطية التي كان مقرها القسطنطينية او روما الجديدة تميزا لها عن روما الغرب . ومن النتائج التي ترتبت أيضا على نقل كرسى الامبراطورية الى الشرق هو ترك روما وهجرها فأمس الكرسى الامبراطورى في روما القديمة خاليا ، وبدأ الرومان ينظرون في زعامتهم الى البابا وكان وقتئذ اسقف روما . وهذا يفسر قوة البابوية فيما بعد وتطلعها الى زعامة العالم المسيحى دينيا ودنيويا ، ومحاولتها الاستلاء على كل ما كان للامبراطور من حقوق وامتيازات في التاريخ القديم . كما ادى هذا دخولها في كفاح عنيف مع القوى العلمانية في الغرب الاوروبى بعد احياء الامبراطورية الغربية في عصر شارلمان في القرن التاسع وتجديدها في عهد اوتو الكبير في القرن العاشر الميلادى . وغني عن الذكر الاثار الوخيمة التي ترتبت على الكفاح المريعين عاهلى المسيحية الغربية حول المسائل الدنيوية .

ثالثا - يلاحظ ان السياسة الادارية والمالية التي استتسها قسطنطين ، وكذلك تشريعاته وقوانينه واصلاحاته العسكرية ، قد ساعدت على تدعيم الامبراطورية الشرقية ، بينما انحدرت الامبراطورية الغربية امام سيل الجرمان البرابرة المتدفقين من الشمال والشرق (٦) .

### النظرية الثالثة :

ويحدد فريق آخر من المؤرخين ، وعلى رأسه ستيفن رانسيمن ، سنة ٣٣٠م بالذات كبداية للتاريخ الاوروبى الوسيط بوجه عام . اذ ان قسطنطين الكبير بدأ فى تشييد مدينته فى نوفمبر سنة ٣٢٤ م ، وتم تأسيسها بعد خمس سنوات ونصف عندما دشنها تحت اسم «روما الجديدة» أو «روما الثانية» فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ، تمييزا لها عن روما الغرب . ومع ذلك فضل المؤرخون ، القدامى والمحدثون ، ان يسموها « القسطنطينية » نسبة الى مؤسسها (٧) .

### النظرية الرابعة :

وثمة فريق آخر من المؤرخين يحدد سنة ٣٦١م كبداية للقرون الوسطى

وهى سنة اعتلاء الامبراطور جوليان المرتد Julian, the Apostate

( ٣٦١ - ٣٦٣ م ) عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومحاولته الفاشلة القضاء على الديانة الجديدة وهى المسيحية ، واعادة الوثنية من جديد كدين رسمى للحكومة . ويدل اخفاقة على ان تطورا خطيرا قد طرأ على العالم الاوروبى ، وعلى ان الديانة الجديدة كانت قد تأصلت جذورها فى كيان هذا العالم بشكل لايسمح لاحد حتى ولو كان الامبرطور نفسه ان يعود به الى الماضى الوثنى . وغير خاف ان تأصل الدين الجديد فى اوروبا ترك آثاره البالغة على مجريات الامور والاحوال فيها لمدة تزيد عن الف عام . وبكلمة اخرى تمثل هذه الفترة الصراع الرهيب بين الوثنية والمسيحية ، وبكلمة اوضح فى التعبير ، بين نظامين مختلفين تماما عن بعضهما : اولهما يمثل القديم بكل مفاهيمه وافكاره ، والاخر يمثل الوسيط بكل اوضاعه وفلسفته (٨) .

### النظرية الخامسة :

ويحدد البعض سنة ٣٧٦م كنهاية للتاريخ القديم وبداية للعصر الوسيط على اساس انها كانت السنة التي تحول فيها احد العناصر الجرمانية ، وهو عنصر القوط الغربيين Visigoths من الوثنية الى المسيحية على يد

اسقف اريوس اسمه اولفيلاس Ulfilas . وترجع أهمية هذا التاريخ في نظر المؤرخين الى اهتمامهم الزائد بموضوع الجرمان البرابرة وما كان لهم بعدئذ من القوة والجبروت في غزواتهم التي اكتسحوا بها روما ، ويمكن الاخذ بهذا التاريخ كنقطة تحول لمجرى التاريخ العام . فاعتناق القوط الغربيين المسيحية ، جعل اباطرة الدولة الرومانية الشرقية يسمحون لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار بصفة مؤقتة في جوف الامبراطورية . وكان هذا من البدايات التي تدل على غزوات البرابرة في أوروبا فيما بعد وما ترتب عليها من آثار (٩) .

### النظرية السادسة :

ويضع بعض المؤرخين المعنيين بهذا الموضوع سنة ٣٧٨ م كمداخل للتاريخ الاوروبي الوسيط ، وذلك لوقوع معركة من المعارك الهامة الحاسمة في التاريخ الاوروبي بين القوط الغربيين وبين جيوش الامبراطور البيزنطي فالنس Valens ( ٣٦٤ - ٣٧٨ م ) بجوار مدينة ادرنة . وقد سميت الموقعة باسم تلك المدينة ، وفيها الحق القوط الغربيون هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطي كانت لها مضاعفاتها واثارها الخطيرة . وقد اعتبرت هذه المعركة لفترة طويلة احدى المعارك الفاصلة في التاريخ (١٠) . ويرى احدى المؤرخين الحديثين ، وهو سولومون كاتز S. Katz ، ان سنة ٣٧٨ م تعتبر البداية الحقيقية للغزوات الجرمانية في أوروبا ، وبالتالي حدا فاصلا بين العالمين القديم والوسيط (١١) .

### النظرية السابعة :

بينما تضع فئة أخرى من المؤرخين سنة ٣٩٥ م كنقطة التحول الى التاريخ الاوروبي الوسيط ، على اساس ان الامبراطور ثيودوسيوس الكبير Theodosius I, the Great ( ٣٧٩ - ٣٩٥ م ) قسم في هذه السنة التي اختتم بها حكمه ، الامبراطورية الرومانية التي كانت لا تزال تحت حكم شخص واحد ، الى قسمين منفصلين مستقلين تماما عن بعضهما ،

وليس كما سبق في عهد دقلديانوس لان تقسيمة هو واتباعه للامبراطورية كان تقسيما سوريا فحسب . اذ كانت الامبراطورية تحت حكم ثيودوسيوس لا تزال وحدة واحدة في مجسوعها على الرغم من انقسامها انقساماً فرعياً الى فرعين . ولكن ثيودوسيوس قسمها الى قسمين : احدهما غربى والاخر شرقى . وقد اعطى الجزء الشرقي لابنه اركاديوس Arcadius ، والجزء الغربي لابنه الاخر المسمى هونوريوس Honorius . واصبح كل منهما مستقلاً عن الآخر ، واسس لنفسه دولة واسرة قائمة بذاتها . وهذا يعنى — بكلمة مختصرة — بداية دولة جديدة في الشرق في الوقت الذى كانت فيه دولة الغرب في طريقها الى التدهور والانهيار امام جحافل الجرمان البرابرة (١٢) .

#### النظرية الثامنة :

فكرة اخرى قال بعض المؤرخين ، هى ان سنة ٤١٠ م تعتبر بداية العصور الوسطى ، على اساس القوط الغربيين تحت قيادة ملكهم الشهير المسمى الاربك Alaric يكتسحون مقدونية وما وراءها من الاراضي اليونانية في سنة ٤٠٠ م . الا أن القائد الرومانى المدعو ستيليكو Stilicho قام بحركة دفاعية ضد هذا العنصر من البرابرة وهزمهم شر هزيمة سنة ٤١٠ م . فاضطر هؤلاء ان يبحثوا لهم عن موضع اخر يلتصقون فيه سبل الرزق والاقامة ، فاتجهوا غرباً الى ايطاليا . وكان دخول القوط الغربيين ايطاليا له اهمية الكبرى في التاريخ ، بحيث جعل بعض المؤرخين يعتمدون على هذه الحقيقة في بداية التاريخ الاوروبى الوسيط . وذلك انه في سنة ٤١٠ م تمكن هؤلاء البرابرة من اكنساح ايطاليا بما فيها روما نفسها ، وهذا يعنى نهاية عصر وبداية عصر اخر في تاريخ أوروبا (١٣) .

#### النظرية التاسعة :

ويرى غالبية المؤرخين ان سنة ٤٧٦ م هى اصلح وانسب بداية لتاريخ القرون الوسطى الاوروبية ، لان هذه السنة تعتبر اخر العهد بالامبراطورية الرومانية القديمة في الغرب . فاستيلاء البرابرة على روما نهائياً وقضاؤهم

على شبح الامبراطورية الرومانية الغربية في شخص آخر اباطرتها الضعاف وهو رومولوس اوجستولوس Romulus Augustulus في تلك السنة عندما ارسل القائد الجرمانى ادواكر Odoacer شارات تلك الامبراطورية من روما الى الجالس على عرش القسطنطينية في الشرق ، وهو وقتذاك الامبراطور زينو Zeno ( ٤٧٤ - ٤٩١ م ) - كان يعنى انتهاء الانفصال الظاهري الذى حدد خطوطه دقلديانوس ومن جاء بعده من الاباطرة ، ثم عززه قسطنطين الكبير في بدايات القرن الرابع واكده ثيود وسيوس الكبير في اواخر ذلك القرن . وهكذا اصبح الانفصال في بدايات القرن الرابع واكده ثيود وسيوس الكبير في اواخر ذلك القرن . وهكذا اصبح الانفصال حقيقة واقعة . والنتيجة ان حقوق الحاكم العربي انتقلت الى الجالس على عرش القسطنطينية في الشرق . وبذلك تنتهي الامبراطورية الرومانية القديمة بحضارتها ونظامها العتيق ، وبنهايتها تبدأ العصور الوسطى بأفكارها وفلسفتها ( ١٤ ) .

#### النظرية العاشرة :

وترى مجموعة اخرى من المؤرخين ان عهد الامبراطور جستنيان الاول Justinian I ( ٥٢٧ - ٥٦٥ م ) هو الذى يميز نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط في اوربا .

ذلك أن حكمه اتسم بسمه هامة اضفت عليه طابع الوحدة ، ونعنى بذلك محاولاته لاسترداد املاكه الضائعة التى استولى عليها الجرمان في غرب اوربا ، وهى ايطاليا التى كانت تحت سيطرة القوط الشرقيين ، واسبانيا التى كانت في قبضة القوط الغربيين ، وشمال افريقية التى كانت في ايدي الوندال Vandals ، وجهوده في هذا المضمار لاعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه ايام اسلافه الرومان القدماء ، وبمعنى اخر اكثر وضوحا تعتبر هذه الفئة من المؤرخين ان جستنيان ، عند تقييم محاولته

هذه ، يعتبر اخر اباطرة الرومان وبداية عهد جديد • ويكفي ان المعاصرين له اعتبروا ، بعد نجاحه في حملاته في ايطاليا واسبانيا وشمال افريقية ، انه أحيا الامبراطورية من جديد ، وان اثبت الواقع بعد موته خلاف ذلك (١٥)

### النظرية الحادية عشرة :

وهناك فئة أخرى من المؤرخين تجعل مدخل التاريخ الاوربي الوسيط ما بعد عهد جستنيان الاول ، اى ما بعد سنة ٥٦٥ م • اذ وضع للبيان منذ اواخر ذلك العهد انه لم يعد هناك امل على الاطلاق في احياء الدولة الرومانية التى قضى البرابرة عليها وعلى معالمها وحضارتها ، وانشؤوا دولا وممالك جديدة على انقاضها لها نظم وحضارة جديدة مغايرة • لقد اثبتت الاحداث ان الامل تلاشى في استرجاع ممتلكات تلك الدولة في الغرب الاوربي • واصبح من واجب الدولة الرومانية في الشرق التحول عن الطريق القديم الى طريق جديدة ترتبط بالوضع الجغرافي للجزء المتبقى من الدولة الرومانية • ولم يكن امامها الا أن تسلك هذا السبيل ، بمعنى انه كان يجب على تلك الدولة ان تتجه اتجاهها شرقيا يزنطيا طبقا لمقتضيات الظروف والاحوال الجديدة • ويكفى للتدليل على صحة هذا الراى • ان الاباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان قد تركوا الغرب وممالكه الجرمانية لتكون تكوينا جديدا وتنمو على اساس يخالف الاساس الكى قامت عليه دولة الرومان القدماء • وقد حاول الامبراطور جستين الثانى Justin II ( ٥٦٥ — ٥٧٨ م ) الذى خلف جستنيان اعادة الكرة ، لكنه فشل فشلا ذريعا ، وكانت النتيجة ان ذهب عقله (١) •

### النظرية الثانية عشرة :

يذهب عدد آخر من الكتاب • وعلى رأسهم جيون لامونت ، ان العصور الوسطى تبدأ في ليلة عيد الميلاد في روما سنة ٨٠٠ عندما تم تتويج شارلمان او شارل العظيم Charles, the Great ( ٧٦٨ — ٨١٤ م ) امبراطورا على الغرب على يد احد بابوات روما هو البابا ليو الثالث Leo III ( ٧٩٥ — ٨١٦ م ) ، وعندما تم احياء

الامبراطورية القديمة ، التي كانت قد انتهت في اواخر القرن الخامس ،  
تحت اسم جديد هو «الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة» ، لتلائم مع  
مقتضيات الظروف والاموضاع الجديدة المغيرة ، بعد قضاء الجرمان  
والمسيحية على الوثنية والدولة الرومانية القديمة •

لقد كانت هذه هي الدولة الرومانية الجرمانية المسيحية الناشئة في  
الغرب • وحجة الفئة التي تأخذ بهذا الرأي ان شارلمان كان - في الواقع -  
آخر اباطرة الرومان بالمعنى الروماني القديم ، وان فشل مشروعه لاهياء دولة  
القيصرية القدماء بضم الجزء الشرقي الى املاكه ، لهو برهان واضح على ان  
ظروف العالم الأوروبي قد تغيرت تغيرا تاما لا يمكن العودة بها الى  
الوراء (١٦) • ويرى المؤرخ نورمان بينزان هذه النظرية ، وان كانت تشبع  
رغبة مؤرخ النظريات السياسية او الباحث في تاريخ اوروبا الغربية ، الا انه  
ليس لها قيمة كبيرة بالنسبة للباحث المدقق في تاريخ الدولة الرومانية  
الشرقية (١٧) •

ومن عرضنا لهذه النظريات ، يتضح لنا انه في مثل هذه الموضوعات  
يدلى الكتاب والمؤرخون وواضعو النظريات السياسية كل بدلوه • فيحدد  
كل باحث التاريخ الذي يراه انسب من غيره من وجهة نظره ، مدعما اياه  
بالحجج والاسانيد • ولكل رأى ، بطبيعة الحال ، اعتباره ، وهناك ، الى  
جانب ما ذكرنا ، نظريات اخرى اقل اهمية لها من يؤيدونها ويأخذون بها  
وهناك من يققون منها موقف المعارضة وعدم التأيد •

ولكن ، مهما يكن الخلاف بين المؤرخين والدارسين على تحديد النقطة  
التي ينتهى اليها التاريخ القديم ويبدأ منها العصر الوسيط في اوروبا ، الا  
اننا نخلص مما سبق انه كانت هناك عوامل كثيرة متشابكة معقدة متداخلة  
في بعضها ، بعضها مباشر والبعض الآخر غير مباشر ، والبعض جوهري

والآخر ثانوى ، هيأت الجو لقيام العصور الوسطى • ولم تكن مثل هذه العوامل وليدة الساعة ، وانما استغرقت سنين ذات عدد قبل ان تبدأ تلك العصور نفسها • ونستنتج ايضا ان اقرب الفروض الى الصحة والواقع ، والى الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية التى قامت فى اوربا آنذاك ، ان العصور الوسطى فى اوروبا تبدأ بلا نزاع فى القرن الخامس الميلادى • كما انها انتهت حوالى القرن الخامس عشر للميلاد لأسباب اخرى مغايرة سنعرض لها فى دراسة تالية • ولذلك تكون تلك العصور قد اقتطعت من تاريخ الانسانية حوالى عشرة قرون تميزت بنوع من المدنية والحضارة الوسيطة المتوسطة الشأن التى قامت كجسر بين المدنية الرومانية الزاهرة وبين الحضارة العملاقة التى ترتبط بالتاريخ الحديث •

والأخذ بالرأى : ان العصور الوسطى الاوروبية تبدأ فى القرن الخامس ، مبنى فى الواقع ، على الاتجاهات التاريخية التى نشأت فى اوروبا حينذاك • اذ شاهد الانسان الذى عاش فى القرن الخامس من التغيرات الهامة والاحداث الخطيرة فى مجرى التاريخ البشرى ما يبين بصفة حاسمة تغييرا جذريا فى طبيعة اوروبا يدعو الى الاعتقاد بأن العالم القديم قد انتهى وان عصرا جديدا قد حل • لقد شاهد رجل القرن الخامس انتهاء الدولة الرومانية بحضارتها ونظمها وبداية البربرية فى التاريخ الأوروبي ، كما شاهد زوال الوثنية وعبادة الاباطرة وتأصل المسيحية على حد قول احد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو ادوارد جيبون (١٨) •

لقد كانت الدولة الرومانية القديمة ، بحضارتها وقوتها وعظمتها المعروفة تنهار بسرعة مذهلة فى ذلك الوقت ، كما بدأت العناصر المتبربرة تتدفق داخل حدودها لتؤسس ممالك لها على انقاضها لها نظمها وتقاليدها



الخاصة بها • بينما أخذت الديانة المسيحية في الظهور والانتشار والاستقرار في أوروبا وفي روما نفسها على انقاض الوثنية وعبادة الأباطرة • وهكذا يتداعى النظام القديم من اساسه في السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفكر والحرب ، وتقوم على انقاضه أمم جديدة ذات حكومات مغايرة لما كان معروفا عند الرومان القدماء • ولقد كان لهذه الامم وحداتها الاجتماعية وحضارتها وانظمتها الخارجية وتفكيرها الخاص بها ، كما كان مشاكلها الأدبية والمادية والاجتماعية التي تختلف عما كان حادثا عند الرومان • كل هذا يؤكد ، بما لا يدع مجالا للشك ، ان التاريخ القديم قد انتهى ، وحل محله عصر آخر في أوروبا •

ويلاحظ ان هذه التغيرات التي تحدثنا عنها لم تكن فجائية ، وانما كانت عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة في فترات غير قصيرة من الزمن • اذ لا يمكن الاخذ بفكرة التحديد الرياضي للانتقال بين التاريخ القديم والعصر الوسيط في سنة معينة او يوم بذاته يكون ما قبله قديم وما بعده وسيط ، كما لو يسدل الستار على الماضي في ساعة معينة ويكشف عن الجديد بعدئذ على الطريقة المسرحية • فتحديد السنين والتواريخ — حسبما اسلفنا — مسألة اعتبارية بحتة المقصود بها تسهيل فهم التاريخ وتقريبه الى الأذهان قدر المستطاع •

## المراجع والمصادر

- Cf. Coulton, G. G., *The Medieval Scene*, Cambridge, 1961, ( ١ )  
1-2 ; Ker, W. P., *The Dark Ages*, London, 1955, If.  
Cantor, N. F. (ed.), *The Medieval World : 300-1300*, New York, 1963, I.

انظر ايضا كونتون ( ج . ج . ) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة - ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف - ط . ثانية ( الاسكندرية ١٩٦٧ ) ، ص ٥ و ٣٥ - ٣٦ . هذا ، ويذكر المؤرخ نورمان كانتور ان فريقا من المؤرخين يميل الى تقسيم الفترة الممتدة بين عامى ٣٠٠ و ١٣٠٠ م الى مرحلتين متميزتين هما : العصور الوسطى المبكرة وتمتد من بداية القرن الرابع الميلادى حتى اواسط لقرن الحادى عشر . وخلال تلك الفترة من الزمن بدأت تظهر حضارة جديدة هى خليط من الديانة المسيحية وبقايا التراث اليونانى والرومانى وحضارة الجرمان وأنظمتهم . وعلى هذا تعتبر تلك القرون السبعة أو الثمانية التى تميز العصور الوسطى المبكرة ، بمثابة فترة الطفولة أو مرحلة الصبا للعالم الاوروبى . وهى تتميز بالقلقل والاضطرابات والكوارث التى حلت بالقرب بسبب غزوات العناصر الجرمانية المتبربرة التى كانت دون لعالم لرومانى مدنية وحضارة . واما المرحلة الثانية فهى التى تعرف باسم العصور الوسطى الحقيقية . انظر عن ذلك :

- Cf. Painter, S., *A History of the Middle Ages : 284-1500*, London, ( ٢ )  
1966, 26 ff.; Le Goff, J., *La Civilisation de l'Ocident Médiéval*, Paris.  
1965, 27 ff.

- Runciman, S., *Byzantine Civilisation*, London, 1948, 13 ff.; Painter, ( ٣ )  
p. cit., 10 ff.

- ( ٤ ) حول تقسيم التاريخ الى حقبة وعصور وتحديد بداية ونهاية كل حقبة وعصر ، انظر :

- Gwatkin, H.M. & Whitney, J.P. (eds.), *The Cambridge Medieval History*.  
Vol. I, Cambridge, 1936, 1-2 ; Davis, H. W. C., *Medieval Europe*, London.  
1941, 5-9.

- Baynes, N. H., *The Byzantine Empire*, London, 1939, 1-2; ( ٥ )  
Runciman, op. cit., 20 - 24 ; Lamonte, J., *The World of the Middle*  
*Ages*, New York, 1949, 8-9.

- Runciman, op.cit., 24 - 28 ; Cantor, op. cit., i ff. ( ٦ )
- Runciman, op. cit., 14 ; Previté - Orton, C.W., The Shorter ( V )  
Cambridge Medieval History, Vol. II, Cambridge, 1952, 10 ff.; LaMonte,  
op. cit., 5.
- Cf. Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans, by J. ( A )  
Hussey, Oxford, 1956, 45 - 46.
- LaMonte, op. cit., 42 ; Painter, op. cit., 21. ( ٩ )
- LaMonte, op. cit., 42. ( ١٠ )
- Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe, ( ١١ )  
New York, 1960, 88 - 89.
- Katz, op. cit., 90; Hussey, J.M., The Byzantine World. London, 1957, 14 ( ١٢ )
- Katz, op. cit., 91-92. ( ١٣ )
- Katz, op. cit., 93 ; Baynes, op. cit., 8. ( ١٤ )
- هذا ، ويعارض المؤرخ جون لامونت هذه النظرية قائلا : « عندما خلع  
ادواكر في سنة ٤٧٦م الشاب رومولوس أوجستولوس عن العرش -  
ووجد رسميا شطري الامبراطورية الغربى والشرقى ، قد اتخذ خطوة  
اعتبرها المؤرخون لاجيال طويلة بمثابة نهاية الامبراطورية الرومانية .  
ولا شك انه لم يحدث شىء من هذا القبيل . وواقع الامر ان عام ٤٧٦م  
تاريخ لا يستحق الذكر على الاطلاق ، لان مسالة اعادة توحيد شطري  
الامبراطورية لم تكن امرا غير عادى . فمنذ ايام دقلديانوس كان  
القسمان يتحدان وينفصلان عن بعضهما بصورة تلقائية ، بحيث لم  
يكن هناك جديد فى الموضوع » . انظر .
- LaMonte, op. cit., 41. ( ١٥ )
- Baynes, op. cit., 8 ; LaMonte, op. cit., 51 ff.
- Katz, op. cit., 115 ; LaMonte, op. cit., 67-68. ( ١٦ )
- LaMonte, op. cit., 41-42.
- Baynes, op. cit., 8. ( ١٧ )
- ( ١٨ ) أنظر رأى جييون وتعليق المؤرخ كولتون عليه فى : كولستون : عالم  
العصور الوسطى فى النظم والحضارة ( الترجمة العربية ) ، ص ٧ و ٦٦  
و ٥٥ . انظر ايضا رأى كل من ديفز ولامونت :
- Davis, op. cit., 7 ; LaMonte, op. cit., 38.



# مكة المكرمة مركز الدعوة العباسية

الدكتور على عبد الرحمن أبا حسين  
مدير مركز المحفوظات - البحرين

اعتبر المؤرخون ان ( الحميمة ) و ( الكوفة ) و ( خراسان ) مراكز  
الدعوة العباسية سواء في دور السر والكتمان حتى دور الظهور وعلان  
شخصية الخليفة العباسي على منبر الكوفة سنة ١٣٢ هـ .

ولدى بحثي المتواصل اُهتديت الى أن هناك مركزا مدبرا ورئيسا  
تتصل به هاتيك المراكز الثلاثة وفيها يختفي الامام تحت ستار من التعبد  
في البلد المقدس مكة المشرفة وهناك ملتقى الدعاة والنقباء ومن مكة يوجه  
الامراء واليه ترسل الاموال من سائر الامصار للامام القابع هناك بعيدا عن  
انظار الأمويين .

ان هذا المركز هو مكة المكرمة حيث ولد العباس جد الخلفاء  
العباسيين واليه تسببت الدولة العباسية فقد كانت له المكانة التي ورثها عن  
أبيه عبد المطلب وجده هاشم وفي المكان المناسب من الديار المقدسة من  
أرض الحجاز كان الفكر السياسي يحرك الدعاة ويهيئ الرأي العام لنجاح  
دعوة سرية تمخضت عن الدعوة العباسية وكان موعدهم في موسم الحج  
مع كبيرهم الامام فيعطونه ويأخذون منه وهم يقدمون له ما لديهم من  
غرس غرسوه في نفوس الناس في المراكز الاخرى وفي الامصار الاسلامية  
الدانية والقاصية .

لقد كان للعباس عم النبي ( ص ) منزلة كبيرة في مكة قبل الاسلام  
اذ كان بيده ( السقاية ) وهي احدى الوظائف التي توزعتها بطون قريش •  
وظلت سقاية الحجيج بيد العباس بن عبد المطلب ولم تنزل بيده في الجاهلية  
وصدر الاسلام اذ اقرها رسول الله ( ص ) بيده لما دخل النبي عليه السلام  
مكة يوم انتح في السنة الثامنة للهجرة •

ولما توفي العباس ولي السقاية بعده ابنه عبد الله واستمرت في عقبه  
الى أن آلت الخلافة لبني العباس فعهدوا بها الى آل الزبير لانشغال بني  
العباس في الحكم (١) • وعهد للعباس وظيفة أخرى هي ( عمارة المسجد  
الحرام ) ومهمته فيها ان لا يدع احدا يسب احدا في المسجد الحرام في  
مكة المشرفة ولا يقول فيه هجراً (٢) •

هاتان الوظيفتان كانتا بيد العباس بن عبد المطلب مما يدل على  
مكاته بين قومه ، فسقاية الحجاج في بلد تفتقر الى الماء وهو غاية في  
الاهمية • ثم عمارة البيت الحرام يحتاج الى سلطة تحافظ على الامن فيه  
فلا يدع احدا يعتدى على أحد • وكانت العرب قبل الاسلام وبعده تعجل  
الكعبة وتقدها وللمسجد الحرام في نفوسهم مكانة محترمة حيث يسود  
الامن فيه فلا يجوز أن يقول المرء كل ما من شأنه ان يعيب الآخر كان ذلك  
في بيئة تسود فيها العصبية القبلية وما ينجم عنها من قطيعة وهجر  
وذم • وقد عهد للعباس بن عبدالمطلب بهذه المهمة وهي مهمة حفظه النظام  
والأمن • مع ماكان للعباس من مكانة مالية فهو من كبار اصحاب المصارف  
اذ قال عنه النبي ( ص ) في خطبة الوداع ( كل ربا في الجاهنية موضوع  
واول ربا أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب (٣) والعباس مكان يقع  
في زاوية زمزم على يسار من دخل يسمى ( موضع العباس ) ويبعد هذا  
الموقع عن ( الحجر الاسود ) خمسة وتسعون ذراعاً (٤) •

وذكر الدارقطني في الموقف ان أول من كسا الكعبة الديباج هي  
والدة العباس (تتيله) بنت حيان • كانت اضلت العباس صغيرا - وقيل  
ضرار شقيق العباس - فنذرت ان وجدته ان تكسو الكعبة الديباج (٥) •  
وهذا ان دل على أمر فأنا يدل على مكاتبتها بين قومها وثروتها بحيث  
استطاعت ان تكسو الكعبة الديباج ولم يكسها في التاريخ امرأة بل  
كساها الخلفاء والسلاطين •

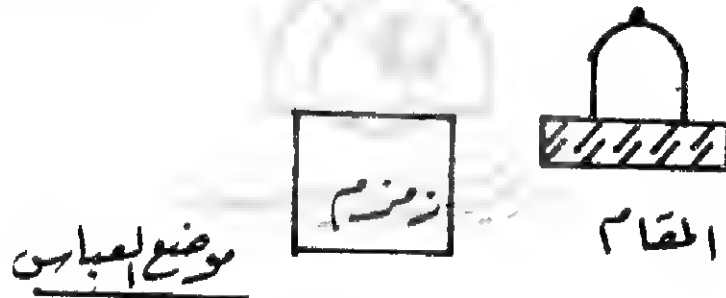
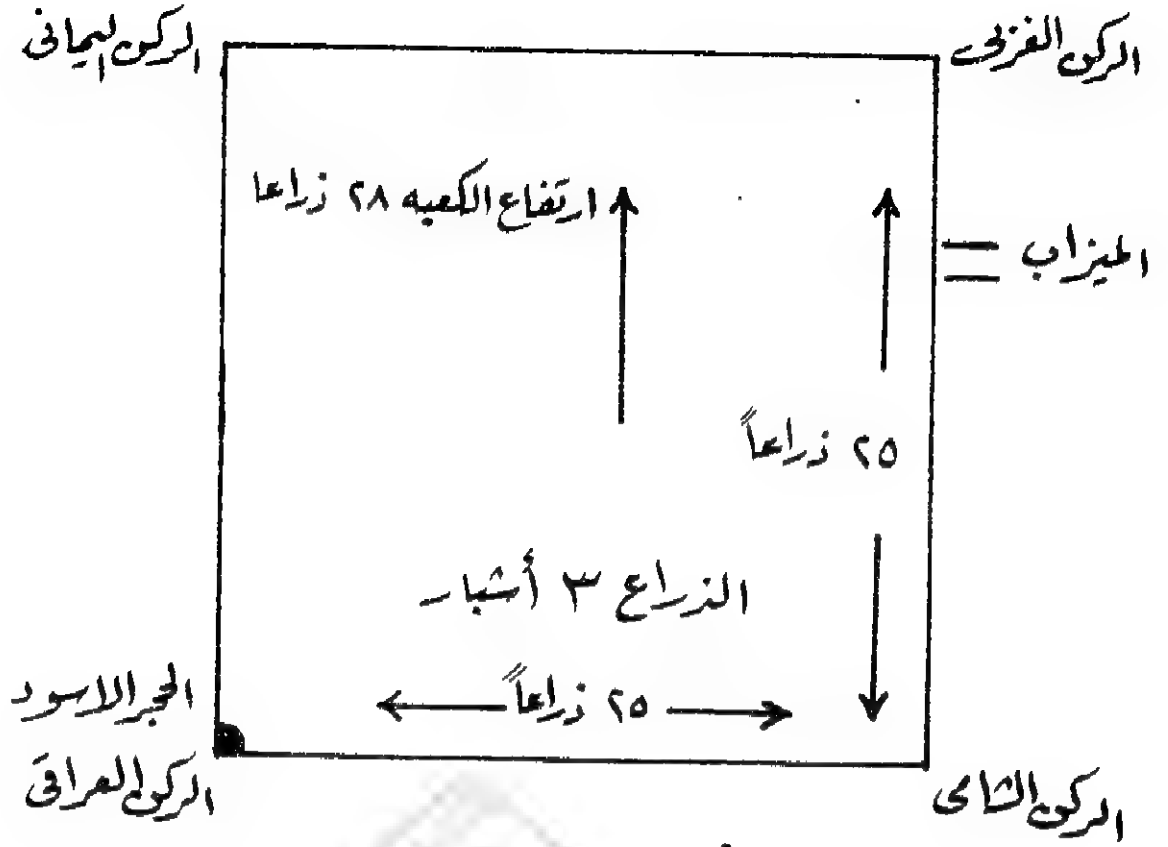
وللعباس بن عبد المطلب (دار) في مكة تقع في المسعى بين الصفا  
والمروة جنب الدار التي بيد جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن  
العباس • ودار العباس هي الدار المنقوشة التي عندها العلم الذي يسعى  
منه من جاء من المرورة الى الصفا بأصلها ويزعمون انها كانت لهاشم بن  
عبد مناف • وفي دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما : اساف ونائلة:  
وهما صنمان كانا يعبدان في الجاهلية وهما ركن الدار (٦) •

ودار العباس تقابل باب العباس وهو من ابواب الحرم المكي الشريف  
وكان يسمى باب الجنائز (٧) ويقع باب العباس عند علم المسعى من خارج  
وفيه ثلاث مداخل ودعى بباب الجنائز لان الجنائز يصلى عليها فيه (٨)  
وباب العباس أو باب النعوش أو باب الجنائز يقع قرب الصفا (٩) •

وتوفي العباس بن عبد المطلب في سنة ٣٣ هـ عن عشرة ذكور سوى  
الاناث • ومن اولاده عبد الله بن عباس رضي الله عنه •

واصبحت دار العباس رباطا يسمى (رباط العباس) على ما ذكره  
الاسدي بتاريخه في القرن الحادي عشر الهجري (١٠) •

مخطط تقريبي للكعبة المشرفة وما حولها (١١) •



تلك مكانة العباس بن عبد المطلب اورثها لابنه (عبد الله بن عباس) رضي الله عنه ابن مكة البار ولد فيها قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين ايام قاطع المشركون من أهل مكة مسلبي بنى هاشم وبنى عبد المطلب وغيرهم (١٢) وشب في حجر النبي (ص) وترعرع في مكة وكانت له مكائته العلمية بحكم صلة القرابة وكثرة اتصاله بالرسول (ص) • ولما انتقل عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الاعلى كان لعبد الله بن عباس ثلاث عشرة سنة وقيل كان في الخامسة عشرة (١٣) •

لقد اهتم عبد الله بن عباس بجمع الحديث والتفسير ثم اخذ يجلس للعلم في الحرم المكي الشريف وازدحم رجال الحديث والتفسير خاصة



في موسم الحج بمجلسه • واتخذ من موضع ابيه العباس مكانا له على يسار الداخل الى الحرم في زاوية زمزم التي تلى الصفا والوادي • وهاجر ابن عباس الى المدينة في العهد الأموي ، ثم عاد الى مكة • وهو الذي أشار على الحسين بن علي رضي الله عنه ان لا يخرج الى الكوفة في ايام يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان سنة ٦١ هـ وبقي ابن عباس بمكة ينشر معارفه وعلومه وحلقت حوله حلقات واسعة في المسجد المكي الشريف (١٤) • ثم انتقل الى الطائف وفيها توفي سنة ٦٨ هـ وقيل في سنة ٦٩ هـ (١٥) وخلف عبد الله بن عباس من الاولاد (علي) و (العباس) و (عبيد الله) و (الفضل) و (عبد الرحمن) ومن الاناث (لبابة) و (اسماء) (١٦) •

ورغم اهتمام ابن عباس بنشر العلم والمعرفة الا انه تمسك بوظيفة (السقاية) : سقاية الحاج في المسجد الحرام التي ورثها عن ابيه فقد احتفظ بها وجعلها في ذريته •

وجلس علي بن عبد الله بن عباس مجلس ابيه فكان اذا قدم مكة حاجا أو معتمرا عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقتها ولزمت مجلس علي بن عبد الله بن العباس اعظاما واجلالا وتبجيلا فأن قعد قعدوا وان نهض نهضوا وان مشى مشوا جميعا حوله وكان لا يرى لقريش في المسجد الحرام مجلس يجتمع فيه حتى يخرج علي بن عبد الله من الحرم المكي • حدث عنه أولاده (محمد) و (داود) و (عيسى) و (سليمان) و (صالح) واسند عامة حديثه عن عبد الله بن عباس (١٧) •

كيف لا يكون لعلي بن عبد الله بن عباس مكانة وهو الذي نهل العلم النبوي عن ابيه الذي لازم الرسول (ص) ففي علمه اصالة وليس بينه وبين رسول الله الا والده عبد الله بن عباس وهو قريب عهد بالنبوة عاصر صحابة الرسول وآل بيته رضوان الله عنهم اجمعين فلا غرو اذا ما لازم المكيون ومجاورو المسجد الحرام مجلس ابن عباس وعلي بن عبد الله

ابن عباس وهما قد تخصصا في حفظ حديث الرسول ( ص ) وتفسير أى القرآن المجيد . واصبحت لعللي مكانة في نفوس اهل مكة تلك المكانة العلية التي تمتع بها والده والمنزلة الاجتماعية التي اتصف بها جده العباس ابن عبد المطلب فأصبحت قريش تعظمه وتجله مع ما كان يتحلى به من صفات فتنقاد اليه الناس كل هذا مهد للزعامة السياسية في المستقبل لابنائه واحفاده وان لم نعلم عنه نشاطا سياسيا بقدر ما علمنا نشاطه العلمي وشخصيته المرموقة والمحترمة بين اهل مكة فقد ذكر عطاء بن أبى رباح — تلميذ ابن عباس — فضل عبد الله بن عباس كما ذكر على بن عبد الله بن عباس وابنه محمد وشخصية ابن عباس وابنه على وكيف أجاب رجلا من هذيل جاء يسأله فأثنى عليه الرجل وأشار الى شبه بجده عبد المطلب بجماله وهيبته وطول قامته ( ١٨ ) وتوفي على ابن عبد الله بن عباس في سنة ١١٨ هـ في ( البلقاء ) من بلاد الشام كان معتقلا هناك اعتقله الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ( ١٩ ) . وسكت المؤرخون عن سبب اعتقاله . فهل ان الخليفة الأموي اوجس في نفسه خيفة منه لما يتمتع به من مكانة في نفوس المكين وتعظيم نفوذه فأراد ابعاده عن مكة وهي الثرمومتر السياسي للعالم الاسلامي اذ يؤمها الحجاج والمعتمرون ورجال السياسة والقيادة والطامعون في الخلافة فكن الخليفة الأموي يريد ان يضعه تحت نظارته . أو أن الخليفة وجد عنده نشاطا سياسيا فأعتقله وربما ان بعض بني العباس قد استقروا في الحمية بعد ان اقطعهم معاوية فيها فسالوه ( ٢٠ ) . لقد توفي على بن عبد الله بن العباس وخلف ابنائه الذين سيكون لهم شأن عظيم في عالم السياسة وسينهضون بالدعوة العباسية ومنهم : —

سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وهو أول من بنى القبة التي على زمزم في موضع مجلس جده ابن عباس وذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك وكان والى مكة يومئذ خالد القسرى ( ٢١ ) . وهنا دلالة على أن بني العباس كانت لهم مكانة في مكة منذ ظهور الاسلام فأنهم يقومون

بعمران في المسجد الحرام في أيام عنفوان الدولة الاموية في الشام • والدارس للتاريخ العباسي يجد ان عمران المسجد المكي لم يتم الا على ايدي الخلفاء والوزراء والامراء والسلاطين فكيف يقوم سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس في عمران بالمسجد الحرام وخلافة الامويين لازالت قائمة وليس له من الحكم شيء في عهدهم ؟ ان دل هذا الامر فأنما يدل على مركزه وزياده ثروته وتمهيده للحصول على تأييد الرأي العام الاسلامي متخذاً من مكة المكان المناسب وفيها ملتقى المسلمين من كل فج عميق • كما انه اراد الحفاظ على مكانة جده العباس فبنى قبة تبقي اثرها قائماً يذكر اهل مكة ووفود بيت الله الحرام بسكانه العباسيين • واستقر بنو العباس أو بعضهم في مكة قبل ظهور الدولة العباسية وكانت لهم ( دور ) ذكرها مؤرخوا البلد الحرام ومن دور العباسيين في مكة : -

دار العباس بن عبد المطلب التي عندها العلم الذي يسعى منه من جاء من المروة الى الصفا ( ٢٢ ) •

ودار عبد الله بن عبيد الله بن العباس وتقع على جبل الراحة والذي يشرف على شعب الصفي أو صفي السباب فوق شعب عامر ( ٢٣ ) •

ودار عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس قرب المروة •

ودار لبابة ابنة علي بن عبد الله بن العباس التي عند القواسين بفهم شعب الخوز كانت لحنظلة بن ابي سفيان وكانت اذا قدمت العير من السراة والطايف وغير ذلك تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل تحيط امام هذه الدار في رحبة تقع امامها فتباع فيها ( ٢٤ ) • وبنت لبابة بنت علي بن عبد الله بن عباس مسجداً على باب شعب علي رضي الله عنه وسمى المسجد ( مسجد الكباش ) وقبل ان مسجد الكباش يقع على يسار الذهاب الى عرفات وفي شمالي جمره العقبة ( ٢٥ ) •

ودار محمد بن داود بن علي بن عبد الله بن العباس وهي الدار التي  
صارت لجعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وتقع بالحكمة وكان  
موضع بيت الازلام مما يلي دار ادريس في مبطح السيل بأسفل مكة (٢٦)  
ويشرف على جبل الصيرة الذي عند الميل على يمين الذهاب • الى منى •  
ولمحمد بن داود بن علي دار اخرى على الطارمة عند الغزالين ( ٢٧) لجعفر  
ابن سليمان دار في زقاق العطارين (٢٨) •

ودار لمحمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بفم شعب الخوز  
على طريق منى وطريق العراق ويشرف على حايط مورش وكان في شعب  
الخوز المسمى ( النوية ) يشرف على جبل حراء ويحتمل ان يكون قرب  
المعابدة (٢٩) اذا جاوزت المقبرة على يمين الذهاب الى منى (٣٠) وسكنت زينب  
بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس في مكة وأمرت بحفر بئر عكرمة  
بأصل الخندمة (٣١) وجدير بالذكر ان هذه البئر التي امرت زينب بحفرها  
تذكرنا بتاريخ الامويين ايام فتح الرسول (ص) مكة في السنة الثامنة للهجرة  
وعن هذه البئر قال الشاعر : —

انك لو شهدت يوم الخندمة — اذ فر صفوان وفر عكرمه

وصفوان من بني امية وقد فر مع عكرمة بن ابي جهل •

اما العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فأن داره (بالمروة)  
على الصيارفة وتسمى الدار البيضاء ابتناها معاوية بن أبي سفيان وبابها من  
ناحية المروة ووجهها شارع على الطريق العظمى • وكانت فيها طريق الى  
جبل الديلمي • فلم تزل حتى اقطعها العباس بن محمد بن علي  
( اخو السفاح والمنصور ) فسد ذلك الطريق وسميت ( البيضاء ) لانها  
بنيت بالجص ثم طليت به فكانت كلها بيضاء (٣٢) وهنا تتساءل كيف أصبحت  
دار معاوية بن ابي سفيان الخليفة الاموي التي بناها على المروة للعباس  
بن محمد بن علي العباسي ؟ ثم كيف استطاع العباس ان يسد الطريق المؤدى

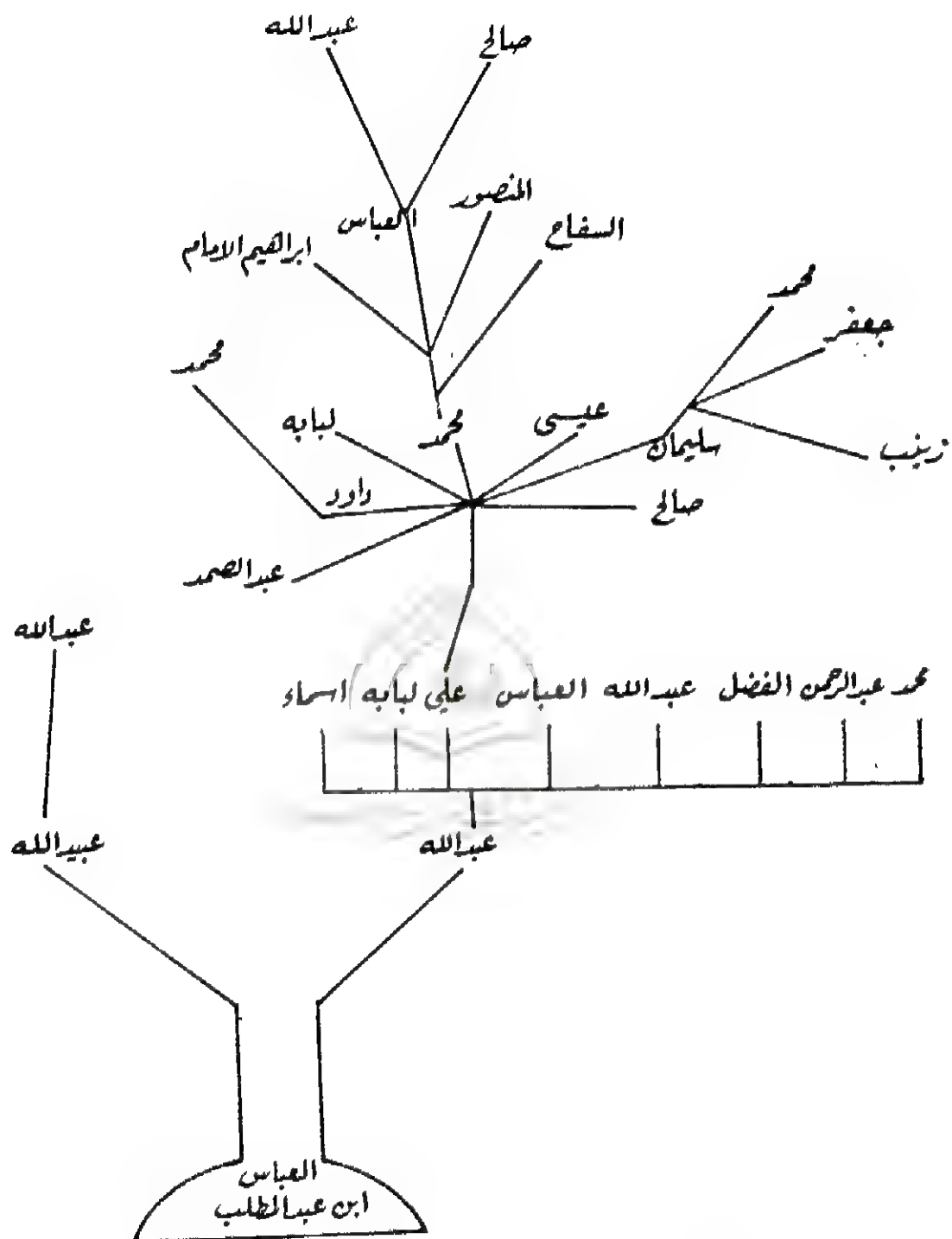
الى جبل الديلمي ؟ لا بد وان له من المال والجاه والسلطان بمكة بحيث استطاع هذا الرجل العباسي ان يشتري تلك الدار وهي دار خليفة أموي وله من النفوذ بحيث استطاع ان يسد الطريق . ولعل الدار التي بمكة على الصيارفة حيال المسجد الحرام وهي دار العباس بن محمد بناها وامر قومه ان لا يرفعوا دورهم على الكعبة وان يجعلوا اعلاها دون الكعبة المشرفة لتكون دونها ، اعظاما للكعبة واورد الازرقعي : قال جدي فلم يبق بمكة دار لسلطان ولا غيره حول المسجد الحرام تشرف على الكعبة الا هدمت أو - خربت الا هذه الدار فانها بقيت الى الآن (٣٣) .

ونلاحظ مكانة العباس بن محمد تلك المكانة الاجتماعية بين اهل مكة قبل نجاح الدعوة العباسية ومكاته عند ولاة مكة فهو يأمر وينهى وامره نافذ فقد هدمت كل الدور التي كانت اكثر ارتفاعا من الكعبة الا دار العباس التي على الصيارفة وكان له قوم يأمرهم وهم يأترون بأمره حتى لقد أمرهم ان لا يرفعوا دورهم على الكعبة وقد فعلوا ما اراد . أما داره - فانها بقيت الى ايام الازرقعي الذي عاش في القرن الثالث الهجري ثم ادخلت في توسعة الحرم مع دار الازرقعي ودور اخرى (٣٤) .

وبنى عبد الله بن العباس بن علي بن عبد الله بن العباس - (مسجد الراية) وهو من المساجد التي صلى فيه الرسول (ص) ويعد عن جدار باب بني شيبه - وهو من ابواب الحرم الشريف - نحو سبعمائة ذراع واربعة وعشرين ذراعا بذراع الحديد وبذراع اليد أكثر من الف ذراع وخمسين ذراعا (٣٥) . لقد بنى عبد الله بن العباس بن محمد المسجد الذي ركز فيه رسول الله (ص) رايته حين فتح مكة وهذا مما له كبير الاثر في نفوس المسلمين عامة وسكان مكة اذ يعمرُوا مساجد الله وفي ذلك تأييد لهم من الرأي العام اذا ما نادى المنادى بدعوة عباسية .

ودار صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس

وتدعى الخالصة وتقع في طريق منى • وقيل ان داره تقع عند دار خالصة  
مولاة الخيزران (٣٦) •



شكل يوضح بعض اصحاب الدور بمكة من البيت العباسي  
ابان الدعوة العباسية

وابتاع صالح بن العباس قصر جعفر بن يحيى البرمكي فابتنى عليه وزاد فيه ويقع هذا القصر بأصل جبل (سقر) او (ستار) كما يدعى في الجاهلية ثم صار هذا القصر للمنتصر بالله الخليفة العباسي (٣٧) .

ودار ربطة بنت ابي العباس السفاح وهي دار ابي سفيان والتي فتح معاوية فيها بابا من دار ابيه ابي سفيان على بيت ام المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها (٣٨) .

هذه بعض دور العباسيين في مكة ابان الدعوة العباسية وكانت بعض دورهم وقصورهم قريبا من المسجد الحرام ونستدل على عظمتها انها كانت ملكا لخليفة كمعاوية او اتخذها خليفة له دارا كما فعل المنتصر العباسي . ثم انهم قاموا بحفر الآبار وبناء المساجد واتخذوا في أحياء مكة المهمة دورهم وفي طريق منى . وساهمت المرأة العباسية مع الرجل في المشاريع العمرانية في مكة المشرفة وهذا له كبير الاثر في بلد مقدس يرتاده المسلمون في كل زمان ومن كل مكان .

وسكن ابو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن العباس مكة وهو والد كل من ابراهيم الامام وعبد الله السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور وتوفي فيها سنة ١٢٥ هـ وهو من دهاة بني العباس وساستهم يكاتبونه ويلقبونه بالامام (٣٩) .

وتظاهر النقباء والدعاة بالتجارة واتخذوا طريق الكوفة - خراسان التجاري لايهام الامويين انهم تجار وكان الاتصال بالحميمة غير مسموح الا عن طريق المشرف في الكوفة . وهكذا لم ينكشف امر الحميمة الا في آخر مراحل الحركة العباسية (٤٠) .

وتبدو القيادة السياسية عند محمد بن علي بن عبد الله بن العباس كاول شخصية عباسية في التاريخ السياسي لدعوة بني العباس اذ كان داهية

من دهاة زمانه وكان قومه يلقبونه ( الامام ) • والامامة نيابة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا (٤١) وهو لقب من القاب الخليفة •

ولا يعلم شخصية الامام الا المقربين • وقد اتخذ من مكة المركز الذي يتصل به بالنقباء والدعاة الذين يفتدون الى مكة للحج والعمرة او التجارة وكان هناك مشرف على الدعوة في الكوفة يأتمر بأمر الامام القابع في مكة ومثل ذلك في الحمية وبذلك ظلت الدعوة العباسية تحت ستار الدين تارة والتجارة اخرى فأن انكشف امر الامام في الحمية فلم نعلم انه عرف شخصيته في مكة رغم اتصالاته المستمرة بالامصار الاخرى •

ثم ترك محمد بن علي بن عبد الله بن العباس مكة وصار في الحمية واستطاع ان يستغل تنازل ابي هاشم عن الامامة • وابو هاشم هو عبد الله ابن محمد بن الحنفية بن أمير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه حينما مر به في سنة ٩٨هـ وأوصى لمحمد بن علي العباسي بقيادة الحركة السرية الهاشمية هذا ما اذاعه العباسيون واكدوه فقالوا : ان ابا هاشم العلوي أوصى لمحمد بن علي العباسي بالامامة اثر دعوة ابي هاشم من الشام — متوجها الى الحجاز بعد زيارته للخليفة الاموي سليمان بن عبد الله وقد تمرض ابو هاشم اما بسبب السم الذي دسه الخليفة الاموي أو بسبب مرض طبيعي وانه عرج على ابن عمه العباسي وبذلك حول محمد بن علي المنطقة الهاشمية الى منطقة عباسية صرفة (٤٢) واختار محمد بن علي العباسي خراسان مركزا تنطلق منه الثورة العباسية ضد الامويين بعد ان مهد لها وهو يوصي الدعاة بقوله : « اما مكة والمدينة فغلب عليهما ابي بكر وعمر رضي الله عنهما — ويعني انهما شهدا عهد ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو اصلح العهود وبعد عهد رسول الله (ص) فلا يرضى اهلها بسواه • أو قد يعني ان مكة والمدينة قرشية ويريد ان يعتمد على الموالي فيستعين بهم حين يقول « : وعليكم بخراسان » واوصى من بعده لابنه ابراهيم الملقب بالامام •



وفصل ابن قتيبة ذلك التنازل وهو يقول : اما ابو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم وبوصيته منه بعد أن اجتمع العلويون في المدينة ومكة الى محمد بن الحنفية وبايعته على طلب الخلافة ان امكنه ذلك وعرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقوها يوم الوثوب على فرصته فيما يحتاج من النفقة على مجاهدته فقبلها وولى على شيعة كل بلد رجلا منهم وأمره باستدعاء من قبل منهم في سر وتوصية اليهم الا ييؤحوا بمكتومهم الا لمن يوثق به حتى يرى القيام موضعاً . فأقام محمد بن الحنفية امام العلويين قابضاً لزكاتهم حتى مات فلما حضرته الوفاة ولى ابنه عبد الله وهو المدعو ( ابو هاشم ) من بعده وأمره بطلب الخلافة ان وجد الى ذلك سيلاً واعلم العلويين بتوليته اياه فأقام عبد الله على امرهم حتى بلغ سليمان بن عبد الملك - الخليفة الاموي أن العلويين بايعوا عبد الله ابن محمد بن الحنفية بعد ابيه فبعث اليه وقد أعد له في افواه الطريق رجالاً ومعهم أشربة مسمومة وأمرهم اذا خرج من عنده أن يعرضوا عليه الشراب فلما دخل على سليمان اجلسه الى جانبه وسأله وقال له : بلغني أن قومك بايعوك فانكر ذلك . ثم خرج من عنده في وقت شديد الحر فقدم له البعض شربة لبن فشرب منه ثم مضى فوجد ان السم فيه واتجه من العراق الى الحميمة وبها جماعة آل عباس ونزل على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس واخبره الخبر وقال له اليك الامر والطلب للخلافة بعدى فولاه واشهد له من العلويين رجالاً وأدلى اليه باسرار الدعوة التي اودعها اياه ابوه محمد بن الحنفية واعلم ابو هاشم ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله العباس اعلمه اسماء الدعاة من العلويين وسلمه كتباً يرسلها الى دعاة في الكوفة كما اوصاه ان تكون الامامة من بعده لابنه . ثم مات فأقام محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس ووصف الاتباع والاصحاب وصفهم له (٤٣) اما قول السنجاري « ان سبب قيام بني العباس ان العلويين كانوا يعتقدون بأمامة محمد بن الحنفية بعد أخيه الحسن بن علي رضي الله عنهما ونقلوه بعده الى ابي هاشم الذي أوصى حين حضرته الوفاة الى ولده ابراهيم الامام » (٤٤) .

هذا القول يخالف ما أورده المؤرخون الذين اجسعوا على ان التنازل والوصية كانت لمحمد بن علي العباسي وليس لابراهيم الامام ابن محمد ابن محمد بن علي العباسي • وجدير بالذكر ان تتساءل لماذا سكن محمد بن علي العباسي الحميمة من بلاد الشام ؟ •

هل لأن والده اعتقل في بقاء الشام واراد ان يكون قريبا منه • أم ليتخذ من الحميمة موقعا مناسباً لبث الدعوة العباسية وهي على ممر القوافل التجارية والحجاج فيمكنه الاتصال بهم أو بنقبائه ودعاته يسر وامن بعيدا عن عيون الخليفة الاموي •

ويجوز ان يكون جد العباسيين هذا قد استوطن الحميمة لأن الخليفة الاموي اراد منه ذلك لكي لا يكون في مكة موطن اجداده العباسيين وحول انصاره واقربائه وبعض وجهاء بني العباس • • وخلاصة القول ان محمد ابن علي بن عبد الله العباس قد استفاد من اتخاذ الحميمة مقرا للدعوة بعد أن كانت مكة هي المقر للعباسيين وستعود مكة ثانية تحتل مكاتها السياسية في ايام ابنه ابراهيم الامام • وقد استفاد محمد بن علي العباسي من وجوده بالحميمة ذلك التنازل من امام العلويين بالامامة له من بعده وبذلك كسب جبهة علوية اضافها الى جبهتهم العباسية وضمهم تحت شعار الدعوة لآل بيت النبي (ص) •

وقدم الدعاة من خراسان للحج ومعهم ( قحطبة بن شبيب ) ومروا بواسط فالتقوا بأبي مسلم الخراساني ومنها نحو مكة على طريق البصرة فوصلوا مكة وقد وافاها الامام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس حاجا فلقوه وسلموا عليه واخبروه بما غرسوا في جميع خراسان من الغرس واخبروه دخولهم على اخوانهم المحبوسين بواسط في العراق ووصفوا له ابا مسلم وهذا ما يدل على أن الخلافة الاموية اخذت تحسب حسابا للدعوة والدعاة فحسبت بعضهم بواسط •

وأوصى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الدعاة بابنه ابراهيم اذا حدث له أمر فأنصرفوا الى خراسان وبعد وفاته خلفه ابنه ابراهيم الامام فأرسل ابراهيم الى ابي مسلم الخراساني ان يسير يبلغ لدعاة في العراق - وخراسان ب وفاة ابيه محمد الامام أو قيامه بالامر من بعده ( ٤٥ ) •

من هنا نلاحظ أن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس اتخذ من الحج وسيلة للاتصال بالدعاة في البلد الامين وفي مكة تكون الاجتماعات السرية ويكون اللقاء بينهم وبين الامام وت عقد الاتفاقات لدعوة تريد قلب نظام الحكم في الدولة الاموية • وكان محمد بن علي يجتمع بالدعاة ويطلع على اخبارهم حول ما سموه بالغرس أي غرس روح الثورة العباسية ضد الأمويين •

والى مكة كانت تنقل زكاتهم من خراسان ومن العراق وغيرها لتحفظ الى حين الوثوب أو ساعة الصفر التي يقررها الامام وقد جعل من مكة مركزا للدعوة ضد الأمويين •

وفي سنة ١٢٥ هـ توفي محمد بن علي والد السفاح والمنصور مات وهو في المعتقل وكان من دعاة بنى العباس يكاتبونه ويلقبونه بالامام مات في عهد هشام بن عبد الملك أو الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك (٤٦) لقد اعتقل ابوه من قبله وتوفي هو الآخر في الاعتقال وسكت المؤرخون عن سبب اعتقال ابيه لانه لم يكن له نشاط سياسي ملحوظ بقدر ما كان له من مكانة علمية واجتماعية عند اهل مكة بصورة خاصة ولكنه كان يخفي وراء ذلك نشاطا سياسيا محتملا باقامته في مكة •

اما ابنه محمد بن عبد الله بن العباس فقد اسهب طائفة من المؤرخين في ذكر نشاطه السياسي وهو يستقبل الدعاة ويوصيهم وبوجههم الى الامصار متخذاً من مواسم الحج خير زمان ومن مكة المكان المناسب لتحقيق اغراضه السياسية تحت ستار الدين •

ويبدو ان النصوص التاريخية تؤكد على اتخاذ مكة مركز الدعوة العباسية ففي عام ١٢٥هـ حج ( شبيب ابن شيبة التميمي ) وكان في حاشية المنصور وولده المهدي وبينما هو يستريح في المسجد الحرام اذ عرف رجلا عثر في المقام فساعدته واصطحبه الى بيته واعلمه انه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ( ابو جعفر المنصور ) وانه يسكن بأعلى مكة وله رجال واعلمه بقوله : « ان انصار دولتنا وامراء جيوشنا فهم مواليتهم وموالي القوم من انفسهم فاذا وضعت الحرب اوزارها صفحنا عن المسيء ووهبنا للرجل قومه » وسأل ابن شيبة عن ساعة الصفر بقوله : أترقب لظهور الامر وقتا ؟ فقال عبدالله ( الله المقدر للوقت • وارسل معه كسوة مع مولى لعبد الله كان يتبعه الى منزله فأخذ ابن شيبة الكسوة (٤٧) •

هذا النص يدل على أن مكة المركز الاول للدعوة العباسية وفيها رجال من بني العباس في عهد بني امية وكان لهم انصار ورجال وامراء للجيش وان لهم قوم وموالي كلهم ينتظرون ساعة الوثوب أو الثورة ووجهتهم نحو الامام القابع بمكة ولكن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ( المنصور ) لم يفصح عن الساعة بل كان حذرا فلم يعلمه عن موعدها ، كما يدلنا على ان لعبد الله بن محمد بن علي بيت بأعلى مكة فلم يعد بنو العباس يتخذون بيوتا لهم قرب المسجد الحرام فحسب بل وفي اعلاها بيوت لهم اتخذوها كمراكز سرية للدعوة واللقاء بالدعاة بعيدا عن انظار الأمويين وولاتهم في مكة •

وفي عام ١٢٦هـ حج ( سليمان بن كثير ولا هز بن قرط ومالك بن الهيثم وقحطبة بن شبيب ) حجوا متنكرين حتى اتوا مكة وقد وافاهم الامام ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فاخبروه بما اجتمع له الناس بخراسان وقد حملوا له ما بعثت له الشيعة عشرة الاف دينار ومائتا الف درهم ثم ولي امرهم ابا مسلم وقال لهم : « فاسمعوا له واطيعوا فانصرفوا (٤٨) • وهكذا انتقلت الامامة الى ابراهيم وقد جمعت له الاموال

واخذ يعين الامراء بعد ان علم أن اهل خراسان اجتمعوا له ، وهنا برزت شخصية ابي مسلم الخراساني •

وفي سنة ١٢٧ هـ اجتمعت جماعة من الدعاة الى بني العباس عند ابراهيم بن محمد الامام العباسي وكان معهم ابو مسلم الخراساني فدفعوا له نفقات كثيرة واعطوه خمس اموالهم ولم ينتظم لهم أمر السنة لكثرة الشرور المنتشرة والفتن الواقعة بين الناس (٤٩) •

لقد اعطيت خمس الاموال لابراهيم الامام العباسي فهو ولي امرهم مع أموال كثيرة اخرى فان سليمان ابن كثير ولاهز بن قرط وقحطبة توجهوا الى مكة في سنة ١٢٧ هـ فلقوا ابراهيم بن محمد الامام واوصلوا الى مولى له عشرين الف دينار ومائتي الف درهم ومسكا ومتاعا كثيرا وكان معهم ابو مسلم فأمر ابراهيم أبا مسلم على خراسان (٥٠) •

وهنا تبدو عبقرية ابراهيم الامام السياسية حين بعث من كل بلد اميرا من اهلها فأبو مسلم أمره على خراسان وأبا سلمة الخلال على الكوفة لميل العلويين له وميله اليهم وكان بعض الدعاة يطلبون من ابراهيم الامام أن يوجه من قبله وأتيا معهم الى بعض الامصار فهو والحالة هذه يقوم مقام الخليفة وأن مكة مركز الدعوة وفيها الامام الذي يولي الولاية ويبعثهم الى خراسان والكوفة والولاية من الوظائف أو المهام المعهودة للخليفة وان كان هناك خليفة أموي في بلاد الشام •

وفي مكة حدث اجتماع سرى ضم أقطاب بني العباس والطالبيون فكونوا جمعية سرية واسندوا الرئاسة في أول تشكيلها الى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم الملقب بمحمد النفس الزكية ثم تخلوا عنه ونقض العباسيون عهد هذه الجمعية السرية والتي انعقدت بمكة واسندوها لابي العباس السفاح (٥١) وذكر ابن خلدون أن المنصور العباسي ممن بايع محمد النفس الزكية في تلك الليلة والتي عقدوا لمحمد النفس الزكية بالخلافة (٥٢) •

وهكذا كانت البيعة الخاصة للخليفة الاول من آل بيت النبي (ص) حدث بعد اجتماع سري ليلا في مكة المكرمة وقيل ان اجتماع بني هاشم هذا كان بالابواء وهو مكان بين مكة والمدينة وضم ابراهيم الامام وأخويه عبد الله ابو العباس السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور وصالح ابن علي وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وابناء محمد و ابراهيم ومحمد بن عمرو بن عثمان بن عفان فبايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بمحمد النفس الزكية فما كان منه الا أن بعث الحسن بن معاوية واليا على مكة وبعث القاسم بن اسحق واليا على اليمن (٥٣) •

وقيل حدث ذلك في خلافة المنصور ، أما الاجتماع الاول الذي ضم وجهاء بني هاشم من عباسيين وعلويين فقد حدث في مكة وليس بالابواء • وما ذكر عن ممارسة محمد النفس الزكية سلطة الخليفة فقد حدث في أيام المنصور • ومن الدلالات الواضحة على أهمية مكة في الدعوة العباسية أن ابراهيم الامام ارسل وهو بمكة الراية وتدعى ( السحاب ) واللواء ويدعى ( الظل ) ارسلهما الى ابي مسلم بخراسان • وكان ابو مسلم قد سار نحو الامام بمكة من خراسان ليظهر الحج واجتمع به فأمره ابراهيم الامام بالرجوع واطهار الدعوة ونشرها وامر ابو مسلم قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الاموال والتحف الى ابراهيم فيوافيه في الموسم بمكة فرجع ابو مسلم الى خراسان وكانت الفرصة مناسبة لانشغال نصر بن سيار والي بني امية على خراسان بقتال الخوارج والذين يقودهم (الكرمانى) و ( شيبان بن سلمة الحرورى ) (٥٤) •

ففى سنة ١٢٩ هـ بينما الناس بعرفة ما شعروا الا وقد طلعت عليهم اعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح قفزح الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم على مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك بن مروان وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب

منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا احق وعليه أشج فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الاول فوققوا بعرفة على حده ودفع الناس عبد الواحد ونزل في منزل السلطان ونزل أبو حمزة الخارجي مقدم الفريق الآخر بقرن الثعالب • ويقال له ( قرن المنازل ) وهو ميقات أهل نجد قال ياقوت ( تلقاء مكة على يوم وليلة ) ، فلما كان النفر الاول نفر فيه عبد الواحد وخلي مكة فدخلها أبو حمزة الاباضي بغير قتال ( ٥٥ ) •

ونرى أن الدعوة العباسية ظهرت في مكة وعقد لواءها وشعارها من هناك وكان موسم الحج بمكة هو الزمان الملائم في المكان الامين للاتصال بالامام في البلد الامين حيث تنقل الاموال اليه من كل مكان بقصد الحج حتى اذا ما دقت ساعة العمل ظهرت الرايات والعمائم السود العباسية هناك في مكة وقد حدث ذلك قبل اعلان الدعوة بثلاث سنين •

وفي سنة ١٢٩ هـ كتب ابراهيم الامام وكان بالحميمة الى ابي مسلم يسأل عن أخبار الناس فسار نحوه في النصف من جمادي الآخرة مع سبعين نفسا من النقباء فلما صار بالدانقان من ارض خراسان عرض له كامل ( ابو كامل ) فسأله عن مقصده فقال الحج ثم خلا به أبو مسلم فدعاه فأجابه ثم ان ابا مسلم بقى في خراسان ووجه قحطبة الى الامام ابراهيم بما معه من الاموال والعروض وفي نيسابور عرض لهم صاحب المسلحة فسألهم فقالوا : اردنا الحج فبلغنا عن الطريق شيء خفناه ( ٥٦ ) •

وهكذا ينفذ ابو مسلم اوامر امامه شأن النقباء والدعاة وكان ابراهيم الامام على اتصال دائم بالناس في خراسان واتضح امر ابراهيم حين وجد الخليفة الاموي مروان بن محمد كتابا من ابراهيم الى أبي مسلم وفيه يأمره ابراهيم أن يناهض نصر بن سيار ولا يترك هناك في خراسان من يحسن العربية الا ويقتله فما كان من مروان الا أن أمر يقتل ابراهيم الامام فقتله شر قتلة ( ٥٧ ) •



وقيل أن ابراهيم الامام اشتهر في موسم حج سنة ١٣١ هـ حين وقف في ابهة عظيمة ونجائب كثيرة وحرمة وافرة فأنتهى أمره الى مروان فأرسل عليه وقتله وكان مع ابراهيم حين حج اخواه ابو العباس وجعفر وولده وعمه ومواليه على ثلاثين نجيبا عليهم الثياب الفاخرة والرجال والاثقال فشهرة اهل البوادي والشام والحرمين معهما مع ما انتشر في الدنيا من ظهور امرهم وبلغ مروان خبر حجهم فكتب الى عامله بدمشق بتوجيه خيل له وكان مروان بأرض الشام ووجه العامل خيلا فهجموا على ابراهيم فأخذوه وحملوه الى سجن حران فأثقلوه وقيدوه حتى مات ولما احس ابراهيم بالطلب أوصى الى أخيه ابي العباس ونعى نفسه اليه وأمره بالسير من ( مكة ) الى الكوفة بأهل بيته فسار معه اخوه ابو جعفر وعمه وستة رجال حتى قدموا الكوفة مستخفين ( ٥٨ ) • وهنا نلاحظ اتباع ابراهيم اولئك الذين قدموا معه على ثلاثين نجيبا وهم من الموالى فقط سوى اقرباء • من بنى العباس ممن كانت لهم مكانة اجتماعية واقتصادية علاوة على الاهمية السياسية وكان لهم الولاء في البوادي وفي مكة والمدينة وحتى في بلاد الشام • وقيل ان ابا مسلم يدعو الناس الى ابراهيم الامام ويسموناه الخليفة فلما علم مروان طلبه لانه على ان دعوة ابي مسلم له وانه يؤهل لهذا الامر ( ٥٩ ) •

وفي هذا الوقت خرج اخواه عبد الله ابو العباس السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور خرجا الى الكوفة على انفسهما ومعهما داود بن علي ( ٦٠ )

والارجح انتقال ابراهيم الامام من مكة الى الحميمة كان بعد أن رأى اجتماع اقطاب بنى هاشم على رئاسة محمد النفس الزكية وتعيين — وال على مكة من قبله فلم يعد له مكانا هناك فرحل الى الحميمة حتى اذا ما انكشف أمره كان في ذلك ختفه •



ولما علم ابو مسلم الخراساني بقتل ابراهيم الامام قدم من خراسان الى الكوفة فعزى السفاح والمنصور ثم قال لابي العباس مد يدك ابايك فمد يده فبايعه ثم سار الى مكة ثم انصرف اليهما (٦١) •

لقد كان المنصور اكبر سنا من السفاح اذ ولد السفاح سنة ١٠٥ هـ أما ولادة المنصور ففي سنة ٩٥ هـ فمبايعة ابي مسلم للسفاح قد يكون لعهد ابراهيم له أو لما كان بين المنصور وابي مسلم الخراساني من وحشة فأراد ابو مسلم ان تكون الخلافة لاخيه السفاح •

وسار ابو مسلم الى مكة لكي يضلل عيون الخلافة الاموية انه قادم الى الحج فلا ترصد حركاته ونلاحظه ان هناك بيعة وهي من شروط الامامة أو الخلافة رغم ان خلافة الامويين لا زالت قائمة وهذا يدل على نشاط الدعاة وتفانيهم في سبيل الدعوة الجديدة •

ودخل ابو مسلم ( مرو ) سنة ١٣٠ هـ وكان يدعو للرضا من آل بيت النبي ( ص ) ونص البيعة ( ابايكم على كتاب الله وسنة نبيه والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله وعليكم بذلك عهد وميثاقه والطلاق والعناق والمشى الى بيت الله الحرام وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طعاما حتى يتبؤكم به ولا تكلم (٦٢) •

في هذه البيعة تعاقد على الحكم بكتاب الله وسنة نبيه وطاعة من يرتضونه من آل بيت رسول الله ( ص ) دون أن يفصح عن شخص الخليفة • اما الدعاة والنقباء فهم يعرفون شخصية الامام وان كانوا يدعون للرضا من آل محمد فالدعوة غامضة بالنسبة للعلويين الذين يظنونها انها من اجلهم وكذلك الخراسانيون دعوا الى ( صاحب الحق ) واحسن العباسيون استخدام الفريقين في تعمية الامويين الامويون ان الدعوة والقائمين عليها من آل بيت على رضي الله عنه • واختار العباسيون انصارا لهم من الفرس بدليل قول محمد الامام اذ يقول ( وعليكم بخراسان ) •

ومن نصيحة ابراهيم الامام الى ابي مسلم ( ان استطعت ان لاتدع  
بخراسان لسانا عربيا فأفعل ) • وتطرق ابراهيم كثيرا في اذكاء نار العصبية  
القبلية في خراسان خشية تجمع اهل يمن فيها فأوصى ابا مسلم في اهل يمن  
يريد فتنة ربيعة ومصر وهذه من مبادئ ابي مسلم التي اشاعها بين جنده  
بقوله ( اكثرُوا ذكر الضعائن فانها تبعث على الاقدام ) • ( ٦٣ ) •

ومما يجدر ذكره ان القائمين بالدعوة جلهم من العرب وان كان العنصر  
الفارسي له دوره في اعلان الدعوة العباسية • واكد ابو مسلم على عدم  
مخالفة الخليفة المنتظر بأن جعل الايمان والمواثيق عليهم اذا هم خالفوه وزاد  
بعدم المطالبة بالمال حتى مقدمة اولي الامر لهم بينما اعلن ابراهيم الامام وهو  
يوصي الدعاة بأن ابا مسلم من اهل البيت العباسي بقوله ( يا عبد الرحمن  
انك منا اهل البيت ) • وقال له ( عليك بهذا الحي من اليمين ) وحذره من  
بقية الاحياء وقال له : ( ان استطعت ان لاتدع بتلك البلاد عربيا  
فافعل ) ( ٦٤ ) •

ولما تمكن ابو مسلم وقوي أمره ادعى انه من سليط بن عبد الله بن  
عباس وكان من اوليه هذا الزعم ان نصر الامويون سليط على اخيه في اثبات  
حقه بالميراث لاسباب سياسية وقيل ان ابا مسلم ولد باصبهان ونشأ بالكوفة  
فاتصل بابراهيم الامام فغير اسمه وكناه بابي مسلم وأمره على خراسان ( ٦٥ )  
وابراهيم الامام هو الذي اكد ان ابا مسلم من اهل البيت العباسي وهذا ما  
تقتضيه الدعوة وهي في مهدها لكسب اكبر عدد ممكن من الرجل الاشد اذ  
والذين عرفوا بالدعاء والشجاعة والنفوذ وابو مسلم قد تميز بهذه الصفات  
المهم ان ابا مسلم هو الذي اظهر الدعوة العباسية من السر الى العلن وهو  
الذي استلم شعار العباسيين وهو السواد من ابراهيم الامام العباسي ارسله  
اليه من مكة مركز الدعوة العباسية وارسل معه اللواء وهو ( الظل ) — أو  
( السحاب ) •

وكانت هناك عوامل كثيرة تداخلت مع بعضها البعض فأدت الى نجاح

الدعوة العباسية سواء في مكة المكرمة أو خراسان أو الكوفة أو غيرها فقد رسم بنو العباس ابان دعوتهم خططهم على اساس الاستعانة بكل القوى الممكنة لانجاح دعوتهم ومنها استغلالهم اخطاء الامويين والقضاء على مصادر القوة من افراد أو جماعات وعرفوا اهداف العلويين ومن تكتل معهم واهداف الفرس واخيرا قدروا السياسة لاقامة خلافتهم العباسية ( ٦٦ ) واكد العباسيون حركة تنازل ابي هاشم واذاعوه • وساعدهم انقسام البيت الاموي على نفسه واذكاء نار العصية القبلية وللعامل الاقتصادي كبير الاثر في انتشار سخط الجماهير ضد الامويين ومنهم الموالي والخوارج الذين لعبوا دورا خطيرا في اسقاط الامويين وبصورة غير مباشرة في نجاح الدعوة العباسية • ومن الخوارج ابو حمزة بن عوف الازدي البصري المختار وهو من الاباضية وهي فرقة فرق الخوارج • وكان يوافي مكة كل موسم يدعو الى خلاف مروان وانضم اليه عبد الله بن يحيى المعروف (بطالب الحق) سنة ١٢٨ هـ وهو من حضرموت وقال له انطلق معي فاني مطاع في قومي فأنتطلق معه الى حضرموت وبايعة على الخلافة وبعثه عبد الله سنة ١٢٩ هـ مع ( بلج بن عقبة الازدي ) في سبعمائة فقدموا مكة وحكموا بالموقف وعامل المدينة يومئذ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فطلبهم بالموادعة حتى ينقضي الموسم واقام الناس حجهم ونزل بمنى واحكم نفر من الصحابة مع الخارجي والموادعة ونفر عبد الواحد مع نفر الاول فمضى الى المدينة وزاد في عطاء اهائها ثم دخل حمزة المدينة سنة ١٣٠ هـ في شهر صفر بعد ان الحق عبد الواحد بالشام واحسن السيرة باهلها ثم ارسل مروان من يقتل ابا حمزة فقتله وانهزمت الخوارج واستخلف على مكة والمدينة وقتل طالب الحق وتوجه والى مروان الى مكة ليقيم الحج فلقية قوم ونهبوهم وقتلوهم وركد ربح الخوارج من يومئذ الى أن ظهرت الدعوة العباسية وبويع المنصور بعد السفاح (٦٧) •

واضاف السعودي ان عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق خوطب بأمر المؤمنين وكان اباضى المذهب من الخوارج فارسل مروان قائده

عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي قتل ابو حمزة واكثر من معه من الخوارج وذلك في سنة ١٣٠ هـ ولحق القائد عبد الملك هذا مع جيش مروان الى اليمن ونزل صنعاء سنة ١٣٢ هـ (٦٨) •

لقد كانت مكة في هذه الفترة التاريخية — وهي فترة انتقال كانت مضطربة شأن أي مدينة أخرى خاصة وقد جعلت الخوارج كل منها ومن المدينة واليمن وحضرموت مسرحا للحروب وادى ذلك الى توزيع جهود مروان آخر خلفاء الامويين في الوقت الذي يعلن فيه ابو مسلم الدعوة العباسية في خراسان • والسفاح والمنصور واعوانهما يهيئون لظهور الخليفة واعلان اسمه تحت ظروف سياسية وحربية مضطربة تجاه الامويين •

حتى ابو حمزة الخارجي لما قدم الحجاز كان يظهر الحج في سنة ١٢٩ وهي السنة التي طلعت على الحاج واهل مكة اعلاه وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم بعرفة وكان عدتهم نحو سبعمائة وقد راسلهم عبد الملك والى مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة وتمت الهدنة ثم احتل ابو حمزة مكة بعد هروب واليها عبد الملك وحدثت معركة بين جيش الخوارج وجند مروان سنة ١٣١ هـ (بقديد) قرب مكة فهزم مكة جيش مروان حرورية الخوارج (٦٩) •

هكذا واجه مروان الفتن من كل جانب ففي الشرق ابو مسلم الخراساني وقد اعلن الثورة واحتل خراسان • ومن الغرب كتائب من طبرية والاردن تهاجمه تحت قيادة نعيم بن ثابت الجذامي ومن الجنوب من ارض — اليمن رجفت اباضية الخوارج تدعو لزعيمها عبد الله بن يحيى الكندي وخطوب بأمير المؤمنين واحتلت هذه القوات مكة والمدينة ودانت اليمن وحضرموت لها وسارت لقتال جيش مروان وتمكن مروان من رد هذه القوات الا جيش ابي مسلم (٧٠) •

كل هذه الفتن اوهنت قوى الامويين ومهدت لنجاح دعوة —

العباسيين ولكن مكة وما حولها كانت مسرحا لحروب الخوارج مع الجيوش الاموية التي بلغت نحو خمسة عشر الف مقاتل وقد فرق القائد الاموي الخيل على الخوارج من اسفل مكة ومن اعلاها فاقتلوا الى نصف النهار فقتل والي مكة من قبل ابي حمزة الخارجي وهو ابرهة ابن الصياح الحميري عند بئر ميمون في مكة وقتل حمزة وخلق كثير من جيش الخوارج وعادت مكة الى الحظيرة الاموية (٧١) •

خلاصة القول : ان ظهور الخوارج في اواخر ايام الدولة الاموية وعلى راسهم ابو حمزة وغيره من قادتهم كان قد اشغل الدولة الاموية في سني احتضارها • كما انضم الى الخوارج كل ساخط على الامويين وبعض القبائل من اليمن وحضر فحاربت الامويين نحو ثلاث سنين واخذت حركتهم الا ان لهذا اثره في اضعاف الدولة الاموية وتهيئة الظروف لنجاح الدعوة العباسية وهي تزحف من جهة الشرق ثم لا تلبث ان تعلن الخلافة العباسية في شهر ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ وبويع السفاح عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بعد قتل مروان بن محمد الاموي بثمانية اشهر (٧٢) •

وهكذا كانت الدعوة العباسية استغلالا ذكيا للحركات الظاهرة والخفية ضد السياسات التي اتبعها الخلفاء الامويون وعمالهم وكان قيام الدعوة العباسية نتيجة مباشرة لتطور هذه الحركات التي ناوت الامويين تحت شعارات علوية أو خارجية أو غيرها (٧٣) وكانت مكة الترمومتر السياسي والمركز المهم في الدعوة العباسية ففيها الامام العباسي وبويع فيها الخليفة الهاشمي المنتظر وكان علويا هو محمد النفس الزكية • وكان امام العباسيين يرسل الدعاة ويستقبل النقباء دون علم الامويين لتسترهم تحت شعارات علوية أو خارجية أو غيرها (٧٣) وكانت مكة الترمومتر

هكذا ينبغي ان يضاف الى مراكز الدعوة العباسية مكة المكرمة مع الكوفة وخراسان والحبيمة •

## المصادر والمراجع

- ( ١ ) الأزرقى . اخبار مكة ٨٥/٢ المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٧ و ١١٤/١ دار الثقافة بمكة سنة ١٣٨٥ .
- ( ٢ ) الزركلى : الاعلام ٣٥/٢ ط ٢ .
- ( ٣ ) الفاسى : شفاء الفرام . المقدمة . مصر ١٩٥٦ .
- ( ٤ ) السنجارى : منايح الكرم باخبار البيت وولاية الحرم ١٨٠/١ وما بعدها مخطوط بمكتبة الحرم المكي الشريف . ومفتاح الاوائل مخطط مجهول المؤلف . الباب الخامس . مخطوط بمكتبة ازاد بالهند . والفاسى . شفاء الفرام ٢٥٩/١ .
- ( ٥ ) الأزرقى ١٧١/١ .
- ( ٦ ) نفس المصدر ١٨٨/٢ و ٢١٣ .
- ( ٧ ) القطبى . الاعلام ص ٢٨٩ والأزرقى ٧٠/٢ .
- ( ٨ ) الديار بكرى : رسالة اذرع الكعبة . مخطوطة فى الهند .
- ( ٩ ) باسلامة ص ١٢٠ - ١٣١ .
- ( ١٠ ) الاسدى . اخبار الكرام ص ٨٧ مخطوط فى الهند .
- ( ١١ ) القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد ص ١١٥ بيروت ١٩٦٠ . واليعقوبى . البلدان ص ٧٤ ط ٣ .
- ( ١٢ ) الزبيرى : نسب قريش ص ٢٨ . والمسعودى . مروج الذهب ١١٠/٣ .
- ( ١٣ ) العصامى : سمط النجوم العوالى ٣٢٨/١ .
- ( ١٤ ) الأزرقى ٦٠/٢ .
- ( ١٥ ) المسعودى : مروج الذهب ١٠١/٣ .
- ( ١٦ ) نسب قريش ص ٢٨ .
- ( ١٧ ) ابن دحية . النبراس ص ٦ بغداد ١٩٤٦ .
- ( ١٨ ) الأزرقى ٢١٣/١ .
- ( ١٩ ) الذهبى : دول الاسلام ٥٦/١ حيدر اباد الهند .
- ( ٢٠ ) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٢٨ مصر ١٩٥٩ .

- (٢١) مفتاح الاوائل : الباب الخامس . مخطوط .
- (٢٢) الازرقى ١٨٨/٢ و ٢١٣ .
- (٢٣) الفاسى : شفاء الغرام ٢٦٠/١ مصر ١٩٥٦ والازرقى ٢٢١/١ .
- (٢٤) الازرقى ١٨٤/٢ و ١٩٢ و ١٩٥ .
- (٢٥) الازرقى ١٤١/٢
- (٢٦) الازرقى ٢٩١/٢
- (٢٧) نفس المصدر ١١٨/٢
- (٢٨) نفس المصدر ٢٠٥/٢
- (٢٩) شفاء الغرام ٢٧٩/١ والازرقى ١٨٤/٢ و ١٩٥
- (٣٠) الازرقى ٢١٧/٢
- (٣١) الازرقى ٢٩١/٢
- (٣٢) نفس المصدر ٢٣٧/٢
- (٣٣) القطبى : الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ١١ . والازرقى ١٩٠/١
- (٣٤) ابراهيم رفعت . مرآة الحرمين ٣٢٠/١ - ٣٢١
- (٣٥) شفاء الغرام ٢٦١/١
- (٣٦) الازرقى ٢٢١/١ و ٢٢٣/٢ و ٢٢٤
- (٣٧) ياقوت : معجم البلدان ٣٢٦/٣ والازرقى ٢٣٢/٢ و ٢٨٧
- (٣٨) الازرقى ١٦١/٢
- (٣٩) الذهبى العبر فى خبر من غير ص ١٦٠ . الكويت ١٩٦٠
- (٤٠) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٣٠
- (٤١) ابن خلدون المقدمة والماوردى . الاحكام السلطانية ص ١٣
- (٤٢) الدكتور فاروق عمر . طبيعة الدعوة العباسية ص ١١٦ ط ١ بيروت ١٩٧٠ .
- (٤٣) ابن قتيبة . الامامة والسياسة ٣٢٢/٢ ط ١ القاهرة ١٩٠٩ والطبرى ٢٢٣/٩ . وابن طباطبا . الفخرى فى الاداب السلطانية ص ١٤٣ . والصباغ . بلاد الحجاز خلال العصر العباسى الاول ص ١٥ بغداد ١٩٦٩ .
- (٤٤) السنجارى : منايح الكرم ١٨٠/١ وما بعدها مخطوطة فى مكة المكرمة .

- (٤٥) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٣٣٩ ليدن ١٨٨٨
- (٤٦) الذهبى : دول الاسلام ٦٠/١
- (٤٧) عبد السلام رستم . ابو جعفر المنصور ص ٣٥ - ٣٧ مصر ١٩٦٥
- وابن قتيبة . الامامة والسياسة ٣٥٦/٢ - ٣٥٨ القاهرة ١٩٠٩
- (٤٨) الدينورى . الاخبار الطوال ص ٣٤٣ .
- (٤٩) ابن كثير . البداية والنهاية ٢٥/١
- (٥٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ . وابن خلدون تاريخه ١٠٢/٣ - ١٠٣ وابن كثير ٢٧/١ والامامة والسياسة ٣٢٢/٢
- (٥١) عبد السلام رستم . ابو جعفر المنصور ص ٣٩
- (٥٢) ابن خلدون . تاريخه ٣٩٨/٣ بيروت ١٩٥٧ وابن الاثير ٥١٣/٥ بيروت ١٩٦٥ .
- (٥٣) الاصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٢٠٦ القاهرة ١٩٤٦ .
- (٥٤) ابن العبرى تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ وابن كثير . البداية والنهاية ٣٥/١ طبع مصر .
- (٥٥) الفاسي . شفاء الغرام ٢١٥/٢ .
- (٥٦) ابن الاثير . الكامل ٣٥٦/٥ بيروت ١٩٥٦ وابن كثير ٣٠/١
- (٥٧) ابن كثير . البداية والنهاية ٣٣/١
- (٥٨) ابن العبرى . تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ - ١٢٠
- (٥٩) اليعقوبي . تاريخ اليعقوبي ٣٤٢/٢ بيروت ١٩٦٠
- (٦٠) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٣٥٧ ليدن ١٨٨٨
- (٦١) نفس المصدر ص ٣٥٨
- (٦٢) ابن الاثير : الكامل ٣٨٠/٥
- (٦٣) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٣١ - ٣٢
- (٦٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧/١
- (٦٥) ابن العبرى ص ١١٩
- (٦٦) الخلافة والدولة العباسية ص ٣٧
- (٦٧) ابن خلدون تاريخه ٢١٨/٣ بيروت ١٩٥٧ وابن كثير ٣٤/١ مصر



- (٦٨) السعوى : مروج الذهب ٦٦/٦ بارس ١٨٧٧ .  
(٦٩) ابن الاثر ٣٧٣/٥ واليعقوبى ٣٣٩/٢ وياقوت ٣١٣/٤ وشفاء الفرام  
١٧٥/٢  
(٧٠) رستم . ابو جعفر المنصور ص ١٦ والسنجارى ١٨٠/١ وما بعدها  
( مخطوط ) واليعقوبى ٣٣٩/٢ والطبرى ٩٦/٦ طبع مصر ١٣٥٨ هـ  
وابن الاثر ٣٥٢/٤ .  
(٧١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٧١/٦ القاهرة ١٣٥٨ هـ  
(٧٢) ابو الفداء : المختصر فى اخبار البشر ٢١٠/١ - ٢١٤ مصر  
(٧٣) محمد حلمى : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ٦ - ٧ مصر ١٩٥٩



# مصادر تاريخ الجزيرة العربية في دار السجلات الحكومية في بومباي

الدكتور عبد الامير محمد أمين

جامعة الكويت

تحتفظ دار السجلات الحكومية في بومباي بمجموعة كبيرة من الوثائق التي تحتوي على معلومات كثيرة وقيمة تخص الجزيرة العربية وشرق الجزيرة ومنطقة الخليج العربي والبحر الاحمر . وسجلات بومباي في الاساس هي سجلات « شركة الهند الشرقية الانكليزية The English East India Company » وسجلات السلطات البريطانية التي ورثت تلك الشركة وتولت مسؤولياتها .

وتوصف سجلات شركة الهند الشرقية الانكليزية بأنها أفضل مادة تاريخية في العالم (١) . ولعل ليس في هذا القول كثير من المبالغة ، اذا عرفنا العدد الهائل من المجلدات التي تتألف منها السجلات وطبيعة المادة التاريخية التي تحتويها .

وتتوفر سجلات شركة الهند الشرقية في اماكن متعددة . فتحفظ مكتبة دائرة الهند India Office Library في لندن بجزء كبير منها . كما وان هناك جزءا كبيرا آخر في دور الوثائق المتعددة والمتناثرة في شعبة القارة الهندية . وأخص بالذكر منها « دار الوثائق الوطنية الهندية (٢) National Archives of India » ودار السجلات الحكومية في بومباي . والاخيرة هي موضوع هذا البحث .

وسجلات بومباى ذات مكانة متميزة كمصدر هام لتاريخ الجزيرة العربية ، اذ كانت بومباى مقرا لاحدى مديريات الشركة الثلاث فى الهند (٣) وقد عهد اليها بالاشراف المباشر على جميع الوكالات Agencies والمقيميات Residencies والممثلات البريطانية التى اوجدتها الشركة الى الغرب من شبه القارة الهندية . منها تلك التى اقيمت فى منطقة الخليج العربى والجنوب العربى والعراق وفارس (٤) . واعتبرت بومباى مسؤولة كذلك عن رعاية مصالح الحكومة البريطانية اضافة الى مسؤوليتها فى رعاية مصالح شركة الهند الشرقية فى كل تلك الاماكن . وبعد هذا فليس من الغريب ان يتوقع المرء العثور على المعلومات التاريخية الكثيرة ذات الصلة لما نحن بصددده فى سجلات بومباى ووثائقها . ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان سجلات بومباى هذه هى من خيرة السجلات البريطانية فى الهند من حيث الوفرة والتنظيم . ومن الغرابة بمكان ان سجلات بومباى لم تستخدم ( حسب علم الباحث ) بشكل فعال من قبل الباحثين العرب . وارجو ان يساهم هذا البحث فى تشجيع هؤلاء الباحثين للاستفادة منها فى بحوثهم فى المستقبل وان يسهل لهم السبيل فى هذا المجال ، وذلك بما سيوفر لهم من مسح موجز لتلك السجلات وعن طبيعتها ومادتها .

وتحتفظ سجلات بومباى فى الوقت الحاضر فى مبنى Elphiston College فى قلب مدينة بومباى . وتضم هذه ٩٨٠٠٠٠ مجلد و ٣٠٠٠٠٠٠ اصابة من هذه ٦٠٠٠٠ مجلد تخص الفترة السابقة لعام ١٨٢٠ (٤) . ويعكس هذا القدر الضخم من السجلات والمعلومات التى تحتويها فعاليات الشركة والسلطات البريطانية التى تلتها لفترة من الزمن تزيد على ثلاثة قرون .

لقد كانت التجارة هى موضع الاهتمام الاول بالنسبة لشركة الهند الشرقية الانكليزية خاصة خلال المئة والخمسين عاما الاولى من قيامها (٦) ولكن فعاليات الشركة لم تقتصر فى أية فترة من فترات تاريخها الطويل

على التجارة وحدها ، بل كثيرا ما كانت تتجاوزها الى المجالات السياسية والعسكرية ، وذلك بحجة الرغبة في توسيع التجارة وحمايتها •

واعتماد موظفو الشركة ومستخدموها تسجيل كل تلك الفعاليات والكتابة عنها الى مستخدميهم في لندن وبومباي ، بل كثيرا ما سجل اولئك الموظفون وواالمستخدمون ما يقع تحت سمعهم وبصرهم من احداث محلية في الاماكن التي كانوا يتواجدون بها ، وان لم يكن لتلك الاحداث صلة مباشرة بهم وبمصالح الشركة • وان هذا ليفسر كثافة المعلومات التاريخية في وثائق الشركة وسجلاتها •

وتتناثر المعلومات الخاصة بالجزيرة العربية بأصناف عديدة من سجلات بومباي ، ولكن هناك اصناف معينة من تلك السجلات تتميز بغزارة المادة ووفرتها ومن هذه : (٧)

#### أولا - سجلات المقرات التجارية والمقيميات

Records of Factories and Residencies

ثانيا - سجلات مدينة بومباي The Presidency and Records

#### ثالثا - سجلات البعثات واللجان والمعاهد الخ

Records of Missions Committees, Institutions etc.

رابعا - مختارات من الرحلات والرسائل والاوراق الرسمية المحفوظة عند سكرتيرة بومباي

Selections from the Travels and Journals preserved in the Bombay Secretariat, edited by George W. Forrest.

#### خامسا - مختارات من سجلات حكومة بومباي

Selections from the Records of the Bombay Government Consultations

وجاءت أغلبية سجلات الاصناف الثلاثة الاولى بشكل « يوميات دون فيها مثلو الشركة جميع المراسلات المتبادلة بين بعضهم البعض وبينهم وبين مدراء الشركة في لندن وبينهم وبين الحكام المحليين • كما سجلوا

فيها المناقشات والمشاورات Consultations التي تجرى في مجلس المديرية ومجالس الوكالات والاجراءات والقرارات التي تتخذ تبعا لذلك . واعتاد ممثلو الشركة تدوين كل مايقع لهم وما يقع في المنطقة التي يقيمون بها من احداث في يومياتهم \* وكثيرا ماكتبوا في تلك اليوميات أنباء واخبار تطرقت الى سمعهم في اماكن بعيدة نسبيا عن اماكن اقامتهم \* وبعد هذا الوصف الموجز لمداول اليوميات نأتى على ذكر كل صنف من الاصناف الخمسة المذكورة لتبين مدى أهمية محتوياتها ليحثنا هذا \*

#### أولا - سجلات المقرات التجارية والمقيميات :

ونجد في هذا الصنف من سجلات بومباي نوعين متميزين هما :  
« يوميات المقرات التجارية Factory Dfaries وبومباي المقيميات Residency Diaries وضمن هذين النوعين من اليوميات نجد تلك السجلات الخاصة بمخا والبصرة وبندر عباس وبوشهر \* وفي كل هذه السجلات معلومات قيمة تخص الجزيرة العربية خاصة بالنسبة للفترة السابقة للقرن التاسع عشر \* »

فبالنسبة الى يوميات مخا ، هناك يوميات المقر التجارى في مخا Macha Factory Diaries ويوميات المقيمية من مخا Macha ResidencyDiaries

وتحتوى يوميات المقر التجارى على أربعة مجلدات ( مجلد رقم ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ) وتغطي الفترة من عام ١٧٢٢ الى عام ١٧٩٥ مع كثير من الفجوات \* (٨) وفي طياتها معلومات تجارية تخص القهوة وكل مايتعلق بتجارة هذه السلعة الهامة \*

وكانت مخا خلال القرن الثامن عشر السوق التجارى الرئيسي لتجارة هذه المادة \* وكانت سوقها رائجة والارباح المتأتية منها كبيرة ومغرية وقد قامت كل من شركة الهند الشرقية الانكليزية وشركة الهند الشرقية

الهولندية (٩) يفتح مقر دائم لها في هذا الميناء • وعلى هذا كان التنافس على أشده بين ممثلي هاتين الشركتين • كما كان هؤلاء جميعا في خصام دائم مع السلطات المحلية التي كثيرا ما وصفها الاوربيون بالتعسف مدعين انها ترفع اسعار القهوة دون مبرر ، وتفرض ضرائب باهظة على بضائعهم وسفنهم • ان يوميات المقر التجارى في مخا تغطي هذه الجوانب المختلفة، كما تورد انباء محلية اخرى كثيرة (١٠) •

اما يوميات المقيمة فهذه في الحقيقة ليست يوميات بقدر ما هي وسائل كتبها المقيمون البريطانيون في مخا وربان السفن الى رؤسائهم في بومباي « رسائل صادرة Outward Letters ورسائل تلقوها من اولئك الرؤساء » ورسائل واردة Inward Letters وفي هذه وتلك معلومات تجارية كثيرة الى جانب معلومات أخرى تخص نشاط البريطانيين وصلاتهم مع السلطات المحلية • كما ان فيها تغطية لبعض أحداث المنطقة •

وتقع يوميات مقيمة مخا في تسعة مجلدات ( مجلد رقم : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ) للفترة بين عام ١٨٢٠ وعام ١٨٢٨ • (١١)

ويوميات البصرة هي من اليوميات المهمة لبحثنا هذا ونجد فيها هي الاخرى يوميات مقر البصرة التجارى Bussora Factory Diaries ويوميات مقيمة البصرة Bussora Factory Diaries ومجموع مجلدات الاولى احد عشر مجلد والثانية تسعة مجلدات •

وتغطي هذه المجلدات العشرين الفترة من عام ١٧٦٣ الى عام ١٨١١ • مع قليل من الفجوات • والمادة التاريخية التي تحتويها يوميات البصرة كثيرة ومهمة ، وهي تخص البصرة ، وولاية بغداد ، والجزيرة العربية ، والخليج العربي ، والقوى المحلية ، والحكام المحليين لكل تلك الاماكن •

ومن اليوميات المهمة الأخرى التى تحتفظ بها سجلات بومباى هى  
يوميات بندر عباس Gombroon Diaries وتضم هذه سبعة مجلدات (من  
رقم ١١٢ الى رقم ١١٨) وتغطى مادتها الفترة من آب عام ١٧٤١ الى آب  
عام ١٧٥٧ • وقد سجلت هذه من بين أمور أخرى تحركات القبائل العربية  
في منطقة الخليج العربى في منتصف القرن الثامن عشر • واحداث الخليج  
العربى • ويقال الشيء نفسه عن يوميات بوشهر — هى مجلد واحد يحمل  
رقم ٣٥ ويحتوى على رسائل صادرة وأخرى واردة للفترة بين عام ١٧٨٩  
وعام ١٧٩٨ •

**ثانياً - سجلات مديرية بومباى** Bombay Presidency records  
وتصنف سجلات مديرية بومباى تبعاً للأقسام التى كانت تتألف  
منها المديرية • ووحى عام ١٧٥٥ لم يكن لمديرية بومباى الا قسم واحد  
هو « القسم العام Public Department وفي التاريخ المذكور انشئ قسم  
آخر هو « القسم السياسى والسرى Political and Secret Department  
ثم تتالت الاقسام • فانشئ القسم التجارى والقسم البحرى وقسم الايرادات  
والقسم الصحى والى آخره • وذلك نظراً لتوسع مهام المديرية وتشعب  
مسؤولياتها • (١٢)

وكان القسم السياسى والسرى يفصل الى قسمين « سياسى »  
و « سرى » فى بعض الاحيان ويدمج فى قسم واحد فى احيان أخرى •  
وقد نجد المعلومات التاريخية التى تهمننا متناثرة فى سجلات أغلب تلك  
الاقسام • ولكن المادة الاساسية تتوفر فى سجلات القسم العام للفترة  
السابقة لعام ١٧٥٥ وفى القسم السياسى والسرى للفترة التى تلت عام  
١٧٥٥ •

ووردت المعلومات فى سجلات كلا القسمين ( أى القسم العام والقسم  
السياسى والسرى ) ضمن اليوميات • وقد استمر نظام اليوميات هذا  
معمولاً به حتى عام ١٨٢٠ حين أبدل النظام برمته •



وهناك في القسم السياسى والسرى وللفترة ما بين عام ١٧٥٥ وعام ١٨٢٠ مايزيد على ١٠٠ مجلد تضمنت يوميات ادخلت فيها موضوعات تخص عدن ، والبحرين ، ومسقط ، ومخا ، واليمن ، وقبائل القواسم ، والدولة السعودية ، ومواضيع أخرى ذات صلة لما نحن بصددده . فهناك على سبيل المثال : أربعة مجلدات وردت في يومياتها امور ذات علاقة بعدن منها محاولة شركة الهند الشرقية لفتح قصر تجارى لها في هذا الميناء . (١٣) ومنها أيضا محاولة البريطانيين احتلالها واخضاعها لهيمنتهم . (١٤) والى جانب هذا فان هناك سبعة مجلدات وردت فيها معلومات متنوعة عن البحرين . اما مسقط فقد غطيت اخبارها في يوميات وردت في اربعة وثلاثين مجلدا . وتناولت تلك الاخبار النشاط الفرنسى في مسقط (١٦) وعلاقة حكام مسقط بشركة الهند الشرقية (١٧) وبياشا بغداد (١٨) وبالسعوديين . (١٩) والحرب مع حكام البحرين (٢٠) والصراع مع القواسم . (٢١) وحصار اسطول مسقط للبصرة (٢٢) والبحرين (٢٣) وهناك مجلدات وردت فيها أنباء عن شريف مكة وعلاقته بالبريطانيين (٢٤) والفرنسيين (٢٥) .

كما توجد ستة مجلدات تتوفر في يومياتها معلومات عن امام اليمن وعلاقته بالبريطانيين وامور اخرى . (٢٦) اما الدولة السعودية فقد غطتها يوميات وردت في أربعة عشر مجلدا تضمنت علاقات السعوديين بياشا (٢٧) بغداد وبحكام مسقط (٢٨) وصلاتهم مع شركة الهند الشرقية (٢٩) ومعلومات كثيرة ومتنوعة اخرى . (٣٠) وتوجد مجلدات كثيرة وردت فيها اشارة الى القواسم ورأس الخيمة والصراع بين القواسم والبريطانيين ولا يفوتنا بعد كل هذا أن نذكر أن هناك اكثر من تسعين مجلدا وردت في يومياتها اخبار بغداد والبصرة ، ومع أن اغلب المعلومات التى وردت في هذه المجلدات تخص ولاية بغداد الا ان المعلومات الاخرى ذات الصلة بالجزيرة العربية والخليج العربى ذات أهمية لا يمكن الاستهانة بها .

لقد ذكرنا ان نظام اليوميات قد أبطل في كل الاقسام وبالنسبة لجميع سجلات واجراءات الشركة بعد عام ١٨٢٠ • وصارت السجلات والمجلدات التى تضمها تصنف حسب الحروف الهجائية تبعا للموضوعات • وبالنسبة لمجلدات القسم السياسى والسرى فقد ووضعت سجلات خاصة بها ومستقلة تخص كل مكان وموضوع ذى شأن • لذا نجد السجلات التى تهمننا قد صنفت مجلداتها تحت العناوين الاتية : الخليج العربى ، مضأ ، مسقط ، أبو شهر ، التجارة ، تجارة الاسلحة ، البحرين ، عدن ، القواسم والى آخره • (٣١) وتتميز الفترة التى تلت عام ١٨٢٠ بكثرة المعلومات وغزارة المادة التاريخية التى تضمنتها سجلات بومباى • وقد زاد عدد المجلدات ذات الصلة بالجزيرة العربية والخليج العربى زيادة هائلة • ولعل التطورات السياسية تعطى التفسير الملائم للوضع الجديد •

شهدت بداية هذه الفترة نهاية الصراع المميز بين قبائل القواسم والبريطانيين ومهدت تلك النهاية السبيل لسيطرة بريطانيا سيطرة فعلية على الخليج العربى • (٣٢) وقد ارتبطت بعض القوى المحلية فى المنطقة ارتباطا وثيقا بالبريطانيين • وزاد هذا فى اهتمام هؤلاء بكل احداثها • وشهدت الفترة ايضا تحركات المصريين فى جزيرة العرب • وكان هناك احتمال فى اندفاعهم الى سواحل الجزير العربية وتعرضهم للمصالح البريطانية هناك واحتل البريطانيون عدن عام ١٨٣٩ •

وصمم البريطانيون على احكام سيطرتهم على الخليج العربى والممرات المائية المؤدية للمحيط الهندى فاوجدوا المبررات واختلقوا الحجج للتدخل فى شئون هذا الجزء من الوطن العربى أو ذاك • فحاربوا القبائل العربية بدعوى مكافحة القرصنة ومقاومة تجارة الرقيق ومنع تهريب الاسلحة وحماية امن المنطقة ضد اطماع القوى المحلية من فارسية وعثمانية ومصرية وضد القوى الاوربية الاخرى من فرنسية وروسية والمانية • وربط البريطانيون اغلب حكام المنطقة بمعاهدات واتفاقيات تضمن المصالح

البريطانية وانتشر القناصل والدبلوماسيون والممثلون في كل ناحية وميناء • (٣٣)

لقد اقتضى هذا التوجه الجديد زيادة في النشاط البريطاني وتطلب مضاعفة البريطانيين لاهتمامهم بكل شأن من شؤون الخليج العربي والجنوب العربي وشرق الجزيرة العربية والاقاليم المجاورة • فكتبت التقارير المعضلة لكل جانب من جوانب النشاط السياسي والاقتصادي والاداري في تلك الاماكن • ومسحت السواحل ، وتوغل الرحالة والمغامرون من قلب الجزيرة العربية • (٣٤) وغطي كل حدث بشيء كثير من التفصيل • فتراكت المعلومات وتضاعف عدد المجلدات الخاصة بكل جزء من اجزاء المنطقة • ويكفى ان نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ان هناك ستة مجلدات عن عدن لعام ١٨٤٠ وهناك خمسة مجلدات عنها لعام ١٨٤١ وسبعة مجلدات لعام ١٨٥٦ • كما توجد ستة مجلدات عن مسقط لعام ١٨٦٧ وتسعة مجلدات عنها لعام ١٨٦٩ • (٣٥) ومجمل القول ان هناك مايقرب من خمسمائة مجلد للفترة ١٨٢٠ - ١٨٨٠ لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بالجزيرة العربية ، متوفرة في القسم السياسي والسري في دار السجلات الحكومية في بومباي • (٣٦)

ويلاحظ الباحث تناقضا ملحوظا في سجلات القسم السياسي والسري خلال فترة السبعينات وبعدها • وينحصر التفسير لهذا التناقض في تساؤل الدور الذي أخذت تلعبه حكومة بومباي في الشؤون الخارجية •

سبق أن ذكرنا في بداية هذا البحث ان مديرية بومباي كانت مسؤولة عن رعاية مصالح شركة الهند الشرقية ، بل ومصالح الامبراطورية البريطانية عن اجزاء مهمة من العالم تقع الى الغرب من شبه القارة الهندية مثل : منطقة الخليج العربي والجنوب العربي والجزيرة العربية والعراق وفارس وفي عام ١٧٧٣ سن البرلمان الانجليزي ما يعرف « قانون التنظيم » The Regulating Act الذي منح مديرية البنغال ومقرها كلكتا الاشراف

على شؤون المديرتين الاخيرين بومباى ومدراس • (٣٧) ولكن بومباى استمرت في رعاية الشؤون الخارجية للمصالح البريطانية في الاماكن الالفة الذكر • وبقي الوضع على ما هو عليه حتى بعد انتهاء دور شركة الهند الشرقية وتولي •• حكومة لندن الاشراف الكامل على شؤون الهند في عام ١٨٥٧ •

وكان هناك شعور متزايد لدى الاوساط الحاكمة البريطانية سواء في انكلترا او في الهند بأن استقلالية الحكومات المحلية في الهند بآدارة الشؤون الخارجية لا يخدم مصالح الامبراطورية البريطانية على الوجهه الافضل • ان تطور وسائل المواصلات وسرعتها واستخدام التلغراف ازال المبررات التي كانت قائمة والتي أعطت المديريات الثلاث في الهند حق الاشراف على الشؤون الخارجية كل في مجالها الخاص • وانه آن الاوان لاختضاع جميع الشؤون الخارجية لسلطة حكومة الهند المركزية •

واخيرا وبعد مفاوضات مطولة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند وحكومة بومباى تمت الموافقة في عام ١٧٧٢ م على نقل الاشراف على الشؤون الخارجية الى حكومة الهند المركزية • على أن ترسل نسخ من كل المراسلات للوكالة البريطانية في الخليج الى حكومة بومباى لاحاطة المسؤولين في تلك الحكومة بالمعلومات الضرورية من جهة وللاستفادة من ملاحظاتهم وخبراتهم من جهة أخرى • (٣٨)

واستمرت حكومة بومباى لسنين عديدة تشارك حكومة الهند المركزية في ادارة الشؤون الخارجية ولكن دورها كان في تناقص مستمر • وما أن حل القرن العشرون حتى انتقلت ادارة تلك الشؤون برمتها الى حكومة الهند المركزية • وهكذا انتقلت المادة التاريخية الاساسية الى اماكن اخرى من الهند • ولم تعد بومباى هي المكان الملائم تماما للبحث عنها •

ولا اريد الانتقال الى بحث الاصناف الثلاثة التالية من سجلات بومباى دون التطرق الى الميزة الاخرى للصنفين اللذين سبق الكلام عنهما ( سجلات المقرات التجارية والمقيميات ، وسجلات مديرية بومباى ) • وهذه هى اهميتها الخاصة كسجل مهم لتحركات القبائل العربية • ولعل سجلات هذين الصنفين هى من افضل المصادر التاريخية في هذا المجال • ( ٣٩ )

فقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر فعاليات عربية واسعة النطاق في قلب الجزيرة العربية وعلى جانبي الخليج العربى • واطهرت القبائل العربية من الحيوية والنشاط والقدرة البحرية والقوة ما ليس له مثيل في تاريخ العرب الحديث •

ولعل اندفاع قبائل عمان في عهد اليعاربة في النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وتحرك القبائل العربية من وسط الجزيرة العربية في اطار الدعوة الاصلاحية في النصف الثانى من القرن الثامن عشر ونشاط القبائل العربية في الجزء الشمالى من الخليج العربى ( عرب بوشهر ، وبندر ريق ، وجزيرة خارج ، وقبيلة كعب ، وعرب العتوب ) ، ثم النمو الهائل في قوة القواسم في نهاية القرن وصراعهم الطويل المير مع الانكليز ، ونجاح عرب العتوب وعرب عمان والجنوب العربى في المجال التجارى ( اضافة الى نشاطاتهما السياسية والعسكرية ) وسيطرتهم على التجارة بين الهند من جهة والخليج العربى والبحر الاحمر من جهة أخرى • كل هذه مظاهر واضحة للحيوية والنشاط العربيين •

واشتبكت القبائل العربية في صراع طويل مع العشانيين والفرس طيلة القرن الثامن عشر ، وذلك للتخلص من نير هؤلاء وهيمنتهم • وزج الانكليز والهولنديون بأنفسهم في هذا الصراع • وادى تدخل الهولنديين الى جانب الفرس ضد مير مهنا حاكم ميناء بندر ريق وجزيرة خارج الى قيام الحرب بينهم وبين هذا الرئيس العربى ، و انتهت الحرب بانتصار الاخير وسقوط جزيرة خارج آخر معاقل الهولنديين في الخليج عام ١٧٦٧ وكانت هذه نهاية الوجود الهولندى في الخليج العربى •

وتدخل البريطانيون في الحرب الدائرة بين قبيلة كعب من جهة والفرس والعثمانيين من جهة أخرى وذلك بحجة حماية الملاحة في شط العرب والحفاظ على تجارة البصرة • ودارت الدوائر على العثمانيين والفرس وحلفائهم الانكليز ، وتوالت عليهم الهزائم والنكبات • ويكفى ان نذكر هنا أن الاسطول الذى ارسلته السلطات الانكليزية الى الخليج العربي في عام ١٧٦٦ لمحاربة كعب يمثل اعظم قوة بحرية بريطانية دخلت مياه الخليج منذ قدوم الانكليز الى هذه المياه في اوائل القرن السابع عشر وحتى قيام تلك الحرب •

وخلال الفترة ١٧٦٦ - ١٧٧٢ كان الاسطول الانكليزى في الشرق مشتبكا برمته تقريبا في الحرب ضد كعب وضد ميرمها • تطلب الأمر أخيرا الاستعانة بالاسطول الملكي في اوربا للمساهمة في الحرب ضد القبائل العربية •

كل تلك الجوانب من النشاط العربي السياسي والعسكري والتجارى وكل هذه الحيوية للقبائل العربية ، دونت يوما بيوم في كثير من الاحيان • وسجلت بشيء كثير من التفصيل ، ووصفت بقسط كبير من الاثارة في يوميات بندر عباس ويوميات البصرة ويوميات بوشهر وفي سجلات القسم السياسي والسرى • هذا وقد نستطيع القول بشيء قليل من التحفظ ان اية دراسة جادة لتاريخ الجزيرة العربية والتحركات وفعاليات القبائل العربية لا يمكنها تجاهل سجلات بومباى هذه •

### ثالثا - سجلات البعثات واللجان والمعاهد الخ

Records of Missions, Committees, Institutions, etc.

ونجد في هذا الصنف من السجلات مجلدا واحدا فقط يهمنا في هذا

البحث وهذا المجلد هو (٤٠) •

Mission to Arabia with a Route from Kutteef to Yanbo.

ومحتويات هذا المجلد هي عبارة عن وقائع رحلة ج • سادلى الذى

انتدب من قبل السلطات البريطانية الى ابراهيم باشا وكذلك بعثة كابتن

بروس المقيم البريطاني في مخا •

ومر سادلر بكثير من موانيء الخليج واعطى وصفا مفصلا للقطيف  
ولقراها وللموارد المالية والسكان • (٤١) كما اورد رسائله الى رئيس بنى  
خالد والى شيوخ البدو • (٤٢) والمجلد بجملة تسجيل لوقائع الرحلة  
يوم يوم •

#### رابعاً - مختارات من الرسائل والاوراق الرسمية الاخرى (٤٣) :-

Selections from the Letters, Despatches and other State papers, by George W. Forrest.

ويتضمن هذا الصنف من السجلات كثيرا من الرحلات قام بها عدد  
من المغامرين كان اغلبهم في خدمة شركة الهند الشرقية ، وقد قام جورج  
فورست باختيارها وطبعها لاعتقاده باهميتها • وفيما يخص جزيرة العرب  
نجد اربعة من هذه المختارات هي :

I. Narrative of a Journey from the Tower of Ba-L. Haff on Southern Coast of Arabia to the Ruins of Nab-al-Hajor ; in April 1835, by Welested, Indian Navy.

لقد كان ولستد وزميله ( كروتندن Capt. Cruttenden ) على  
ظهر سفينة الشركة الاستطلاعية ( بالترز Palinurus ) بالقرب من  
ساحل رملي يدعى ( رأس الاسد Ras-ul-Asseida ) عندما تطرق  
الى سمعهم من بعض البدو بوجود خرائب وبقايا مدن كان قد اقامها الكفار في  
سابق الزمن وهي لا تبعد كثيرا عن موقع سفينتهم • فما كان من ولستد  
وكروتندن الا ان ملاقتهما بالماء وامتطيا الجمال وسارا قدما مسة  
تصحبين معهما بعض البدو العارفين في المنطقة وكانت الرحلة شاقة ولكن  
النجاح الذي حققه استحق ذلك العناء • (٤٤) لقد كانت رحلة جريئة حقاً  
وكان القائمون بها روادا لمن جاء بعدهم من المستكشفين •

#### ٢ - والرحلة الثانية في هذه المختارات هي :

Account of an exursion in Hadramount by Adolphe Baron Wrede.

وبارون رد هذا مغامر بافارى من اسرة كريمة • قام برحلة من عدن الى المكلا في ٢٢ حزيران ١٨٤٣ • وفي ٢٦ منه بدأ في التوغل الى الداخل • وقد استعان ببعض البدو الاشداء لحمايته • واستغرقت رحلته ١٢ يوما وصل خلالها الى منطقة بحر Bahr-el-Saffi ، وترك وصفا ممتعا لهذا الموقع وللمنطقة المحيطة به • وقام الكابتن هينز Capt. Haines بارسال وصفة هذا الى حكومة بومباي • وارسلته هذه بدورها الى الجمعية الملكية الجغرافية • واثارت رحلته رد الاقاويل فقد اشيع ان وصفه جاء عن طريق السماع دون المشاهدة الحقيقية للمواقع التي ذكرها • وتوفرت الادلة بعد وفاته بصحة كل ما جاء في روايته وانه قد قام حقا بتلك المغامرة الجريئة • (٤٥)

### ٣ - والرحلة الثالثة هي :

Narrative of journey from Mooha to Sana by Charles J. Cruhendeu.

ففي ١٣ تموز عام ١٨٣٦ غادر كروتندت مخا متوجها الى صنعاء وكان بصحبته الدكتور هالتن Dr. Halton وخادمان وكان الجميع مسلحين ووصل العاصمة اليمانية ومكث فيها شهرين • وقد ترك وصفا شيقا للطريق الذي سار فيه وللعاصمة • وشهد موكب الامام عند تأديته صلاة الجمعة • وعثر كروتندن عندما كان في صنعاء على بعض النقوش الحميرية ، عرف انها نقلت من مأرب • وقد قام باستنساخ بعض تلك النقوش •

### ٤ - والرحلة الرابعة هي :

Memoir of the South Coast of Arabia from the entrance of the Red Sea to Misena't by Captain S.B. Haines.

لقد قيل ان هناك قلة من الناس يفوقون الكابتن هينز مهارة في فن الملاحة ووصف هينز رحلته بانها محاولة لاعطاء وصف لخمسائة



ميل من الساحل الجنوبي لجزيرة العرب • التي لا يعرف عنها الا النزر  
اليسير • وشمل وصفه الحكومات والسكان والتجارة والزراعة •

والمعلومات التي اوردها هينز كان قد جمع البعض منها بنفسه ، عما  
قام بجمع البعض الاخر عدد من ضباط- وبحارة سفينة الشركة الاستطلاعية  
( بالنرز ) خلال الاعوام ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ ، ١٨٤٦ • ( ٤٦ )

#### خامسا - مختارات من سجلات حكومة بومباي :

Selections from the Records of the Bombay Government.

ويتضمن هذا الصنف تقارير ودراسات ورحلات متنوعة قام بها  
اشخاص بريطانيون وغير بريطانيين في أوقات متفاوتة • واختارتها حكومة  
بومباي ، لاعتقادها بأهميتها ، وقامت بطبعها ونشرها ، وهناك عدد من  
هذه المختارات تخص جزيرة العرب جمعت كلها في مجلد واحد ، ويحتوي  
هذا المجلد على هذه المختارات :

1. A History of Arabia Felix or Yemen from the Commencement of the Christian Era to the Present Time, Including Settlement of Aden by Capt. R. Playfair.
2. Description of Arabia, made from personal observations and information collected on the spot, by Garsten Niebuhr. Translated into English by Major C.W. Sealy (1889).
3. Hadhrthramut and the Arab colonies in the Archipeloge, by L.W.C. Van Den Berg. Translated into English by Major C.W. Sealy (1887).

## الهوامش

1. Guide to the Records in the National Archives in India, Part I (Introductory), National Archives of India, New Delhi ; 1959, p. 9.

( ٢ ) للاطلاع على المزيد من المعلومات عن هذه ، انظر المصدر السابق .

( ٣ ) اما المديريتين الاخرتين فهما مديرية مدارس ومديرية كلكتا .

( ٤ ) للاطلاع على تنظيمات الشركة في منطقة الخليج العربى والجنوب العربى .  
انظر - ج لورمر ، دليل الخليج ، الجزء الاول ، طبعة جديدة معدلة ومنقحة .

V.G. Dighe, Descriptive Catalogue of the Secret and Political Department Series 1755-1820, Bombay 1954.

( ٥ ) للاطلاع على المزيد من فعاليات الشركة وتجارتها انظر :

H. Furber, John Company at work, Cambridge ; Harward University Press, 1948 ; F. P. Robinson, The Trade of the East India Company, Company Cambridge : 1912 ;

الدكتور عبد الامير محمد امين

( التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية في منطقة الخليج العربى والاقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ) مجلة كلية الاداب ، بغداد ١٩٦٣ .

A.F. Kindersley, A Handbook of the Bombay Government Records, Bombay ; 1921.

( ٨ ) لا توجد يوميات لعام ١٧٢٣ - ١٧٢٤ وكذلك ١٧٢٤ - ١٧٢٥ وللفترة من آب عام ١٧٢٦ - آذار عام ١٧٣٠ ومن آب عام ١٧٣٠ - نيسان عام ١٧٣٣ ومن آب ١٧٣٣ - آذار عام ١٧٥٢ ومن تموز عام ١٧٥٢ - نيسان عام ١٧٩٥ ومن حزيران عام ١٧٩٣ - نيسان عام ١٧٩٥ .

( ٩ ) لمعرفة المزيد عن النشاط الهولندى في مخا انظر : -

Kristof Glamann, Asiatic Trade 1620-1740, Copenhagen ; Danish Science Press, 1958.

See Bombay Government Records, Records of Factories and Residencies Mooha Factory Diaries Vols ; 64, 74, 75, 76.

مجلد رقم ٦٤ يغطي الفترة ١٧٢٢ - ١٧٢٣ وفيه ٨٢ صفحة وهو في حالة رديئة غلافة متآكل وكذلك الحال بالنسبة لكثير من صفحاته .

مجلد ٧٤ في حالة افضل . وقامت دار الوثائق في بومباي بترميمه واعادة تغليفه . وقد لاحظ الباحث ان عملية ترميم المجلدات واصلاحها سائرة قدما في الدار المذكورة . وشملت عملية الاصلاح هذه اعداد كبيرة من المجلدات التي تآكلت اغلفتها واوراقها لتقاوم الزمن وبفعل الرطوبة والأتربة وعدم اتباع الاساليب التعليمية الحديثة في الصيانة .

مجلد رقم ٧٥ لا يزال في وضع رديء للغاية . ومن مجلد رقم ٧٦ ( وهو في حالة افضل ) معلومات كثيرة عن القهوة والضرائب المفروضة عليها . كما انه يحتوي على اخبار تجارية طريفة تشمل اسعار السلع الهندية والبنغالية في اسواق مخا بشكل مفصل . وكذلك حمولة بعض السفن القادمة الى مخا والخارجة منها .

See Mooha ffidency Diaries Vols. 65-73.

ويحتوى مجلد رقم ٦٥ على رسائل متفرقة للفترة ١٨٢١ - ١٨٢٦ وهي رسائل واردة الى مقيمة مخا . والمجلد في حالة جيدة قابل للقراءة ومجلد ٦٦ يحتوي هو الاخر على رسائل واردة . مجلد ٦٧ يحتوي على رسائل واردة للفترة ١٨٢١ - ١٨٢٧ . وترتيب الرسائل في المجلد الاخير مضطرب جدا واوراقه وغلافه في وضع سيء للغاية وتصعب قراءة اغلب ما جاء فيه .

اما مجلد ٦٨ فيضم رسائل صادرة من مخا الى بومباي للفترة ١٨٢١ - ١٨٢٨ وهو في حالة جيدة قابل للقراءة .

المجلدات ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ تضم اوراقا متنوعة تشمل حسابات المقيمة وكشوف وبيانات وتقارير تجارية والمنشئات والبضائع المتبقية والغير قابلة للبيع وفضلات الاقمشة والخ .

See Kinderaley, op. cit.,

See Bombay Government Records, Bombay Presidency Records, Secret and Political Department, Vol. 87, Diaries (8, 9, 10) ; Diary (26) ; Vol. 106, Diary (10).

14. Ibid., Vol. 123, Diary (5).

15.	Ibid., Vol.	Diary
	41	13
	299	5
	300	1
	307	1
	431	14
	432	12
	439	6
16.	Ibid., Vol.	Diary
	52	27
	147	14
	150	15
	197	8
17.	Ibid., Vol.	Diary
	74	8
18.	Ibid., Vol.	Diary
	84	24
19.	Ibid., Vol.	Diary
	113	3
20.	Ibid., Vol.	Diary
	116	9
21.	Ibid., Vol.	Diary
	115	3
22.	Ibid., Vol.	Diary
	398	14
23.	Ibid., Vol.	Diary
	406	14
	411	13
24.	Ibid., Vol.	Diary
	86	1
25.	Ibid., Vol.	Diary
	402	10

26. Ibid., Vol.	Diary
316	12
411	15
473	7
490	8
491	4
494	9
27. Ibid., Vol.	Diary
207	1
28. Ibid., Vol.	Diary
113	3
135	3
140	10
146	16
147	1.14
29. Ibid., Vol.	Diary
148	20
150	15
30. Ibid., Vol.	Diary
151	4
152	2
227	7
238	8
405	7

31. See Bombay Government Record, Secret, and Political Department.

( ٣٢ ) للاطلاع على المزيد عن الصراع بين الانكليز والقواسم ولمعرفة المزيد من وقائعه انظر : صالح محمد العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، بغداد : ١٩٧٥ .

( ٣٣ ) لمعرفة المزيد عن دور البريطانيين في المنطقة خلال القرن التاسع عشر انظر : J. B. Kelly, Britain and the Persian Gulf 1795-1880 London 1964

( ٣٤ ) انظر مابعده ص

35. See Bombay Government Records, Secret and Political Department. ومما يجدر ذكره ان اغلب المجلدات الخاصة بـ عدن وصلت الى عدن نفسها لتحفظ هناك .

37. W. Hunter, A Brief History of the Indian People (24th ed.,) Oxford: 1909, p. 186-7.

( ٣٨ ) لورمر ، دليل الخليج ، الجزء الاول ص ص ٤٢٣ - ٤٢٥ .

( ٣٩ ) عاليج الباحث موضوع تحركات القبائل العربية ومقالباتها في عدد من المقالات والكتب منها : القوى البحرية في الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر ، بغداد : ١٩٦٦ ، اضواء جديدة على تاريخ الخليج العربي الحديث ، المجلة التاريخية ، بغداد . العدد الاول ، السنة الاولى ، دور القبائل العربية في صد التوسع الاوربي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . بحث القي في المؤتمر الدولي للتاريخ ، بغداد : ١٩٧٣ . ويقوم الباحث الان باعداد دراسة موسعة ومتكاملة في هذا الشأن .

40. Bombay Government Record, Records of Mission, Committees, Institutions, etc., Vol. 323.

وهذا المجلد بشكل جيد غلافة سليم واوراقه مربوطة مع بعضها البعض بشكل محكم . ولكن الكتابة في بعض صفحاته غير واضحة وتحتاج الى مران وتمرس في القراءة .

41. Ibid P. 22,

42. Ibid P. 40,

» ( ٤٣ ) وردت سجلات هذا الصنف في Kindersley كملحق E

ولكن الارقام والمعلومات التي اوردها الدليل لاتساعد كثيرا في العثور على هذه السجلات . وقد بذل الباحث جهودا كبيرة للحصول عليها واخيرا وجدها وقد كتب من الغلاف المعلومات التالية :

( ٤٧ ) ورد هذا الصنف من السجلات كملحق F في Kindersley ولكن المعلومات التي اعطيت في هذا الدليل لاتساعد في العثور عليها. وقد وجد

Selections from the Recors of the bombay Goveament No. 398318

48. Ibid

49. Ibid

50. Ibid







# From the Arabian Gulf to the Lands of the Bulgars - an Important Dimension in Medieval Muslim Trade

W. A. Douglas Jackson  
Department of Geography  
University of Washington, Seattle

## I

### BAGHDAD AND ITS SETTING

By the tenth century of our era, the once unitary Islamic empire was torn by diverse forces from within and subject to external threats and pressures from without. The broad dimensions of Islamic Influence, described about 975 A. D. by the geographer, Ibn Hauqal, could not conceal the fact that this was a time of great tribulation for the peoples of the Afro-Asian dry world culture realm.

It was, according to Ibn Hauqal, a journey of four months from Fergana in the east to Yemen in the southwest, passing through the lands of Khorasan, Iraq and Arabia. Four months also separated the northern boundary of the Islamic world with Byzantium and the Indus Valley in the south. In Africa to the west Islam stretched, to use Ibn Hauqal's phrase, like the sleeve of a garment through the Maghreb to Andalusia in Spain. What is more Islam had been carried along the trade routes to the coasts of India, Malacca and even China. And, by the early 10th century, Islamic influence achieved its greatest penetration of Eastern Europe by means of the Volga to the forests at its confluence with the Kama.

Still the armies of Allah had been met at Poitiers and driven out of France and subsequently pushed southward from the Pyrenees. There had been losses, too, in the Sea of Rum, the Mediterranean. Turkic nomads had begun pressing in from the northeast, while a new phenomenon, the Northmen, Varangians<sup>2</sup> or Ruses, had appeared out of the Baltic to strike terror into the hearts of Arabs as well as of Europeans. Finally,

within the caliphate, its strength and vitality drained, the ascendancy on both the cultural as well as on the political plane was passing to the Iranians,

The ninth century - the previous 3 century - had seen Islamic navigation and commerce reach its greatest extent. The establishment of the political capital in Iraq under the Abbasids in the middle of the eighth century had afforded many advantages. Despite periodic flooding of the rivers, Mansur's city on the Tigris, Baghdad or The City of Peace, lay in the midst of a fruitful country, its lands cultivated 4 from the desert in the west to the mountains of Kurdistan in the northeast. A system of canals extending from the Euphrates eastward brought water to what would be otherwise parched fields. Clearly this was a more bountiful location than Kufah on the edge of the desert to the south.

Baghdad, more importantly, could command the caravan routes that led to the west and to the east and northeast. Moreover, by reason of the canals and rivers, it had water connections with Syria and Byzantium to the north and with Basra and the Arabian or Persian Gulf to the south. Under these conditions a flourishing trade developed between Baghdad and countries and ports both near and far. Basra, together with Siraf to the east, had been important centers of trade even before Islamic times, but the establishment of the caliphate 5 in Iraq and especially in Baghdad gave a substantial boost to maritime trade.

In the building of Baghdad, Al-Mukaddisi, the geographer, states that the caliph took the advice of those who had long experience in the area. His account is prophetic, „Also the city being on the Sarat Canal, provisions will be brought thither by the boats of the Euphrates, and by the caravans through the plains, even from Egypt and Syria. Hither, up from the sea will come the wares of China, while 6 down the Tigris from Mosul will be brought goods from the Byzantine lands...

As a whole the caliphate was situated at the crossroads of the commerce of the world, Merchants and buyers were attracted by the populous bazaars, while the depots were full of merchandise, produced both locally and abroad : Egyptian flaxen fabrics could be procured in city markets not only in Africa but also in Asia and even in Europe ; Syrian silks and glassware, weapons and metal vessels were in demand everywhere ; western Iran provided rugs and artistic embroideries ; Khuzistan exported sugar, and here as well as in the Kufah district, cotton was grown. Copper was

mined in Iran, Central Asia, Armenia, Ifriqiya (Tunisia), and Andalusis ; northern and western Iran were rich in tin and lead, and mercury was mined near Istakhr ; southwestern Iran and northern Iraq were known for their abundance of mineral 7 oil and bitumen, and southern Iran provided valuable goods such as opium and indigo.

Through Basra and its suburb Al-Ubulla, came the silks of China, the tin of Kala or Malacca, the spices and aromatics of India, woods of different varieties and other items - these and many more to delight the eye, the taste, the smell, the touch - flowed into the emporium at Baghdad. And there they were exchanged for the merchandise originating in northern lands 8 - furs, skins, wax, honey, nuts, swords, falcons, cattle and fair-haired slaves.

the extension of Islamic trade and influence to the northern peoples who produced these last commodities would have had little documentation were it not for the accounts of Arab travellers, missions, and geographers that have come down to us. They are, moreover, substantiated by the uncovering of vast quantities of Muslim coins and other silver items, dating from the seventh to the eleventh centuries, in the basin of the Volga, across north-central Russia to Poland and Germany, on the Baltic coasts of Finland, Sweden 9 and Norway, not to mention the isolated finds in the British Isles and Iceland.

It seems unlikely that Islamic merchants ventured overland as far as the Baltic (or even for that matter into Western Siberia), for the goal of their travels was not the outer reaches of the earth but the great market, at Bulgar near the junction of the Kama and the Volga rivers. From this vast forested territory we know from Al-Maqdisi, sable, ermine, fox, beaver, spotted hares and goat fur, together with wax, arrows, birch bark, high fur caps, fish glue, fish teeth, castoreum, amber, prepared horse hides, honey hazel nuts, falcons, swords, armour, maple wood, cattle both large and small, as well as slaves, were accumulated 10 for transport to Khazaria, the Caucasus, Kharizim, Iraq and the gulf ports.

The presence of Islam along the Volga in these early times has been fully substantiated by the archeological research carried out in Russia both before and after the 1917 Revolution. Clearly the relations between Baghdad and Bulgar were important in the economic and geo-political structure of the world a thousand years ago.

## II

### THE ARABS AND THE KHAZARS

The first contact between Islam and the inhabitants of modern day Russia occurred not long after the Hegira. About 642 A.D. Arab armies broke through the Caucasus Mountains along the route of the Georgian Military Highway in a drive that was aimed at Constantinople. In the lowlands along the Caspian Sea they came in contact with a people known as the Khazars. A nomadic or semi-nomadic Turkic people, the Khazars were the strongest force in the North Caucasus, II gaining preeminence with the demise of the West Turkic Empire (c. 550-650).

In 643 Bab al-Abwab, the Gate of Gates, a former Sassanid fortress (now known as Derient), was occupied by Arab armies. The latter may have pushed porthward to balangar but they were unable to take it. In any case, the Arabs returned in 652 and reached Balanger, but lacking again the strength to go further they fell back to the muntains. The Khazars, whose capital lay at Samandar on the coast to the north of Dalangar, transferred the seat of their power to the north, to Itil or Atia near the mouth of the Volga. There they erected a state organization that was to play a major role in Eastern European affairs until the 10th century.

Between 722 and 737. Arab forces again tried to penetrate Khazaria. A thrust northward through Derbent reached Samandar and even Itil itself. The Kagan of the Khazars agreed to accept Islam and the Arab commander, the future Marwan II, returned to Damascus. Despite this penetration of Khazaria, the Aerabs - in part because of difficulties within the caliphate in Syria - were stopped in their attempt to reach the ultimate prize, Constantinople. At about the same time, on the opposite side of Europe, Charles Mantel in 732 the Battle of poitiers, delivered a blow that turned the invading Arabs back to the Pyrenees.

Khazaria, despite its humiliation, proved an effective barrier to the Penetration of Byzantium from the east. Because of its wide extent in the South Russian steppe, it served as a buffer protecting the empire's eastern flank against incursions of nomadic peoples from Central Asia and of Arab

armies from the south. The Khazar-Byzantine alliance was cemented by the marriage of the Khazar princess Irene to the future emperor, Constantine V, a union that produced a Khazar emperor, Leo IV, who ruled in Constantinople in 775-780. As the strength of the Khazar state grew, it came to impose tribute on some of the Slavic 12 tribes to the northwest, namely the Polane, Severiane, and the Viatichi, as well as on the nomadic tribes to the east, the Pechenags between the Volga and Ural Rivers and the Oghuz Turks to the southeast of them.

While the ending of the Arab wars in the north paved the way for the rise of Baghdad under Harun al Rashid,<sup>13</sup> the ruling class of the Khazars, left to their own, promptly converted to Judaism. The latter move was motivated most likely by political factors since the adoption of Judaism does not seem to have been accompanied by any great fervor. In any event, with a Christian empire to the west and a Muslim realm to the south, the adoption of Judaism suggests both a position of independence and an understanding of political strategy. Khazaria became a haven for all types. Under its Jewish elite, the state harbored Slavs, Turks, Muslims and Christians. The Muslim lived for the most part on the east bank of the Volga in Khazaran; the Jews occupied the capital proper on the west bank with their auxiliary troops who were Muslim.

Itil also gained from trade, channelling the 14 goods from as far away as Arab Spain and Byzantium to Central Asia and China. On the Volga traffic, the Khazars levied a 10 percent tax. Travel upstream was slow, the journey from Itil to Bulgar requiring about 2 months. Moving downstream, the flow of the current shortened the trip to 20 days. Al-Istakhri tells of caravans passing between Khwarizm south of the Aral Sea and Khazaria, bearing Slavic, Khazar and Turkic slaves, as well as furs. Most likely this route is the 15 „royal road” of which the Russians found traces in recent times from the air.

In the century that followed the conversion to Judaism, relations between the Khazars and Arabs were not always friendly, although they were not openly hostile. The Arabs certainly lacked the will to mount another campaign north of the Caucasus. Still Khazaria may not always have been openly tolerant of its diverse population. The Arab historian Al-Baladhuri reports that in 854-855 A.D., 300 families left Itile because of their Muslim inclination and resettled in Armenia. The fact that the



special mission sent from Baghdad to Bulgar deliberately avoided Itil some seventy years later suggests that such a delegation would not have welcome in Khazaria. Hence, the travellers preferred to take their chances with the nomadic tribes in the steppe far to the east.

### III

#### THE BULGARS

The pressure of the Arabs on the Khazars from the mid-seventh to the early eighth centuries contributed to the splintering of the Bulgar peoples who had located somewhat earlier on the west side of the North Caucasus, particularly in the Kuban Lowland.<sup>18</sup> The Bulgars, like the Khazars, were of Turkic origin and possibly, as Al-Istakhri suggested in the first half of the tenth century, shared a commonality of language. <sup>19</sup> In any case they were subservient to the Khazars.

The internal cohesion of the Bulgars came to an end in 642 A.D. the year of the first Arab-Khazar War. Subsequently, the main body of the Bulgars migrated in 678-680 along the Azov and Black Sea Coasts to the lower Danube where they were subsequently absorbed by Slavs. Another group remained in the Kuban only to lose its identity in waves of nomadic tribes. A third group, and by far the smallest in number, retreated to the Volga, settling near the mouth of the Kama where they subjugated the native Finnic peoples.

Cattle breeding remained the chief occupation of the Bulgars and the initial foundation of their economy. Al-Istakhri (932 A.D.) mentions that the inhabitants of the Bulgar state practiced a form of transhumance, spending the winters in wooden houses and the summers in tents. <sup>20</sup> By the tenth century, however, the society most likely was in transition to a sedentary way of life. Because of its location, Bulgar had quickly emerged as a trading center and depot of considerable importance.

The first official and non-military contact between the Arabs and the Turkic peoples of the Volga basin occurred in 844 A.D. When the Caliph al-Wathiq (842-847) despatched Sallam to survey the coast of the Caspian Sea then known as the Sea of Tabaristan, which Sallam called the Sea of the Khazars.<sup>21</sup> Arab traders, however, may have found their way at an earlier date into the Dnieper basin and the Black Sea littoral. The large hoard of Arab coins from this date found at Kiev would suggest this.

Certainly Arab contacts with the Volga basin increased and in 868 A.D., according to Ibn al-Atir, Arabs reached Bulgar.<sup>22</sup> It is possible that at this time, if not earlier, the Bulgars were introduced to Islam, because the Kagan of the Bulgars, Alms or Almua, subsequently adopted the title of emir.<sup>23</sup> The first reliable report of the emergence of Islam in Bulgar follows the invitation of Almus to the Caliph al-Muqtadir in Baghdad to send an embassy consisting of teachers, architects and technicians experienced in the construction of fortifications. It has been assumed

that the concern for defence was aimed at the Khazar overlords to the south, but in view of the raids of Norsemen down the Volga from the middle of the 9th century onward the Bulgar need for fortifications may have been directed at the barbarians from Scandinavia.

In 922 A.D. a mission led by Susan-al-Rassi set out from Baghdad for Bulgar.<sup>24</sup> Eleven months later it reached the Bulgars, taking the caravan- but very indirect routes through Central Asia rather than crossing the Caucasus. Accompanying the mission was an observant diarist, Ibn Fadlan, whose account of the events of the journey and its destination affords the first authentic literal evidence of the importance of Islam among the Bulgar peoples.

First of all the embassy followed a northeasterly direction, in part along the so-called Khorasan Road, to Rayy. From there the party proceeded to Merv, crossing the desert to Amul on the Oxus. From Amul visited they Bukhara and the Samanid Prince Nasr-Ibn-Ahmad. From Bukhara they returned to the Oxus where they took a ship to al-Kath.

There the Khwarizm-shah tried to persuade them to go no further. Escaping from his hospitality, the mission reached Gurganj in the estuary of the Oxus where it joined a caravan, reportedly consisting of 5,000 men and 3,000 pack animals. The route to Bulgar lay through the arid Ust-Urt Plateau after which it crossed the parched grasslands of the Oghuz Turks. Reaching the Yaik or Ural River to the north, the mission forded the Yaik or Ural River near present-day Uralsk in the territory of the Pechenegs. From there they struck off overland through the forest steppe and forest to Bulgar.

Apparently of Greek origin, Ahmad-ibn-Fadlan nevertheless was knowledgeable in the ways of Islam and his account is remarkable for its

detail. Ibn-Rusta in a report dated about 912 A.D. mentions wooden mosques; Ibn-Fadlan describes the mosques schools, imams and cemeteries as similar to those in Arabia.<sup>25</sup>

The sending of a mission to the Bulgars <sup>26</sup> suggests that the Arabs understood perfectly well the role that Greater Bulgaria was to play. The Bulgars first of all were astride the middle reaches of the major trading route in Eastern Europe. By the middle of the 9th century Baghdad knew of the importance of the Volga. Ibn-Kurdadbeh in his **Book of Roads and Kingdoms**, dated 847, refers to the Volga trade<sup>27</sup>. Moreover, he mentions also the presence of Scandinavian traders, claiming to be Christian, in Byzantium and Baghdad.<sup>28</sup> Norse traders may have been reaching Baghdad via the Russian rivers as well as by sea around Europe. Bulgar not only was in a position to dominate the traffic between the Baltic and the lower Volga, but it lay also on an overland route that led from Western Europe to Kiev and via the Oka River to the Volga.<sup>29</sup> Like Baghdad far to the south Bulgar was the focus of trade between east and west, north and south.

Baghdad undoubtedly saw Bulgar as an advance post of Muslim culture and influence in the north beyond Khazaria. For the Bulgars, the Arabs posed no threat, their trading activity was welcome, and their presence offered a counterpoise to the Khazar overlords in Itil. After 922 the growth of commerce and the increase in the number of Arab, Khwarizm and Persian merchants in Bulgar must have borne out all hopes and expectations. Al-Masudi in a text dating from 943 notes that "Big ships travel on this river (the Volga) with merchandise from Khwarezm. Other ships from the land on the right side of the Volga bring black fox pelts and these are the most highly valued and precious furs...The black kind is found only in the region and in districts bordering on it. The Kings of the barbarians (the Northmen) live luxuriously in that they clothe themselves in these skins and wear caps and coats made of fur."<sup>30</sup>

In his diary Ibn-Fadlan refers to the Arctic ocean and to the Tobol which lies to the east of the Urals. Al-Masudi also mentions Western Siberia and the Ob and Irtysh Rivers. A metal mirror with Arabic inscription found near Samarovo, near the confluence of the Ob and Irtysh, suggests that Tobolsk on the Tobol was already by the tenth century a trading centre.<sup>31</sup>



In 931, a son of the Emir Almus, having made a pilgrimage to Mecca stopped on his return at the court of Baghdad. There according to al-Masudi he offered the caliph gifts.<sup>32</sup>

Bulgar was not the only town in Bulgar territory. Nearby lay Souvar, mentioned by al-Istakhri, the ruins of which have been uncovered near the present village of Kouznetchka. Together Buglar and Souvar had a male population of 10,000 and each town possessed a mosque at the market place. The Persian work, *Hudud al-Alam*, of an unknown author asserts that the inhabitants of Bulgar and Souvar were zealous fighters for their faith.

The Arabs in their relations with the Bulgars transmitted not only the Koran but also the rudiments of their intellectual culture and civilization, only remnants of which have come to light. Throughout the period of Arab contact and certainly until the twelfth century, the unit of currency was fuors. Silver money from Baghdad and other Muslim states was also in use. From the beginning of the tenth century, the Bulgar's imitated the Samanid dirhans and later struck coins with the names of the Abbasid caliphs inscribed on them.<sup>34</sup>

Russian excavations at the site reveal that Bulgar served as the capital only in the 10th and 11th centuries, the capital then being transferred to Bilyar or Bilir some distance away from the river, probably to ensure greater protection in the forests. By the 13th and 14th centuries, Bulgar's major structures, palaces, mosques and baths, as well as its walls, were of stone, but these most likely were built after the Mongol attack in 1237 left the city in ruins.

#### IV

### THE VARANGIANS OR THE RUS

Ibn-Fadlan's account also affords the oldest accurate description of the people known as the Rus. Coming out of Scandinavia, this group of Northmen or Varangians were established in Kiev in 856 A.D. We have seen that Northmen had already reached Byzantium earlier in the century and in response to what was regarded as a threat, the Khazars, with Byzantine assistance had built the fortress of Sarkal on the lower reaches of the Don in 833. By 854 the Northmen had begun to levy tribute on the nor-

thern Slavic peoples while in 864 and in 884 they had sent expeditions down the Volga to the Caspian. In the meantime, some of the Kievan Rus had apparently converted to Christianity following an unsuccessful expedition against Constantinople in 860. Ibn-Fadlan in 922 saw these northern peoples personally and was careful to make a distinction between the Rus established in Novgorod and Kiev on the Varangian route and those who reached Bulgar. The primitive culture and rude behavior for the latter group revolted him.

The Volga traffic was of major concern to the Bulgars. Scandinavian raids in the Volga basin at first were not too disruptive. In any case throughout the early half of the 10th century, trade lay entirely in the hands of Rus and Arab merchants. Still, the Bulgars seem to have taken steps to win friends. It is reported that they exercised a decisive influence on the Pechenegs and the Polovtsy to the east to convert to Islam.<sup>35</sup> Their relations with the Slavic peoples and the Dnieper Rus were seemingly good - it being only 10 days journey to the borders of the Rus and 20 days to Kiev. Moreover, the raids down the Volga in 913 and 943 were directed far to the south and Bulgar seems to have been bypassed. However, the balance of power was gradually changing. In 963 the Kievan Prince Sviatoslav seized the Khazar fortress of Sarkel while in 965 he plundered Volga lands on his way to attack Itil, the Khazar capital. No great damage was done to Bulgar, but the decline of Khazaria was ultimately to have severe repercussions on all of Eastern Europe - and the Arab trade as well. It was at this time that the Khazar Kagan sought aid from Muslim states by abandoning Judaism for Islam.

For their part the Bulgars attempted to convert Kiev to Islam by sending an embassy in 986, while Prince Vladimir invited the Bulgars to explain the principles of their faith.<sup>36</sup> The effort failed for in 988 the Kievan state officially adopted Christianity, thus cementing its ties to Byzantium.

With Khazaria reeling under the attacks of the Northmen, Bulgar trade for a time gained momentum. The exchange of goods may have avoided the lower Volga and followed the caravan route across the eastern steppe. In any case this route increased in importance during the 12th and at the beginning of the 13th centuries. Abu Hamid al-Garnati is the single best known Arab trader of the Pre-Mongol period. On a journey into the

Ukraine he met merchants from Baghdad at a Slavic center he called Guekuman, which is thought to be either Kiev or another city of the Northern Rus.<sup>37</sup>

The weakening of the steppe empire, however, paved the way for the migrations of nomadic peoples who not only overran Khazaria but contributed subsequently to the destruction of both the Kievan and Bulgar states. But this came in the 13th century. In 1223 the Mongols swept out of Asia to impose a crushing defeat on Kiev while in 1237-38 they descended on Bulgar and destroyed the old town. Bulgar rose to a high culture later in the 13th century, but its future was doomed. Slavic principalities had survived in the north-Russian forests, though they were required to pay tribute to the masters of the Golden Horde. At the junction of the Oka and the Volga, the prince of Vladimir-Suzdal had already begun in 1221 the construction of a fortress. As Mongol power waned in the centuries that followed, Nizhni Novgorod replaced both Bulgar and the Mongol capital of Kazan as the principal trade center on the Volga. By then the prominent role played by Arab merchants in the trade of the Volga had long passed into history, with only the ruins of Islamic culture, coins, and the records of Arab travellers, geographers and historians - though long unknown in the Western World - to bear witness.

## FOOTNOTES

### Section I

1. Thomas Urnold, ed., **The Legacy of Islam** (Oxford; The Clarendon Press, 1931), p. 80. Ibn Hauqal had been born in Upper Mesopotamia in May, 943. In the course of his life he went to Armenia and Uzerbaidzhan and to Khwarizm and Transxiana, See **The Encyclopaedia of Islam**. New Edition, 1971, Vol. III, p. 787.
2. Oxenstierna states that shortly after the Northmen reached Byzantium in 830 A.D., presumably via the rivers of Russia, Arabian legates showed up in Denmark, presumably to establish cordial relations. See Eric Oxenstierna, **The Norsemen**. Tr. and ed. by Catherine Hutter (Greenwich, Conn : New York Graphic Society Publishers Ltd., 1965), pp. 76-77.
3. Arnold, p. 94. [Such Muslim] travellers as Ibn-Rusta (c. 900), Sulaiman (c. 850) and Abu Zaid al-Balkhi (c. 950) show that Muslim navigators were at home in East Indian waters, as well as along the coasts of India and East-Africa.
4. Guy le Strange, **Baghdad During the Abbasid Caliphate** (Oxford : At the Clarendon Press, 1900), pp. 6-14.
5. For the history of Basra, see **The Encyclopaedia of Islam**, New Edition, Vol. 1, p. 1085-1086. Until the 8th century, the initiative in trade relations across the Indian Ocean had belonged to the Chinese who were more enterprising than either Arab or Iranian merchants. See E.A. Belyaw, **Araby, islam i arabskii Khalifat v ranee srednevekov'e** Second edition (Moscow : Institut narodov Azii, ANSSR, 1966), Chapt. V.
6. Le Strange, p. 14. In addition to trade with China overseas via Canton, caravan routes reached into China from Baghdad via Hamadhan, Rayy, Bukhara, Samarkand, and the northern „silk route”.

7. Belyaev, Chapt. 15.
8. Arnold, p. 101.
9. Oxenstierna, pp. 74 ff; Ulla S. Linder Welin, **The Coins from Khwarazm and the Swedish Viking Age Hoards**. Historiska Museum. Meddelanden Fran Lunds Universitets, 1961, pp. 157-88; Georg Jacob, *Der Nordisch - baltische Handel der Araber im Mittelalter* (Leipzig: Georg Bohme, 1887), pp. 30-50; Georg Jacob, **Welche Handelsartikel bezogen die Araber des Mittelalters aus den nordisch - baltischen Landern ?** (Berlin : Mayer and Muller, 1891). R. Hennig, "Der Mittelalterliche arabische Handelsverkehr in Osteuropa", *Der Islam*, Band 22, Heft, 3, 1935, pp. 239-65.
10. Arnold, p. 101.
11. The best account in English of the history of the Khazars and of the Arab - Khazar wars is to be found in D.M. Dunlop, **The History of the Jewish Khazars** (Princeton : Princeton University Press, 1954). Chapters IV and V deal with the wars. Inre Boba's monograph, **Northmen and Slavs Eastern Europe in the Ninth Century** (The Hague : Mouton, 1967), affords a scholarly study of the interplay of the Byzantine Empire, Khazaria, the Arabs, the Ruses and the Slavs in a critical period in East European history. The major Soviet work on the Khazars is M.I. Artamonov, **Istoriia Khazar** (Leningrad, 1962).
12. Roba, p. 57.
13. The reasons for the conversion of the Khazar elite to Judaism are explored by Dunlop, according to both Arabic and Hebrew sources. Dunlop, pp. 89 ff. A new study of Judaism among the Khazars, as well as support for the notion that the Jews of Eastern Europe derive from the Khazars is found in Arthur Koestler, **The Thirteenth Tribe The Khazar Empire and its Heritage** (London; Hutchinson and Co., Publishers).
14. Kovalevskii, p. 31.
15. **Encyclopaedia Judaica**, Vol. 10, pp. 944-45.
16. Boba, p. 115.
17. W. Heyd, **Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age**, Vol. I (Leipzig) Otto Harrassowitz, 1923), p. 47.

18. Dunlop, pp. 37 ff, 40 ff.
19. Christian Gerard, **Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube** (Paris : G. — P. Maisonneuve, 1939), p. 51.
20. **The Encyclopaedia of Islam**, Vol. 1, 1960, p. 1304.
21. Hennig, p. 239 ff; Joachim Lelewel, **Geographie du Moyen Age**, (Brussels, 1852), Vol. II, pp. 30-31. Reprinted by Meridian Publishing Co., Amsterdam, Holland, 1966.
22. Hennig, p. 240.
23. Gerard, p. 56.
24. Hennig, 239 ff; A.P. Kovalevskii, **Kniga Akhmeda Ibn-Fadlana i ego Puteshestvii na Volgu v 921-922 gg.** (Kharkov; 1956). A. Zeki Validi, „Ibn Fadlan's Reisebericht", in **Abhandlungen fur die Kunde des Morgenlandes** Deutsche Morgenlandische Gesellschaft (Leipzig, 1939), reprinted by Kraus Reprint Ltd., Nendeln, Liechtenstein, 1966; "Ibn Fadlan's Account of Scandinavian Merchants on the Volga in 922", Tr. by Albert S. Cook, in **The Islamic World and the West, A.D. 622-1492**, ed. Archibald R. Lewis (New York : John Wiley and Sons, Inc., 1970), pp. 17-23.
25. Gerard, p. 56.
26. **The Encyclopaedia of Islam**. New edition, Vol. IV, 1974, p. 280 makes the point that the Volga Bulgars were first touched by Sunni Islam in 922-23. It also points out that Sunni Islam was further strengthened by the advance of the Mongols in the 13th century and the establishment of the Golden Horde, whose capital cities of Old and New Saray were on the lower reaches of the river. Membership in the same Islamic sect apparently did not spare the Bulgars from a devastating Mongol attack in 1237-38.
27. Boba, p. 27.
28. Boba. p. 27.

29. P. Lyubomirov, „Torgovie sviazi drevnei Rusi svostokom v VIII-XI”  
*Uchenyi zapiski*, Vol. 1/3, 1923, pp. 6-38 ; Boba, pp. 27 ff,  
For a French translation of al-Masudi's work, see *Les Prairies d'Or*  
tr. Barbier de Meynard and Pavet de Courteille (Paris, 1962).
30. Oxenstierna, p. 119.
31. Hennig, p. 239-40.
32. Gerard, p. 58.
33. Gerard, p. 59.
34. Welin, p. 158.
35. *The Encyclopaedia of Islam*. Vol. 1, 1960, p. 1304.
36. *The Encyclopaedia of Islam*, Vol. 1, 1960, p. 1304.
37. Arnold, p. 105. See also V.P. Darkevich, “K istorii torgovykh  
sviazey drevney Rusi,” *Kratkie soobshcheniia*, No. 138 (Moscow :  
ANSSR, 1974), pp. 93-103.





## نشاطات الاتحاد

\* تحقيقا لمنطوق الفقرة السابعة من المادة الثالثة من قانون اتحاد المؤرخين العرب والتي تنص على ( السعي الى تنسيق مناهج تدريس التاريخ في مرحلة التعليم المختلفة في الوطن العربي ) فأتحت الامانة العامة للاتحاد كل من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ووزارة التربية في القطر العراقي بالموافقة على مفاتحة الجهات المختصة في جامعة الدول العربية لاتخاذ الاجراءات الاصولية لتحقيق هذا الهدف.

\* طلبت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اعتبار اتحاد المؤرخين العرب منظمة تابعة للمنظمة المذكوره مع تخصيص منحة مالية سنوية تساعد الاتحاد على تحقيق مهماته واشراك اتحاد المؤرخين ببعض اللجان والنشاطات في المنظمة اعلاه والتي لها علاقة باختصاصه ومساعدته في ان تكون اتصالاته بالحكومات العربية بواسطة المنظمة ، وقد نالت هذه المقترحات التأييد والترحيب من لدن السيد المدير العام للمنظمة .

\* ايدت وزارة التربية في القطر العراقي فكرة الامانة العامة للاتحاد بشأن توحيد المناهج التاريخية للمراحل الثلاث وتم مفاتحة الجامعة العربية بذلك .

\* قامت الامانة العامة للاتحاد بارسال نسخة من توصيات مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية المنعقد في الدوحة من ٢١ - ٢٧ اذار ( مارس ) ١٩٧٧ الى كافة الوزارة ذات العلاقة والجامعات العربية واعضاء المكتب الدائم في الوطن العربي لتبني تلك التوصيات والاخذ بها .

\* استقبل سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم اماره الشارقة السيد الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب حيث اوضح السيد الامين العام للاتحاد مشروع اقامة مهرجان التراث في الاندلس وراى الاتحاد في اقامة مؤتمر الترابط العربي الافريقي في مدينة الشارقة وقد أبدى سمو الشيخ اهتمامه للموضوع كما أبدى كامل استعداده للتجاوب مع اهداف اتحاد المؤرخين العرب .

\* عقد المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب في مدينة الدوحة للفترة من ١٨ - ٢١ اذار ( مارس ) ١٩٧٧ واتخذ التوصيات التالية :

١ - توجيه تحية تقدير لحكومة الثورة في العراق على اسنادها ودعمها لاتحاد المؤرخين العرب وتثمين المنجزات القومية التي حققها العراق بقيادة الرئيس احمد حسن البكر والتي تعتبر اساسا لتقدم الامة العربية ودعمها لتراثها الخالد .

٢ - طبع تقرير الامين العام وتوزيعه على الاعضاء قبل قراءته ليتدارسوه ويناقشوه .

٣ - زيادة تنشيط الاتصال بين الامانة العامة واعضاء المكتب الدائم بما يكفل اطلاع المكتب الدائم دوريا وبمعدل مرة واحدة كل ثلاثة اشهر على الاقل على نشاط الامانة العامة والاخبار التاريخية الهامة .

٤ - تكليف الامانة العامة بالاتصال بالحكومات العربية الاسلامية والمؤسسات العلمية بشأن مساهمتها في مشروع لكتابة التاريخ العربي الاسلامي على اسس علمية موضوعية .

٥ - الغاء رسم الاشتراك السنوى ، على الامانة العامة عرض على المؤتمر العام لاستحصال الموافقة .

٦ - تكليف الامانة العامة باجراء اتصالات بالدول العربية والاسلامية والاجنبية بشأن اقامة ( مهرجان التراث العربي الاسلامي ) في الاندلس بشأن تنظيمه وطلب الدعم له .

٧ - تكليف الامانة العامة بتجديد الدعوة لمسؤولي وزارات التعليم العالي والتربية في الوطن العربي بضرورة العمل على توحيد مناهج تدريس التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي .

٨ - تكليف الامانة العامة بمفاتحة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بضرورة دعم الاتحاد وذلك بتخصيص منحه سنوية تساعد على اداء مهماته وتحقيق اهدافه .

٩ - تكليف الامانة العامة باجراء اتصالات مباشرة مع الحكومات العربية ومفاتيحها بشأن امكانية استضافة المكتب الدائم عند انعقاده في دورته المقبلة .

\* شاركت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بوفد الى مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية في مدينة الدوحة برئاسة السيد الامين العام للاتحاد خلال الفترة من ٢١ - ٢٧ مارس ( اذار ) ١٩٧٧ وافر المؤتمر اتوصيات التالية :

( أ ) دعوة الحكومات العربية الى تأييد جهود اتحاد المؤرخين العرب من اجل خدمة التاريخ والتراث العربي الاسلامي .

( ب ) مناسدة دولة قطر التي اعطت الدراسات التاريخية لمنطقة الخليج عناية كبيرة بانشاء مركز للدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية يكون مقره مدينة الدوحة .

( ج ) مضاعفة الاهتمام بسائر المخطوطات والوثائق المتعلقة بتاريخ شرقي الجزيرة العربية حيثما وجدت وخاصة المخطوطات العمانية .

لاهميتها ، والعناية بتدوين الروايات الشفوية وكذلك ما يتوفر  
من الوثائق البرتغالية بمعاهد المغرب العربي •

( د ) توجيه الاهتمام بالدراسات التاريخية لشرقي افريقيا لعلاقتها  
بشرقي الجزيرة العربية •

( هـ ) تأكيد الاهتمام بالحفريات والدراسات الاثرية المتواجده بالمنطقة •

( و ) دعوة الجامعات العربية الى العناية بدراسة منطقة الخليج من  
جوانبها المختلفة في اقسامها المتخصصة ... وكذلك توجيه طلاب  
الدراسات العليا الى ابحاث علمية تغطي الموضوعات العديدة التي  
تحتاج الى البحث والدراسة في المنطقة •

( ز ) مناشدة الحكومات بدول الخليج بتسهيل مهمة الدارسين لتاريخ  
المنطقة باتاحة الفرص لهم للاطلاع على الوثائق داخل وخارج  
المنطقة وعلى كل المستويات لخدمة الدراسات التاريخية ... ودعوة  
المراكز المتخصصة في منطقة الخليج لتنسيق التعاون فيما بينها •

( ح ) دعوة حكومات المنطقة واتحاد المؤرخين العرب للعمل على اقامة  
المؤتمر القادم في احدى العواصم العربية خلال سنتين •

\* هنأت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب السادة اعضاء المكتب الدائم  
للاتحاد وبمناسبة حلول الذكرى الثالثة لميلاده المنبثق في  
• ١٨/٥/١٩٧٤ •

\* طلبت الامانة العامة للاتحاد من جامعة الدول العربية / الامانة العامة /  
اشعار كافة الدول العربية بضرورة دعم مهرجان التراث العربي المزمع  
اقامته في الاندلس وتمويله وتقديم كل المساعدات والتسهيلات •

\* تستعد الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب الى اقامة مهرجان العربي  
في الاندلس صيف عام ١٩٧٨ ولمدة اسبوعين حسب البرنامج التالي :  
١ - محاضرات في التراث العربي لاساتذة عرب واجانب •

- ٢ - اقامة معرض لاهم معالم التراث العربي •
  - ٣ - عرض لوحات فلكلورية ( موسيقى ، غناء ، رقص شعبي ) •
  - ٤ - عرض مسرحيات عربية •
  - ٥ - عرض برامج تلفزيونية وسينمائية تظهر النشاط العربي في مختلف مظاهر الحضارة الانسانية •
  - ٦ - طبع بعض الكتب التي تعنى بتاريخ الاندلس والتاثيرات المتبادلة بين العرب واوروبا وتوزيعها بمناسبة المهرجان •
  - ٧ - لوحات تصويرية لمظاهر التراث العربي •
- \* قام الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب بصحبة بعض اعضاء الاتحاد بزيارة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واجروا مع السيد المدير العام للمنظمة مداولات حول موضوع مهرجان الاندلس واطلاع المنظمة على اخر نتائج نشاطات الاتحاد بهذا الشأن •
- \* اجرى السيد الامين العام للاتحاد اتصالات مباشرة مع السادة وزراء التربية والاعلام في كثير من الاقطار العربية وخاصة الخليجية منها حول مساهمة ودعم هذه الاقطار لمهرجان الاندلس وقد استجاب السادة الوزراء مشكورين ووعدوا بتقديم العون المادى والمعنوى ، وقد تم اطلاعهم على الميزانية المقترحة لتغطية نفقات المهرجان •
- \* تقرر تاليف هيئة تحضيرية للاشراف على اعداد اقامة مهرجان التراث العربي في الاندلس في تموز ( يوليو ) ١٩٧٨ •
- \* اينفاد بعض السادة الاساتذة من اعضاء الاتحاد الى بعض الدول العربية والاجنبية للقيام باجراء البحوث العلمية والاطلاع على الوثائق التاريخية واهم المخطوطات في المكتبات العالمية وذلك تحقيقا لاهداف اتحاد المؤرخين العرب •

\* شاركت الامانة العامة للاتحاد بوفد للندوة العالمية الاولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية التي عقدت في الرياض للفترة من ٢٢/٤ - ٢٦/٤/١٩٧٧ برئاسة السيد الامين العام للاتحاد .

\* تم اختيار الامين العام للاتحاد عضوا في اللجنة الاستشارية لمعهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

\* تنفيذا لتوصيات المكتب الدائم للاتحاد الذي عقد في الدوحة في شهر اذار/١٩٧٧ يقوم السيد الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب بزيارة الى المملكة المغربية لاجراء اتصالات مباشرة مع كبار المسؤولين العرب لشرح اهداف الاتحاد وتوضيح مهماته في الحقلين القومي والعلمي مع تقديم شرح مفصل لمشروعاته المستقبلية وبخاصة مشروع اقامة مهرجان التراث العربي في الاندلس .

\* تساهم الامانة العامة للاتحاد بالاحتفال العلمي للمؤرخ العربي عبد الرحمن بن زيدون والذي يقام في جامعة عين شمس .

\* تقيم وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية في شهر تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩٧٧ بالتعاون مع اتحاد المؤرخين العرب المؤتمر التذكارى للعالم المؤرخ ارنولد توينبي تقديرا لمكاته العلمية ووفاء من العرب لموافقة الرائعة من الحضارة العربية .

\* سيصدر اتحاد المؤرخين العرب موسوعة تتضمن اسماء جميع المؤرخين والباحثين العرب مع نبذه عن حياتهم ونشاطهم العلمي .

\* وافقت حكومة دولة قطر من حيث المبدأ على اقامة مركز للوثائق في منطقة الخليج العربي يكون مقره مدينة الدوحة .

\* نتيجة للجهود التي بذلها الامين العام للاتحاد مع اللجنة العليا لوضع الاطلسي العالمي الذي تقوم باعداده جامعة ثوبنكن في المانيا الاتحادية وافقت اللجنة العليا على حذف عبارة ( اسرائيل ) من على الخارطة ووضع كلمة فلسطين عليها فقط .



مركز تحقيقات كميّات علوم إسلامي



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



## أهم الكتب التي صدرت حديثاً

\* المعجم المفهرس للمعاهدات والاتفاقيات والبرتوكولات الموائيق والعهود والاحلاف التي ارتبط بها العراق مع الدول والمنظمات الدولية والمؤسسات الاجنبية في عام ١٩٢١ اصدرته وزارة التخطيط في القطر العراقي والمعجم من وضع واعداد الاستاذ فؤاد الراوى •

\* دليل الخليج يتكون من قسمين القسم الاول يتضمن تاريخ منطقة الخليج وما حولها من الاقطار والقسم الثاني وهو معجم جغرافية المنطقة وقد طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني امير دولة قطر ، ويعتبر الكتاب من اهم مصادر تاريخ الخليج العربي •

\* سلسلة رحلتي الى افريقيا العربية :

١ - ليبيا • ٢ - تونس الخضراء •

وهما من الكتب الممتعة والتي تعطي معلومات مهمة عن القطرين العربيين الشقيقين للاستاذ ناجي جواد من القطر العراقي •

\* تاريخ اليمن القديم - ويبحث الكتاب في الممالك اليمنية القديمة كما تناول فصلا منه عن جوانب الحضارة اليمنية القديمة - للاستاذ محمد عبد القادر بافقية •

\* التاريخ العسكري لليمن ١٨٣٩ - ١٩٦٧ وهو من الكتب المهمة في تاريخ اليمن الحديث ويتناول تطور واحداث القوات اليمنية خلال الفترة المذكورة ويعتبر دراسة سياسية شاملة تبحث في نشؤ وتطور المؤسسات والانشطة العسكرية للاوضاع والمتغيرات السياسية للاستاذ سلطان ناجي •

\* التاريخ فكرة ومنهج - وهو دراسة في اصول البحث التاريخي للدكتور عبد الله الفياض الاستاذ في كلية الآداب - جامعة بغداد •

\* وثائق التاريخ القطري - الشؤون القطرية من سنة ١٨٧٣ م الى ١٩٠٤م - طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد ال ثاني امير دولة قطر ، تعريب الاستاذ احمد العناني واشراف الاستاذ ناصر محمد العثمان .

\* اصدرت وزارة التعليم في جمهورية مصر العربية دليلا لرسائل الدكتوراه والماجستير التي منحت من الجامعات المصرية .

\* الفارابي والحضارة الانسانية - كتاب اصدرته وزارة الاعلام في القطر العراقي وهو مجموعة المحاضرات التي قدمت لمهرجان الفارابي الذي اقامته وزارة الاعلام للفترة من ١٠/٢٩ ولغاية ١٩٧٥/١١/١ في بغداد .

\* السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر والكتاب في قسمين الاول في السياسة العثمانية تجاه احتلال مدينة الجزائر والثاني السياسة العثمانية تجاه احتلال بلاد الجزائر ثم تبعه بدراسة عن الحاج احمد باي قسنطينة - للدكتور ارجمند كوران ونقله عن التركية الدكتور عبد الجليل التيمي - استاذ التاريخ بالجامعة التونسية .

